من الشرق والغرب

نافذة على الفكر العالمي الحر

الأمريكي القبيح

تأليف وليام ج. ليدرر

ترجمة ميشيل تكلا

مراجعة دكتور ابراهيم حمده

تقديم محمد عطا

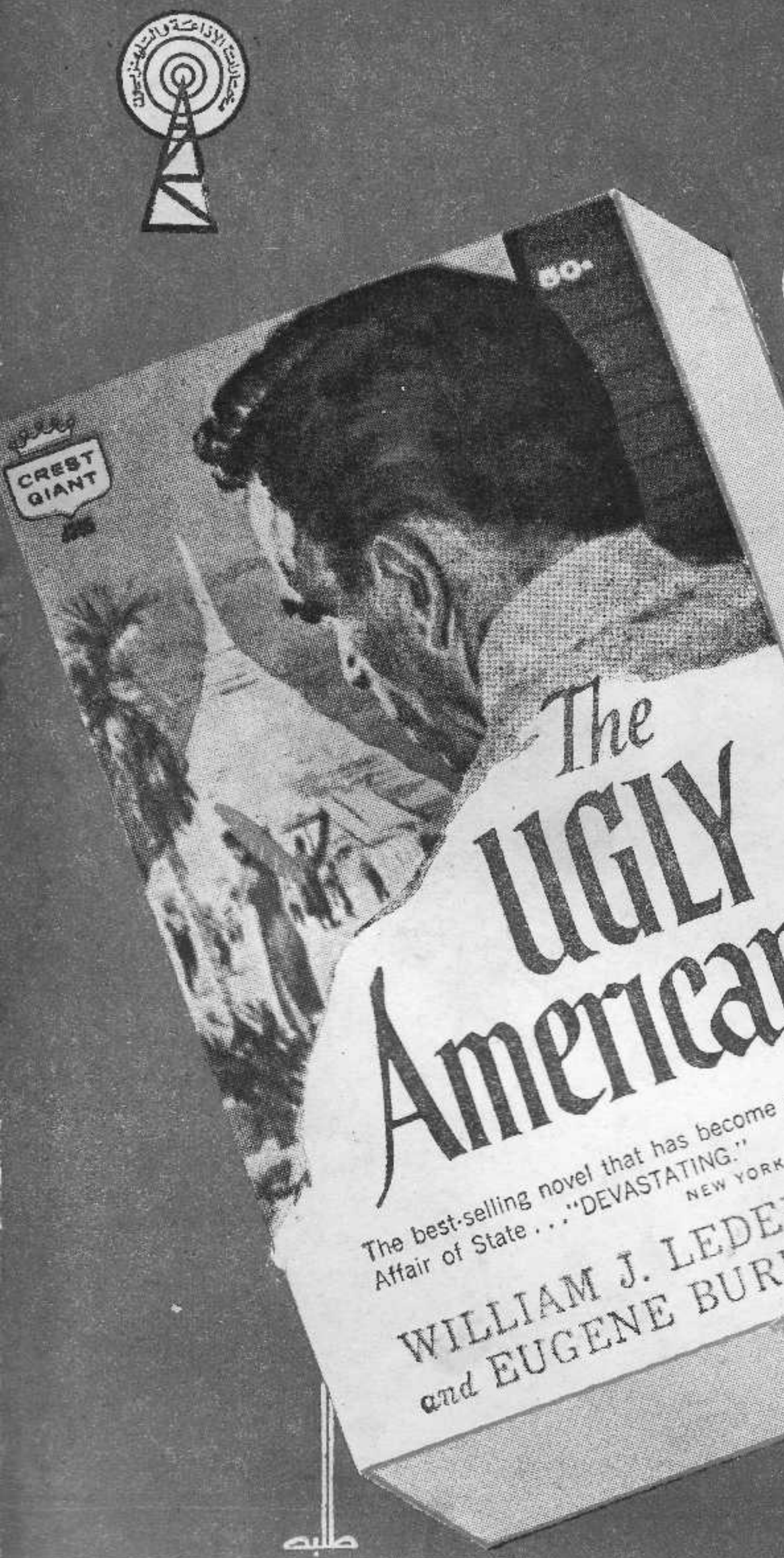

مقدمـــــــة

بقلم : محمد عطا

صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب « الامريكى القبيح » فى يوليو عام ١٩٥٨ ، وقد أحدث صدوره دويا ، بل انفجارا فى الرأى العام الامريكى فأعيد طبعه مرتين فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من العام نفسه ، ثم طبعات أخرى كان آخرها عام ١٩٦١ ٠

وليس من شك فى أن كاتبيه : وليم ليـدرر Lederer ويوجين بردك Eugen Burdick ، قد بذلا جهدا مشكورا فى جمع الحقائق والوثائق ، وفى التحليل والتعليل ، وكانا أكثر توفيقا فى العرض الشـــائق للمادة التى أورداها ، فقد ألبساها ثوب القصة المثيرة التى لا تنقصها الحبكة الفنية أو تتابع الاحداث أو تقابل الشخصيات وتصارعها ٠

ان الكاتبين يشدان القارىء اليهما برباط وثيق ، فلا يكاد يمضى فى قراءة الفصل حتى يتبعه بآخر الى أن ينتهى من هذه القصة الجذابة التى أقبل عليها الشعب الامريكى اقبالا عظيما كما أسلفنا ، ولما أوردته القصة من حقائق ملموسة واقعية ، وتعداد أخطاء الدبلوماســـية الامريكية فى المحيط الخارجى ، وخاصة المحيط الآسيوى ٠٠

والقصة مكونة من واحد وعشرين فصلا وخاتمة ، وعلى الرغم من أن أسماء الشخصيات التى ذكرت فى القصة مختلقة لا وجود لها ، فهى من بنات أفكار الكاتبين ، الا أن الاخطاء التى ارتكبتها أغلب هذه الشخصيات كانت حقيقة لا شك فيها ٠٠

واتخذ المؤلفان كذلك قطر «سارخان» ليكون مسرحا لاحداث القصة٠ وسارخان هذه بلد لا وجود له على خريطة العـــالم ، الا انه رمز لدولة آسيوية حيادية صغرى ، تقع بين شقى الرحى ، بين الضغط الشيوعى وبين الضغط الغربى ، ويظهر فيها بشكل واضح جلى تصارع الدبلوماسية ومحاولة كل من الجانبين ضم هذا البلد الى منطقة نفوذه ٠٠

وتستعرض القصة كيفية اختيار السفراء فى هذه البلاد النائيـة ، وتقابل بين اختيار روسيا لسفرائها هناك وبين اختيـــار أمريكا لهم ، فالسفير الروسى لم يصل الى منصب السفير الا بعد أن مر بعدة مراحل ، فقد عين فى أول الامر سائقا لسيارة السفير هناك ، ثم أخذ يدرس حتى نال اجازة علمية رفيعة ، فما ان وقع عليه الاختيار ليكون ســفيرا لبلاده فى سارخان حتى توافر وزوجه على تعلم لغة هـــذا البلد ، والتبحر فى عقائده وديانته البوذية ، والاحاطة بعاداته وتقاليده ، وبذلك لم يكن غريبا فى سارخان ، واستطاع بسهولة ويسر أن يندمج فى ناسه ، وأن يشعر

رجال الدين بأنه على معرفة واسعة بالديانة البـــوذية التى يكن لها كل احترام وتقديس ، وان لم يكن فى أعماقه كذلك ..

هذا ما حدث فى اختيار السفير الروسى،أما ما كان من اختيارالسفير الامريكى ، فقد كان الامر على النقيض ، فالسفير الامريكى اختاره لهـذا المنصب رجال حزبه الذى وصل الى الرئاسة والحكم ، واختاروه بعد أن رشحه الحزب فى دائرته وسقط أمام منافسه ، وكان لابد من أن يرضوه بوسيلة أو أخرى ، فقد أنفق فى الدعاية الانتخابية مالا وفيرا ، فهـــذا المنصب سيعوضه عما أنفق وبذل .

قبل السفير الامريكى هذا المنصب ، وسافر الى هنـــاك من غير أن يعرف شيئا عن لغة هذه البلاد أو عاداتها وتقاليدها ، فكان من الطبيعى جدا أن يستغل السفير الروسى جهله ، وسوء تقديره للامور ، ويوجـــه السياسة الوجهة التى يراها ، والتى تتمشى والسياسة الروسية .

وليس الامر من وجهة نظر الكاتبين أمر اختيار سفير فحسب ، بل أمر السياسة الخارجية ، بل أمر سياسة أمريكا جميعا ، فالكلمة العليا هناك فى تقرير السياسة الخارجية مثلا ، تتحكم فيها لجنـــة الشئون الخارجية للكونجرس وخاصة رئيسها .. فقد يوجد سفير لامع ، درس شئون البلد الذى يمثل حكومته فيه دراسة وافية واعية ، يبـــدى آراء وجيهة ومقترحات مدروسة ، ولكن رئيس لجنة الشئون الخارجيـة قد لا يهضم هذه المقترحات لان هناك مقترحات أخرى مضادة استقاها من سفير آخر ، يعرفه أو على علاقة به ، مما ينال من معنوية الســفير الذى لا يجد مفرا من تقديم استقالته .

***

ويذهب الكاتبـــان الى أن الامريكيين بوجه عام مثلهم كمثل أثرياء الحرب ، أغنياء ولكنهم بلهاء أغبياء . ففى البلاد التى يذهبون اليهـــا ويقيمون فيها يعيشون عيش بذخ وحياة ترف مما يولد الحقد والضغينة فى نفوس الاهلين الذين يعيش الاعم الاغلب منهم عيش الكفاف ، ويجعلهم ينأون عن التعاون معهم ، أو الاستماع الى آرائهم ونظرياتهم . ان شعور المواطنين فى بلد ما ينبغى أن يحترم ، وألا يمس أدنى مساس .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فيرى الكاتبان أن الامريكيين يعيشون فى البلاد التى يقصدونها عيش انعزال ، فلا يخالطون الجمهرة الشعبية، بل يعاملون نوعا معينا من الناس ، هذا النوع الذى يعرف اللغة الانجليزية أو تربى تربية انجليزية ، أو ذلك الصنف المترف من الطبقة العالية الذى يؤلف طبقة الاقطاعيين أو المستغلين ، هذه الطبقة التى تداعت أركانهـــا واهتزت قوائمها ، خاصة فى البلاد التى استردت حريتها أخيرا ، أو البلاد التى تعد فى حكم المتخلفة .

ومن هنا تصبح المعلومات التى يستقونها لا تعبر تعبيرا صحيحا عن الرأى العام فى تلك البلاد ، ومن ثم تضطرب خططهم ويفاجئون بالحركات الثورية من جانب الكتلة الشعبية التى تسيطر على الموقف فى هذه البلاد

والكاتبان غربيـــان ، ومن أجل هذا فهما يعنيان بالصراع الدائر بين بلادهما وحلفائهما ، وبين الكتلة الشيوعية ، وكيف أن روسيا استطاعت أن تضم الى نفوذها المباشر سبعمائة مليون نسمة عقب الحرب العالميـــة الثانية من غير أن تنفق تلك الاموال الطائلة التى أنفقتها أمريكا فى عته وإسراف ، أنفقتها فيما أسمته المعونة الاقتصادية ، أو على الاسلحة التى تمد بها القوات المتحالفة أو قوات الوطنيين ٠

أما المعونة الاقتصادية فكانت غير مجدية لانها تؤدى فى شكل توريد آلات عتيقة ، أو حبوب كالارز والقمح يقوم الشيوعيون المدربون خلسة بختمها بأختام تحمل شعاراتهم ، ثم يذيعون فى طول البلاد وعرضها بأن هذه المعونة روسية ٠

وأما الاسلحة فمن النوع الذى لا يتفق وجو البلاد الممطر التى يغطى الوحل أرجاءها ستة أشهر من السنة ، على أن تلك الاسلحة غالبا ما تقع غنيمة باردة فى أيدى الشيوعيين الذين لهم خططهم المســتحدثة ، وفنهم العجيب فى الحرب ٠

وينحى الكاتبان باللائمة على الفرنسيين المحـــاربين ، والامريكيين ، عدم محاولتهم الوقوف على هذه الخطط المستقاة من خطط ماوتسى تونج، مكتفين بالدراسات الكلاسيكية والعمليات الحربيةوالتشكيلات العسكرية التى استخدمها نابليون وغيره من قواد الحرب العالمية الاولى والتىأضحت الان غير ذات موضوع ٠

وفى هذه القصة الممتعة يذكر الكاتبان بطريقة غير مباشرة كيف أن نجاح الروس فى كسب البلاد وضمها الى مناطق نفوذهم مرده الى رســم سياسة طويلة المدى ينفذون خطوطها بدقة واحكام ٠ فقبل أن يقدموا على خوض أية حرب فى هذه البلاد يتسللون الى تجمعات الشـــعوب ، الى وسائل الاعلام ، الى المؤتمرات والندوات التى تعقد ، الى مجالس الشعب فى القرى ، الى المدارس والمعاهد حيث يوحون بآرائهم ، ويسيطرون على عقول الجماهير والطبقة العاملة ، حتى يصبح الطريق ممهدا أمام القوات الشيوعية ، التى لا تجد كبير عناء فى السيطرة وكسب المواقع ٠

بل يذكر الكاتبانكيف أن الشيوعيين ينفذون الىالسفارات الغربية، ويقفون على أسرارها عن طريق الخدم الوطنيين المعينين فيها ٠ ويذكران كذلك كيف أن الموظفين الامريكيين فى احدى السفارات يبلغون ثلاثمائة، ليس من بينهم الا خمسة أشخاص ممن لهم قدرة الكفاح والنضـــال أمام الشيوعيين ، بل أن هؤلاء الاشخاص الخمسة يحـــاربون من بنى وطنهم الرسميين بالنقل أو عدم تجديد اقامتهم وطردهم من البلاد ٠

والكاتبان يطالبان الحكومات الامريكية بطريق غير مباشر أيضا بأن تكف عن اقامة المشروعات الطويلة المدى فىالبلاد المتخلفةكاقامة السدود ، وشق الترع ، وتمهيـــد الطرق وأن تستبدل بها اقامة مصنع صـــغير للطلمبات ، أو فتح محال للمكانس ذات الايدى ، فقد لاحظ أحد الخبراء

الامريكيين تقوس ظهورالفيتناميين فىشيخوختهم، فعزا هذا التقوس الى أنهم يكنسون دورهم أو محالهم بمكانس بلا أيد . وأظن ان هذه الدعوة مثار للسخرية ، بل انها ترجع الى النزعة الاستعمارية التى تعمد الى الضحك على عقول أهل البلاد المستعمرة بتقديم أتفه المشروعات وأقلها أثرا ..

على أن الكتاب لا يغفل توجيه النقد الى اقامه القواعدالجوية الامريكية على غير رغبة من البلاد المقامة فيها ، والى السياسة الامريكيةالتى لاتحترم وجهة نظر الدول غير المنحازة ، والى الامريكيين الذين يقيمون فىالخارج، ويرتكبون الحماقات من غير أن يراعوا شعور الوطنيين ، والذين لا يشاركون هؤلاء الوطنيين أعيادهم القومية ، أعياد الحرية والاستقلال.

وقد أدت صراحة الكاتبين الى أن ينتشر هذا الكتاب على نطاق واسع وخاصة فى أمريكا ، وفى مدى عامين تسلم الكاتبان آلاف الرسائل والاستفسارات عما ورد فى الكتاب من حقائق ، وعن الوسائل المؤديةالى نجاح الدبلوماسية الامريكية فى الخارج مما جعل وليم ليدرر ، أحد المؤلفين ، يصدر كتابه « أمة من الاغنام » الذى ترجم فى مصر الى العربية، يرد فيه على الاسئلة والاستفسارات التى تلقاها بالبريد .

وقصة « الامريكى القبيح » علقت عليها كبريات الصحف ، كصحيفة « النيويورك تايمز » التى قالت عنها : « ذكر الكاتبان أن هذه القصة من وحى الخيال ، ولكن المراسلين الذين قضوا وقتا طويلا فى البلاد التى أشار اليها الكتاب يعلمون علم اليقين أنها حقيقية لا جدال فى ذلك » .

وقالت صحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون » : « نأمل أن يقرأالملايين قصة (الامريكى القبيح) ، ونأمل أيضا أن يعلم القراء شيئا عن المشكلة كما عرضها الكاتبان فى أسلوب شائق جذاب » ..

وقد أدى انتشار هذه القصة على نطاق واسع الى أن أصبحت مادتها موضوع قصة سينمائية عالمية تخرجها الشركات الامريكية الان .

***

وبعد ، فما الذى يقصده الكاتبان « بالامريكى القبيح » ، انهما لم يقصدا به الا قبح اليدين والوجه فحسب . أما الامريكى ، الذى تناوله الكاتبان بهذا العنوان فى فصلين متعاقبين ، فى حقيقة نفسه ، فهو ذلك الرجل المجد المخلص العامل . ونحن نعلم ان الرجل لا يقاس بجمال صورته قدر ما يقاس بخلقه وجده ومثابرته . فعنوان القصة اذن من العناوين الخداعة التى برع فى ابتكارها أغلب الكتاب الامريكيين ليلفتوا الانظار الى مؤلفاتهم ..

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى نقل أفكارالكاتبين الىالعربية نقلا كاملا أمينا صادقا ..

(محمد عطا)

كلمة المؤلفين

كتبنا هذا الكتاب كقصة خيالية ، لكنها مبنية على وقائع حـــدثت بالفعل ، لا فى آسيا وحدها ـ حيث تدور حوادث القصة ـ بل فى مختلف بلاد العالم ، أى فى التسع والخمسين دولة التى يعســكر فيها أكثر من مليونين من الامريكيين ..

لذلك أضفنا فى نهاية الكتاب فصلا كاملا تدعمه الوثائق الرســمية التى نرجو أن تقنع القارىء بأننا لم نتجن على الحقيقة فى شىء، بل ذكرناها سافرة عارية ، وصغناها فى أسلوب خيالى ..

كما أن الاسماء والامكنة والحوادث المذكورة فى هذا الكتاب هى من وحى أفكارنا ، ولم نهدف من وراء ذلك الى احراج أفراد معينين ، بل كان هدفنا الارتقاء بالفكر الانسانى .. وحفز المسئولين الى العمل السريع ..

بيرل سيتى ـ أوهيو

بيل ليدرر ، يوجين بردك

الفصل الأول

لو .. السعيد .. «رقم ١»

ان فخامة لويس سيرس السفير الامريكى فى « سارخان » غاضب.. على الرغم من أن جهاز التكييف قد رطب حجرة مكتبه . انه كان يشعر فى قرارة نفسه بالضيق والانفعال ، بعد أن تصفح جريدة « النجمة الشرقية لسارخان » وهى من أوسع الجرائد انتشارا فى « هايدهو » ، وأطال النظر فى الكاريكاتير ..

لقد تحدث السفير سيرس الى نفسه : أنا لا يهمنى ما يقوله رئيس الوزراء ومستشاروه الصغار ، فى «النجمة الشرقية» فهى جريدة حمراء، وانما يهمنى هذا الكاريكاتير الذى يشبهنى الى حد كبير وان بدا مجرد مصادفة أو كحادث عرضى ..

ونحى السفير رأسه عن الجريدة وهو غاضب واتجه الى النافذة ، حيث أطل منها على خمائل السفارة المؤدية الى الطريق الرئيسى«لهايدهو» فى صف طويل أخضر مشذب ، يقابله صف آخر تزدان خمائله بألوان حمراء وأرجوانية جميلة وأخرى فى لون الخبازى ، وتتدلى أزهارالاركديا فى أناقة ورشاقة من أشجار التين الهندى ـ وصفوف أخرى منتظمة من أشجار « البامبو » الرفيعة الممشوقة ، وفى نهاية الخمائل سور حديدى يفصل السفارة عن ضجيج الشارع وضوضائه ..

وفى نهاية الشارع ، كان خط طويل من النسوة يتحرك نحو « هايدهو » ، كما دأبن على ذلك كل يوم ، يحملن حزم الاخشاب أو سلال الخضر ، من فجل وبصل وأغصان مثقلة بالفول الاخضر ، وقليل منهن يحملن فوق رؤوسهن سلالا من السمك الطازج الفضى بتأثير شمس الصباح المشرقة ..

وكان السفير سيرس يتفرس فى هذا المشهد ، ويقول لنفسه : باللقرود الغريبة التى تتحرك فى نظام رتيب..النسوة يقمن بكل الاعمال أما الرجال فيلهون ويمرحون ..

وكانت السيارات التى تمر أمام السفارة لا تتعدى العربات التى منحتها الهيئة الاستشارية الامريكية الى حكومة « سارخان » . وكانت هذه السيارات تنهب الطريق نهبا ، وتطلق أبواقها بصفة دائمة وكأنها جزء يدار مع آلاتها لا يتوقف الا اذا توقفت محركاتها ..

وكانت سيارات تتجه صوب الشمال تحمل معدات حربية،صناديق أنيقة معبأة بالقنابل اليدوية ، ورزم من الاسلاك الشائكة وبراميل من الزيت والبترول ، وصناديق مثلثة الشكل بها مدافع رشاشـــة سريعة الطلقات ·· مصنوعة كلها فى أمريكا ·· هكذا كان يفكر السفير سيرس·

وفى غمضة عين عاوده غضبه ، وهو ينظر ثانية الى «النجمة الشرقية» كان الكاريكاتير واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار ، ورغم ان السفير لم يكن يقرأ اللغة السرخانية ، ولا يفقه منهـا غير كلمات بسيطة حشرت فى دماغه حشرا ، الا أن الكاريكاتير كان صورة لرجـل أمريكى بدين ، قصير يتصبب العرق من جبينه وفمه مفتوح ، كأنه بغل يصهل ، وهو يقود رجلا سرخانيا نحيلا وفى رقبته طوق مكتوب عليه كلمتان باللغة السرخانية ميزهما السفير لاول وهلة هما « كوكاكولا » وتحت قدم الرجل القصير البدين كتبت كلمة « محظوظ » باللغة الانجليزية ··

وكان السفير يود فى قرارة نفسه أن يتصـــل بأمريكى من السفارة يجيد قراءة اللغة السرخانية ، فقد كره أن يسأل المترجم الوطنى المعين فى « خدمة الاستعلامات الامريكيه » عن معنى الكاريكاتير أو ما يهدف اليه ، لانه كان يشك دائما فى هذه القرود الصغيرة التى كانت تكذب عليـــه وتخدعه ·· لكنها فى هذه المرة لن تستطيع كبح جماح غضبه ، لاسيما وقد كتبت تحت الشخصية البدينـــة كلمة Lucky أى محظوظ ·· واسم « لاكى » أو « لاكى لويس » هو اسم التدليل للسفير سيرس !

انخرط السفير سيرس فى خدمة السلك السياسى للولايات المتحدة الامريكية بعد أن ظل عضوا مشهورا فى مجلس الشيوخ ثمانية عشرعاما وكان يشاع أن نجاحه المستمر فى الانتخابات كان من قبيل الصـــدفة العذراء أو حسن الطالع ··

فعندما نجح سيرس الديمقراطى لاول مرة فى الانتخابات قال عنـه « درو بيرسون » بالحرف الواحد : « لقد انتخب سيرس لانه كان محظوظا من ناحية ولانه كان ديمقراطيا فى سنة ديمقراطية من ناحية أخرى ! »

وفى الجولة الثانية مات غريمه الجمهورى قبل الانتخـــابات بعشرة أيام ، حتى ان سيرس نفسه ، عد نفسه محظوظا بموت غريمه المفـاجىء وفوزه للمرة الثانية ·

ومن عجائب المصادفات أن زوج غريمه تورطت فى فضيحة اجتماعية فى أثناء المعركه الانتخابية الثالثة فكان نجاحه ساحقا ·

ومن عجائب القدر أيضا أنه عندما فشل سيرس فى انتخابات الدورة الرابعة لم يلحظ انسان ان ذلك كان من سوء الطالع ··

ولم يهتم سيرس كثيرا عندما فشل فى الانتخابات الاخيرة ، لانه كان قد أمضى وقتا طويلا فى الحياة السياسية وكان يعلم تمام العلم أن الحزب الذى ينتمى اليه يدين له بالكثير ولن يتركه بعد فشله أو يتخلى عنه ·

وبعد يومين من انتهاء المعركة الانتخابية كان سيرس يتأبط نتيجة انتخابه وهو فى طريقه لحضور انعقاد اللجنة الاهلية ..

لقد وجه اليه السياسيون من رجال حزبه السؤال التالى : أى نوع من العمل ترغب فيه يا لاكى ؟

فأسرع يجيب : وظيفة قضائية مضمونة فى الاتحاد الفيدرالى ..

فأجابوه ـ لا بأس .. ولكن لن تكون هناك وظيفة شاغرة الا بعد مرور عامين .. والان يا « لاكى » هل تحب أن تكون سفيرا ؟

فأجاب على الفور ـ أنا .. سفير ..؟

ثم سرح بفكره لحظة ، وأخذ يتخيل نفسه وقد بدا فى حلة الصباح المزركشة ذات السروال المخطط وهو يقسم اليمين أمام محكمة سان جيمس ، آو وهو يصعد درج السفارة الفاخرة فى باريس !..

كان سيرس دبلوماسيا محنكا وداهية ، فأجابهم بقوله :

الان استمعوا الى يا أبنائى..ان السفير عليه أن يعطى أكثر مما يأخذ .. ولا بأس بذلك على شرط ان يكون هناك من يقف بجوارى لانكم تعلمون ظروفى الخاصة ، وان كل ما ادخرته خلال الثمانى عشرة سنة الماضية ذهب أدراج الرياح أو بمعنى أدق فى المعارك الانتخابية .

وهز الاستراتيجيون رؤوسهم ولم يبدوا أية ملاحظة .. فقد كان رد سيرس هو ما اعتادوا سماعه من غيره فى مثل هذه الظروف ..

وقال السياسيون آخر الامر : هاك وظيفة شاغرة لسفير فى سارخان بمرتب قدره ١٧ر٥٠٠ دولار فى العام ، ومن المؤكد انك تستطيع أن تدخر مالا من هذا المبلغ الضخم وكذلك ١٥ر٠٠٠ دولار كبدل تمثيل وتستطيع أيضا أن تشترى المشروبات الروحية من غير الضريبة الجمركية، ولا تدفع أى أجر عن مبنى السفير الذى سوف تشغله ..

فرد عليهم سيرس ـ ولكن فى أى جحيم تقع « سارخان » هذه ؟

ـ انها بلد صغير فى اتجاه بورما وتايلاند .

ـ والان لا أريد أن أقفز الى النتائج ، فأنا لا أحب السود ولا اجيد العمل معهم ..

ـ انهم ليسوا سودا .. بل داكنى اللون .. وعلى كل حال اذا كنت لا ترغب فى هذه الوظيفة فيمكننا أن نعينك كمساعد قانونى فى ..

ـ سأقبل وظيفة السفير ..

الحق أن السفير سيرس رحب بالفكرة فى قرارة نفسه أيما ترحيب، بعد أن ذكروا له رخص المشروبات الروحية ، وبيت السفير الانيق برياشه الفاخر وثرياته المتلألئة ، كل هذا سوف يعجب زوجته كثيرا .. وعلى كل حال فبعد أن وصل السفير الجديد بقليل الى سارخان بدأت موجة

بالكاريكاتير ضده تجتاح الجرائد اليومية ، الشيء الذى أقض مضجعه وأقلقه ·· انه فى أمريكا لم يكن ليهمه فى قليل أو كثير أن تسخر منه الصحف السيارة ، وتتحدث عن لون وجهه الاحمر أو عن قوامه الرشيق، وهو ذلك البدين المفرط فى بدانته حتى انه كثيرا ما كان يوجه حديثه فى الاجتماعات السياسية الى زملائه بقوله : اننى رجل بدين ولكنى أقوم بعملى خير قيام ··

وكان المسئولون يضحكون من دعابته ، ولكنه الان لا يحب أن يكون عرضة لسخرية أهل سارخان ، ولن يسمح لهم بالتندر على ضخامته وبدانته ، وظل السفير ينظر الى الكاريكاتير عندما فتح الباب على مصراعيه ودلفت منه مارجريت جونسون الملحقة الصحفية بالسفارة ، وقد بدا عليها الغضب والاضطراب حتى أنها بدأت حديثها من غير أن تلقى تحية الصباح على فخامة السفير · وقالت الصحفية بسرعة : سيدى السفير ، ان فئة من الرعاع هاجمت « جون كولفين » وضربته ضربا مبرحا ثم ألقوا بجثته فوق درج السفارة الليلة الماضية ، فهرعنا لنجدته ، ويعتقد الطبيب انه سوف تكتب له الحياة ، ولكن يجب أن نعد بيانا نوزعه على الصحف ··

فرد السفير بغضب ـ يا للعنة ·· لماذا تحدث هذه الاشياء دائما فى الصباح المبكر ؟·· لماذا ضربوه ؟

فأجابت مرجريت ـ لا نعرف السبب بعد ·· وكل ما عثرنا عليه هو ورقة ثبتت فى جسمه مكتوب عليها انه يعترض سبيل بنات «سارخان»·

فجلس السفير فى مقعده ، وأغرق فى ضحك طويل وقال والبشر يطفح على وجهه :

ـ يا للسماء ·· كنت أعتقد ان الزميل « كولفين » رجل متزن عاقل ·· الحق يا ماجى أن هذا النوع من الرجال هو الذى تصدر عنه هذه الافعال ··

فلم يبد على وجه مرجريت أى تبدل بل قالت فى صوت هادىء متزن:

ـ ربما يتطور هذا الامر الى ما لا تحمد عقباه يا سيدى السفير ·· فقد ينتهز أحد الاحزاب السياسية هذه الحادثة ويثيرها مشكلة قد يصعب حلها ··

فأجابها السفير سيرس ـ لا تهتمى بهذه التوافه يا ماجى · فمنذ متى والمشاكل الغرامية تتورط فى أمور سياسية ؟ فاذا أردت ما يشغلك فاهتمى بأمر هذا الكاريكاتير ·· اتصلى بالامير « نجونج » أو أيا كان اسمه أو المسئول عن المراسم ، وعندما ننتهى من أمر هذه الجريدة سأذهب لرؤية هذا الغبى كولفين ·

وأحنت مرجريت رأسها بأدب بالغ وغادرت مكتب السفير ··

***

بدأ « جون كولفين » يتحسس اللفائف التى لفت حوله عندما أخذ يسترد وعيه ببطء ٠ وكانت غرفة المستشفى هادئة تملؤها شمس الصباح الدافئة ، والجو المحيط به يوحى اليه بأنه ممدد فى فراش وثير والألم يضنيه ويهصره ، وأمامه كمية من الادوية توحى بأن شيئا حدث له ٠٠

وأخذت الذاكرة تعاوده فى بطء فتذكر الحوادث التى أفقدته وعيه وأدت به أخيرا الى المستشفى حيث يرقد على فراشه الان لا يبدى حراكا ، ثم تذكر صديقه « ديونج » الذى دأب على خدمته عشر سنوات ذاق خلالها الاهوال ، وهو يصوب البندقية الى ظهره ٠٠ فقد قابل « ديونج » هذا بعد وصوله الى سارخان بقليل عام ١٩٤٣ بمحض مصادفة أنقذته وأبقت على حياته ٠٠ فقد سافر كولفين وأمريكيان آخران الى سارخان بعد أن وقع عليهم الاختيار لانجاز مهمة سرية فدائية ، ولانهم كانوا يجيدون اللغة السرخانية اجادة تامة ٠ وكانت أجسامهم فى حجم أجسام أبناء سارخان وقد لفحت الشمس وجوههم فأحالتها داكنة اللون كالسرخانيين أنفسهم ٠ وكان هؤلاء الثلاثة من الجسارة والعناد بمكان حتى أنهم كانوا يظنون انهم لن يموتوا لقوتهم العجيبة الخارقة ٠٠ ومات الامريكيان فى حادثة من الحوادث وبقى كولفين وحده على قيد الحياة بعد أن أفلت بأعجوبة من أيدى اليابانيين أربع مرات ٠٠ وكانت صداقة « ديونج »هى التى كفلت له البقاء ٠

كان كولفين يجرى خلال طريق فى الغابة يحاول أن يفلت من خطورة مطارديه اليابانيين الذين أحاطوه احاطة السوار بالمعصم ، ثم ألفى نفسه فى مكان مفتوح وأمامه « ديونج » يسقى جاموسة منغدير ، ونظر الاثنان بعضهما الى بعض نظرة خاطفة ، ثم قرر كولفين أخيرا أن يثق « بديونج » فابتدره قائلا بلغة سرخانية سليمة ـ اننى أمريكى من المخابرات٠٠أقاتل اليابانيين وهناك فرقة منهم تطاردنى مطاردة عنيفة ، فان لم أجد مكانا أمينا أختبىء فيه فسوف يحضرون فى دقائق معدودات فهل تستطيع أن تساعدنى ؟

ونظر ديونج الى كولفين لحظة ثم ترك جاموسته واتجه اليه وقال وعيناه تلمعان ـ سأساعدك ٠٠

وأحنى كولفين رأسه فى الحال ، وأخذه ديونج من ذراعه وراح يجرى به فى اتجاه بركة ماء قليلة الغور ، وبيد واحدة انتزع ديونج عدة أعواد من البوص المفرغ وبيده الاخرى ألقى بجون فى الماء وهو يقول : تنفس خلال البوصة ولا تحرك رأسك مطلقا ولا تخرج من الماء حتى أجذب البوصة من فمك ٠٠

وغاص كولفين فى قاع البركة الضحلة ووضع ديونج حجرا فوق صدره ليبقى فى الماء وكان عمق الماء حوالى قدمين ٠٠ وشعر كولفين فى بادىء الامر بألم وضيق ، لكنه اطمأن وشعر براحة وهو يتنفس بسهولة خلال القصبة ٠٠

وبعد خمس دقائق ظهر فى العراء ثلاثة من الجنود اليابانيين ، وكان جون يسمع حديثهم وهو فى قاع البركة ، واستطاع أن يحدد بالضبط متى غادروا المكان بعد أن فشلوا فى العثور عليه · فظل فى مكانه عشر دقائق أخرى ثم شعر بحركة فتنبه وخرج من الماء والوحل يتساقط من وجهه وجسمه ، وديونج ينظر اليه ··

وخلال الثمانيه شهور التاليه كان الرجلان قد جابا بلاد السرخان طولا وعرضا نسفا خلالها اثنى عشرقطارا حربيا يابانيا مكدسةبالذخيرة، ونسفا كذلك ستة جسور حربية ووضعا قنابل زمنية فى هياكل ثمانى سفن لدوريات يابانية نهرية ··

وتوطدت الصداقة بين كولفين وديونج واستطاع الاول فى أثناءهذه المدة الطويله أن يتعرف على مشارب أهل سارخان وأهوائهم · وحلت أوقات كان يختفى فيها الاثنان من الدوريات اليابانية فى السهل الجميل ذى القبور المزركشة التى تضم رفات السرخانيين المحفورة من الصخور · وكانت تحيط بالسهل أشجار السرو الفارعة · وكثيرا ما كان الاثنان يزحفان لمدة ثمانى ساعات بين صفوف الاحجار المرصوصة الرابضة كفاصل بينهما وبين دوريات اليابانيين القساة ، حتى اذا أقبل المساء غادر اليابانيون السهل وقد أضناهم طول البحث والاجهاد ··

وذات يوم كان الاثنان يختفيان فى أحد معابد سارخان على شاطىء نهر « أورانج » الجميل ·· لا هروبا من الجنود اليابانيين بل من فرقة مطاردة الجواسيس · وكانت هذه الفرقة قد جاءت خصيصا الىسارخان من أندونيسيا لقهر كولفين والقبض عليه بأى وسيلة كانت · ولم يوافق كولفين فى بادىء الامر أن يختفى فى المعبد لانه مطل على النهر الذى قد يسد عليه طريق الهرب ، ولم يناقشه ديونج بل أصر على أن المعبد خير مكان لهما فى هذه اللحظة بالذات ·

وكان يشرف على المعبد كاهنان يلبسان مسوحا مزركشة ، يرافقهما عدد كبير من القرود المقدسة كانت تجىء وتروح على صخرة هيكل المعبد فى حرية تامة · وكان الكاهنان غارقين فى صلاة الصباح الطويلة عندما زحف ديونج وكولفين الى المعبد فى هدوء فلم يلحظهما الكاهنان وهما يتسلقان الى أعلى المعبد ويختفيان وراء أعمدته الصخرية التى اتخذت القرود من قممها مساكن لها · ولم ينظرا أيضا أو ينتبها الى الدورية اليابانية التى دخلت المعبد بعد ذلك بقليل ··

وظل الكاهنان يؤديان صلاتهما بهدوء ورزانة غيرمكترثين بما يحدث حولهما وينحنيان ويرتلان ولم يجيبا عن أسئلة الضابط اليابانى أو يعيراه أدنى التفاتة مما أثار حفيظته فاصطبغ وجهه بالغضب واحتقن من الغيظ فأسرع الى غدارته ووضعها فوق رأس أحد الكاهنين ، ومع ذلك لم يتوقف لهما ترتيل بل ظلا فى صلاتهما غير وجلين ·· وعندما ضغط الضابط الشجاع على زناد غدارته انفجرت رأس الكاهن وتبعثر مخه وتطايرت دماؤه فى وحشية وضراوة فوق درج المعبد ·· ولم يثر هذا

المشهد الدرامى الكاهن الاخر بل ظل يصلى فى صوت جهورى غير مكترث بما حدث لزميله ، فأسقط فى يد الضابط اليابانى وانصرف مع بقيـــة جنوده بعد أن فشلوا فى تفتيش المعبد تفتيشا دقيقا ..

وظل الهاربان مختفيين وراء الاعمدة الصخرية بعد أن غادر اليابانيون المعبد .. وهما يتحدثان بصوت خفيض ، وكان ديونج يشرح لزميـــله جمال الموت ورهبته فى بلاد سارخان ولكنه لم يكن يتمنى أن يموت فى هذا المكان وبهذه الطريقة الوحشية ..

كان ديونج مواطنا صالحا ، انحدر من أصلاب عائلة بسيطة ، ولكنه كان يطمع دائما فى أن يعيش فى مدينة كبيرة ليحقق لنفسه آمالا ،ويرى الاشياء على حقيقتها ..

وبعد أن قضى كولفين ثمانيه شهور فى ســارخان كان قد اندمج مع أهلها وأحبهم وكانوا من الشعوب الحساسة المتواضعة..لفحت الشمس وجوههم فأحالت بشرتهم الى لون بنى داكن .. وكانت حركاتهم رشيقة سريعة .. حتى ان المواطنين المنحدرين من بيئات متواضعة كانوا يعتزون بكرامتهم اعتزازا يفوق الوصف ، الشىء الذى هز كولفين هزا عنيفا . وكانوا فوق ذلك غاية فى الكرم والاخلاص .. كانوا يمدونه بالغـــذاء ويتسترون عليه ويخفونه عن أعين اليابانيين الساهرة النفاذة وكثيرا ما تعرضوا للاخطار والمشاكل من أجله وكانوا يطلبون اليه نظير هذا كله أن يحدثهم فى الشئون الفلسفية .. وعرف كولفين ان كلمة « فلسفة » فى سارخان تشمل مسائل الحياة والموت والقسوة والكرم والعادات الطيبة وتربية الاطفال ومسرات الحياة ونشوة الخمر واحتمال وجود حيـــاة بعد الموت !

وقبل أن تتحرر بلاد سارخان كان كولفين قد ألم الماما تاما بكل ما يتعلق بالسم المعروف باسم عرق الذهب أو Ipecac ، فقد وصلت اليه تعليمات بالراديو بأن يذهب وديونج الى مكان معين فى عرض البحر لمقابلة غواصة أمريكية .. ووصلت الغواصة فى الميعاد المضروب وكان الاثنان فى انتظارها وأخبرهما قائد الغواصة ان بحرية الولايات المتحدة ستنزل الى شواطىء سارخان خلال خمسة أيام وأعطاهما صناديق بهـا ٢٥ رطلا من مسحوق عرق الذهب وأمرهما أن يدسا المسحوق فى طعام معسكر اليابانيين فى صبيحة يوم الغزو .

وشرح جون لديونج كل ما يعرفه عن خواص عرق الذهب الذى يعد أقوى مقيىء عرف فى تاريخ الطب حتى انه اذا نزع من جسم الانسان فان خاصية التقيىء تلازمه واذا تناول الفرد كمية كبيرة منه تحدث له تشنجات وتقلصات غريبة تنتهى بموته ..

وبمعاونة طباخى سارخان الذين يعملون فى المعسكر الحربى الياباني نجح الاثنان فى مهمتهما خير نجاح . وفى الغد ، أى فى ميعاد الغزو انتظر الاثنان فى الدغل القريب من معسكر اليابانيين ، وفى تمام الســـاعة السابعة والنصف صباحا هرع اليابانيون لتناول طعام الفطور ، وفى تمام

الساعة الثامنة رست البحرية الامريكية على شواطىء سارخان ، وبعد عشر دقائق خرج اليابانيون يترنحون كالسكارى من المعسكر ..

وظل المنظر يثير الضحك لعدة دقائق..طريق مملوء مزدحم بالجنود الذين توقفوا ليتقيأوا بعد جرى طويل..وهيجت حركة الجرى المسحوق السحرى وبدأ الجنود يترنحون ويسقطون وكانت أجسامهم تتلوى من قسوة القيىء وعنفه حتى لم يبق فى أمعائهم شىء ..

وبعد ساعة واحدة اقتربت أول دورية من البحرية الامريكية نحو الطريق المسدود بجثث الجنود اليابانيين وقد تكدسوا على الحشائش الخضر على جانبى الطريق منهوكين مجهدين حتى أنهم لم يستطيعوا رفع رؤوسهم على الرغم من أن المدافع فى أيديهم !..

***

وكان هذا آخر عمل اشترك فيه ديونج وكولفين.وبعد ثلاثةأسابيع عاد كولفين الى الولايات المتحدة ، وبعد عام استقال من عمله ليديرشئون عائلته فى « ويسكونسين » حيث كان يشترى اللبن ويجففه ويبيعه ، ونجحت تجارته وأثرى ثراء فاحشا ..

وفى عام ١٩٥٢ أعلنت الصحف أن اضطرابات داخلية تجتاح بلاد سارخان وأن البلاد برمتها تنحاز نحو الشيوعية .. ولم يصدق كولفين هذه الاخبار لاول وهلة . فكتب الى السناتور ـ عضو مجلس الشيوخ ـ التابع له يشرح له بالتفصيل الحالة على حقيقتها فى سارخان واقترح عدة طرق نصح باتباعها فى معالجة أهل سارخان .. فجاءه رد مهذب يقول له فيه عضو مجلس الشيوخ ان اقتراحاته قدمت الى وزارة الخارجية . ولكن سياسة الولايات المتحدة الامريكية لم تتغير..وعندما تأزمت مشكلة الحدود مع الدولة الشيوعية الملاصقة لبلاد سارخان بدأ صدر كولفين يضيق ولم يطق صبرا على تهاون الساسة الامريكيين وعلاجهم السىء للامور فى هذه البلاد ، لذلك كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه وحده هو المسئول عن الحالة هناك .. فتقدم الى وزارة الخارجية بعرض عبقرى جرىء خلاصته ان تلال سارخان المنحدرة ينمو عليها عشب سميك قصير قوى غنى بفيتامينات نادرة ، يصعب اقتلاعها لمتانتها وصلابتها .. فلو وافقت الوزارة وسمحت له بارسال شحنة من أبقار تكساس لترعى الكلأ على هذه الحشائش النادرة لاستطاع أن يدخل صناعة الالبان فى هذه البلاد ومن ثم يستطيع أن يبيع منتجاتها فى أسواق آسيا الممتازة . فمن الزبد يمكن انتاج نوع معين من الدهن يباع فى الهند أما جلود الماشية فيمكن دبغها وصناعة منتجات جلدية منها على أيدى أصحاب الحرف فى سارخان ، وكذلك أمعاء هذه الحيوانات يمكن استخدامها فى الادوية الشعبية (البلدية) التى يفضلها أهل البلاد .

ولكن يجب أولا أن يعرف السرخانيون شيئا عن اللبن ، ولم يضع كولفين وقتا فسرعان ما قام بنشر الدعاية الخاصة بذلك بنفسه ، حيث

سافر الى سارخان ليبيع اللبن من الكميات المجففة التى شحنها ، على أن يجلب أبقار تكساس بعد عام واحد حيث يتحول المسحوق المجفف الى لبن طازج ، وعندما تنجح تجارته نجاحا عظيما سوف يبيع نصيبه ويغادر البـــلاد ..

وكان كولفين يعلم أن الامر فيه مخاطرة ومقـامرة . فما أن وطئت قدماه أرض سارخان حتى بدأ يبحث عن صديقه ديونج ولكن الاخير كان قد اختفى فى ظروف غامضة ، فلما فشل فى العثور عليه افتتح أول مركز لتوزيع الالبان فى البلاد خارج مدينة « هايدهو » ولم يمض على افتتـاح مشروعه أسبوعان حتى لاقى نجاحا منقطع النظير رغم أنف الســفارة الامريكية التى قالت ان المشروع غير عملى ولكن الحقيقة ان لويس سيرس، السفير الامريكى غسل يديه بعد مناقشة المشروع فى جلسات متتـابعة ولم يرغب أن يلام عما قد يترتب على هذا المشروع الامريكى من حوادث أو مضايقات فى المستقبل .

وفجأة ظهر ديونج وكأن الارض قد انشقت عنه وأظهرته وهو يرفع غدارته فى وجه كولفين الذى وجد نفسه ممددا على فراش وثير فى حجرة مشمسه هادئة .. وتذكر كولفين كيف شعر ببرودة فوهة المسدس وهى تلمس جلده ، وكل ما دار حوله من أحداث غريبة لم يكن يتوقعها فى يوم من الايام ، ومن ديونج بالذات ، صديقه الحميم الذى أخفق فى البحث عنـــه ..

وهبت نسمات خفيفة باردة خـــلال المخزن المفتوح وقد اصطف فى الخارج طابور من النسوة ينتظرن بصبر استلام نصيبهن من اللبن الطازج وقد علت أصواتهن وثرثرتهن ونفذت الى آذان كولفين من وراء الباب الذى يفصله عنهن ، وكان بجانب كولفين خلاط اللبن الكبير على استعداد لخلط مائة رطل من اللبن المجفف بالماء .. ولكن وسط هذه الاصوات والمناظر العادية كانت لفة من عرق الذهب ملقاة على الارض وراء الخلاط الكبير ، و « ديونج » زميله القديم واقف وراءه مصوب مسدسه الى ظهره وهو يقول : هيا يا جون .. أدر الخلاط وضع فيه اللبن وعرق الذهب .

فأجابه كولفين ــ أى ديونج .. انك لمجنون .. ابعد هذا المسدس عنى . .

فقال ديونج فى هدوء ــ عندما يشعر الرجل بدنو أجله فانه يعتقد أن جلاده معتوه .. ولكنه مخطىء يا جون فلا بد أن يموت الانسان .. وربما كان هذا أوان موتك أيها الصديق ..

فأجاب كولفين ــ لقد تركت السياسة يا ديونج .. وكل ما فى الامر اننى أحاول ان أنظم تجارة توزيع الالبان فى بلدك . فأهلك فى حاجة اليها.

فقال ديونج ــ استمع الى يا جون .. ان مسحوق اللبن والماشـية هما جزءان من السياسة ، ومن ثم فهما جزءان من التاريخ .. فأسرع وضع اللبن وعرق الذهب فى الخلاط فليس لدى متسع من الوقت ..

فأجابه كولفين ـ لا .. لن أضع مسحوق عرق الذهب فى اللبن بأية حال .. فأنت تعرف ما يفعله هذا المسحوق .

فرد ديونج ـ بالطبع أعرف .. فقد علمتنى أنت ..

فقال كولفين ـ ديونج .. ربما يموت هؤلاء الناس من عرق الذهب ومفعوله .. فهم قومك وناسك وأنت ..

فأجاب ديونج ـ هيا يا جون ولا تتوان .. وأدر الخلاط .. لوكنت أعرف كيف أديره لفعلت .. فاذا لم تفعل ما آمرك به قبل أن يفتح الباب بثلاثة دقائق فسوف أقتلك وأقول انك كنت تحاول خلط عرق الذهب باللبن ..

ـ ولكن ما الذى تجنيه من وراء ذلك ؟.. فمن الذى تتعاون معه الآن ؟

ـ أنظر يا جون .. لقد ذكرت لك أن اللبن جزء من التاريخ .. فاذا نجحت تجارتك ومشروع أبقارك فسوف يتغير فى الوقت المناسب الميزان الاقتصادى لسرخان .

ـ وما الخطأ فى ذلك .. وهو الذى أريد أن أفعله ..

ـ لا شىء .. انها فكرة ممتازة .. فقد تناقشنا فى هذا الموضوع كثيرا فى الدغل القريب ولكنك شخص غير مرغوب فيه لأداء هذه المهمة ، فلو نجحت فكرتك فسوف يعتقد أهل سرخان أن لامريكا الفضل الاكبر فى هذا التغير الاقتصادى .

وفهم كولفين الامر على حقيقته وقال : ديونج انك شيوعى !

فأجاب ديونج بنعومة ومكر ـ كأن لى فى ذلك حيلة ! انظر ياجون ، اتذكر يوم أن أنزلتنى من على ظهر جاموستى وأريتنى العالم على حقيقته .. لقد تعلمت أن الذى ينحاز الى جانب القوى هو الذى يفوز دائما.. لقد كنت بجانبك فيما مضى .. أما الان فقد ضيعت امريكا الفرصة التى كانت أمامها وجاء دورالشيوعيين الذين سيربحون المعركة ويفوزون.

فأجاب كولفين على الفور ـ انظر يا ديونج .. لقد وضعت ثقتك فى مرة .. وأنا أقول لك ان جانبنا هو الذى سيفوز فى المعركة .. فلا تزال لدينا القوة والرغبة ..

فرد عليه ديونج ـ لا .. ليست لديكم القوة أو الرغبة أو أى شىء آخر ـ وكان صوته قويا صارما ـ انكم لم تفعلوا شيئا يستحق الذكر ، بل خسرتم كل شىء منذ نهاية الحرب .. ولسبب بسيط أنت لا تعرف قوة الفكرة فالموظفون أو الكتبة الذين ترسلونهم الينا يحاولون شراءنا

كالبهائم والاغنام .. فأنتم معشر الامريكيين تمثلون أسطورة الرجل الفنى الذى كان مثلا للغباء والبلاهة !

وعلم كولفن أن ليس أمامه فرصة لاغراء صديقه القديم أو اقناعه ، الذى تحول الى شيوعى متطرف ، وأخذ يفكر بسرعة فى طريقة يخلص بها نفسه من هذا المأزق الحرج .

فقال كولفن بمرارة ـ اذن أعطنى مسحوق عرق الذهب ..

فأجابه ديونج ـ التقطه أنت بنفسك وضعه فى الخلاط ..

ولاول مرة شعر كولفن بفوهة المسدس وهى تنزاح كلية عن ظهره ، فبسرعة خاطفة وحركة بارعة استدار على عقبيه ورفع يديه فى الهواء محاولا القبض على رقبة ديونج ولو تمكن من ذلك لشل حركة يده القابضة على المسدس ، ولكن على الرغم من أنه لطم ديونج لطمة قاسية قوية ، الا أنه حاد عن موقع الهدف ، وكاد يقع على الارض مما أدى الى أن يصوب ديونج المسدس الذى ما زال فى يده الى صدر كولفين . وبدا الالم على وجه ديونج وكأنما يحاول فى يأس مقاومة الاغماء والتداعى . أما كولفين فقد ألقى بنفسه وراء كومة من براميل مسحوق اللبن ، وفى اللحظة نفسها التى أطلق فيها ديونج رصاصة من مسدسه سقط على الارض مفشيا عليه ، وكان كولفين يعلم أن الرصاصة أصابته فى ذراعه ، ولابد أنها كسرت عظمة من عظامه ، وكان ديونج على وشك أن يتخلى عن مسدسه من قسوة اللطمة ، وما أن رآه كولفن يسقط حتى هب واقفا على قدميه بعد أن أزاح براميل اللبن المجفف . وكان ديونج رغم سقوطه ينظر الى يده وقد اهتزت عضلات رجهه تحت وطأة الضربة القاسية ، وانفتحت يده وقد تعلقت بها الغدارة لحظة ثم انزلقت الى الارض ..

قفز كولفن صوب ديونج وقد تدلت ذراعه اليمنى بجانبه ، فما أن رآه الاخير حتى نسى قسوة اللطمة وحاول جاهدا أن يهب من رقدته ليصارع كولفن الذى حاول أن يسد عليه الطريق ويبعده عن المسدس من غير أن يستخدم يديه ، فلف ساقيه حول ديونج فى حركة « مقص » وضغط عليه بكل قوته . وسيطر السكون على المكان عدة لحظات وسمع كولفن أنفاس ديونج المترددة الذى أدرك أن كولفن قد أصيب اصابة بالغة فى ذراعه فضربه عليها ضربات موجعة وكولفن يصرخ من شدة الالم حتى ارتخت ساقاه ويونج يلهث اعياء فلوى كولفن ساقيه مرة أخرى بطريقة بارعة ليبعد ديونج عن ذراعه المكسور ..

ورأى كولفن النسوة وهن يتحركن نحو باب المخزن وينظرن خلال شقوقه يتتبعن بشغف ما يجرى فى الداخل ، وكانت امرأة عجوز شمطاء

جاوزت السبعين تتقدم صف النسوة وكانت تنظر كالاخريات فى عجب الى الصراع المميت بين الرجلين ..

فصرخ ديونج يقول .. لقد أطلقت عليه الرصاص ، لانه كان على وشك خلط اللبن « بالكوكول » .. ساعدونى على التخلص منه وتسليمه الى الشرطة .

وفى لحظة الارتباك لم يفهم كولفن ما قاله ديونج للنسوة ثم ارتدت اليه الذاكرة سريعا . « فالكوكول » مخدر خطير يستخرجونه من فول الكوكا وهو منبه قوى كالافيون .. وكانت قصص أخرى تروى عن العذارى من بنات سرخان اللاتى تحولن الى عاهرات بعد استعمال هذا المخدر الفريب .. وكان السرخانيون يعتقدون فى سرعة مفعوله القوى لذلك كانوا يخافونه خوفا رهيبا ..

وصرخ كولفن وقد أصابه دوار : انه يكذب ..

ثم شعر بالدوامة التى هبط الى قرارها فأخذ يقول : هذا الرجل كاد يجبرنى على خلط اللبن بمسحوق عرق الذهب .

ولعدة لحظات ظل الرجلان مكانهما يتفرسان وجه المرأة الشمطاء .. وصرخ ديونج مرة أخرى متهما كولفين وحاول الاخير أن ينفى عن نفسه التهمة ، ولكنه شعر أخيرا أن صوته قد خف وضاع فى غمار الضجة فلم تسمعه النسوة ورآهن وقد صعقن بمجرد ذكر كلمة «الكوكول» .

وكان أمام ولفن خمس دقائق فقط قبل أن يفقد وعيه . وكانت هذه الدقائق الخمس بمثابة كابوس رهيب ثقيل اندفعت أثناءها نساء « هايدهو » الرقيقات اللائى عرفنه مدة طويلة وانقضضن عليه كالصقور الجارحة . وأخذت الايدى البضة الرخصة تنهال عليه ضربا ولكما فى كل موضع فى جسمه وعلى وجهه وفوق صدره .. وكان كولفن يصرخ ويقول : اننى صديق .. ولكن صوته كان ضعيفا فاترا ، فلم يسمعه غيره .

وزادت ضربات النسوة ، ووقفت احداهن فوق ذراعه المكسور فتألم المسكين ألما شديدا .. وأخذ يفقد وعيه تدريجيا وغابت عنه أصوات النساء وضجيجهن ولم يشعر بشد أذنيه وضرب رأسه فى الارض الصخرية ..

وأعملت النسوة أظافرهن فى جسمه .. وشعر بدبيب الموت ، ولحمه يتمزق ، ووسط هذه الدوامة من الالم المبرح شعر بتنكر أهل سارخان لصداقته وأخيرا جاءت اليه النجدة بعد أن أغمى عليه وفقد وعيه وشعر بلسانه يلتصق بحلقه ، وسال الدم من أنفه وأذنيه ، وأفلت ديونج من قبضة ساقيه ..

وبعد ســـاعتين ألقوا به على درج السفارة الامريكية فى « هايدهو » وكان عارى الجسد تماما ، وقد أثخن جسده بمئات من الجروح التى تقيح الدم حولها .. وكان يتنفس بصعوبة بعد أن غرســوا فى صــدره دبوسا كبيرا تدلت منه ورقة كتب عليها باللغة الانجليزية :

« هذا أمريكى وقح ..فخذوه الآن ..وسيكون هذا مصير الامريكيين الاخرين الذين يحاولون اغتصاب بناتنا ! ! »

***

كان الامير « نجونج » فى مكتب السفير سيرس ، وقد سبق أن جاء فى مثل هذه المناسبات من قبل عندما ابتدره السفير بقوله : ان كاريكاتيرا آخر مثل هذا قد يضطرنى الى اخطار وشنطن بأن قومك غير مخلصين للمندوبين الامريكيين .. وقد يسىء تكرار هذه الحادثة الى العلاقة بين البلدين ..

وكان الامير « نجونج » أحد شعراء سرخان ونقــادهم البارزين .. وهو ككل سرخانى كان يخدم وطنه بوحى من ضميره الخالص . أما الآن فكان موقفه كضابط بروتوكول، فأجاب السفير بقوله : أيها السيد السفير، اننى لن أحاول أن أخدعك .. أظن أن «النجمة الشرقية» تنتقد سياستنا الخارجية . وعلى الاخص أنها تعارض اقامة قواعد حربية فى هذا البلد نظير المساعدات الخارجية ، وبصــفتك مندوب دولة ديمقراطية ، فمن السهل عليك أن تدرك عدم تدخلنا مع الصحافة الحرة ..

وتحدث الاثنان لبضع دقائق أخرى ذكر أثناءها الامير نجونج للسفير سيرس أنه وقف على سر ثورته وأعجب بسرعة بديهتــه . وعند ما غادر المكان قدر الموقف خير تقدير وقال فى نفسه : « ان السفير قد أسىء اليــه اساءة بالغة ..

وفى مساء اليوم ذاته انعقــدت اللجنة الاستشارية لرئاســة الوزارة السرخانية فى جلسة طارئة وتحدث الامير نجونج قائلا :

« ســـــادتى ...

أظن أننا لم نخدع أنفسنا من قبل حول علاقتنا مع الولايات المتحــدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .. فلسنا نريد أن ننحاز الى معسكر احدى الدولتين .. وكل ما نرجوه ونعمل من أجله هو استقلال سرخان وتقدمها فى المجال الدولى ..وهذا معناه اننا سنقبل المعونة من أى انسان يريد أن يساعدنا ولكن من غير ثمن أو مساس باستقلالنا .. »

فأضاف رئيس الوزراء : « لذلك يتهمنا الشيوعيون بأننــا نسير فى ركاب الاستعماريين والامريكيون يقولون أننا محايدون .. »

فاستمر الأمير نجونج يقول : « اننا نرغب فى معاونتهم ، ولكن هذا يبدو مستحيلا ، من أجل ذلك سنفعل ما تفعله كل أمة صغيرة تحيط بها الامم الكبيرة اننا سنساوم .. وأعتقد اننا اتفقنا على ان هناك نوعين من الرجال يمكن أن نساوم معهما ونفوز .. أحدهما رجل حكيم يرى المشكلة بوضوح من غير غرور أو كبرياء .. والآخر رجل غبى .. فالامريكيون ، لأسباب غير واضحة لى ، قد اختاروا أن يرسلوا الينا أشخاصا أغبياء كالسفراء الذين يفدون الى سرخان .. »

فقال رئيس الوزراء : «اذكر لهم مناقشتك مع السفير سيرس هذا الصباح » .. فقال الامير نجونج من غير أن يبتسم :

« ان لاكى لويس ليس فى حالة سعادة أو اطمئنان ولا يجب أن نقلل من قدر هذا الرجل ، فهو أغبى السفراء طرا ، ولكنه جدير بأن يحمى نفسه اذا أراد ، لقد أسأنا اليه بالكاريكاتير الذى نشرته « النجمة الشرقية » اساءة بالغة .. وأعتقد أن قرض العشرين مليونا من الدولارات الامريكية الذى نود أن نتفاوض من أجله مع الولايات المتحدة الامريكية قد يفشل اذا لم نخطب ود السفير » .

ولم يعلق أحد من الوزراء فى الحجرة على هذا الرأى .. بل صدرت من رئيس الوزارة حركة فسرعان ما قدمت للحاضرين أكواب الشاى الساخن .. وخيم السكون على القاعة .

وأخيرا قال رئيس الوزراء :

« أيها السادة .. لعلكم وصلتم الى ما يجب علينا أن نفعله ، ولكن قد يكون من سوء الأدب أو قلته أن يطلب رئيس الوزراء العمل مباشرة على تسوية الأزمة الطارئة ..

فرد ناتج ــ أحد الحاضرين ومن أقارب أصحاب جريدة «النجمة الشرقية» : « أظن اننا نستطيع ان نطلب الى اصحاب جريدة « النجمة الشرقية » أن تنشر كاريكاتيرا آخر ومقالا عن السفير سيرس .

فرد رئيس الوزراء على الفور : « أظن هذا هو الحل المرضى الممتاز » .

***

وفى أمسية هذا اليوم عاد السفير سيرس جون كولفن فى المستشفى ، بعد أن تحسنت حالة السفير النفسية أثر اتصال جريدة «النجمة الشرقية» به ، وقراءتها عليه ما انتوت أن تكتبه عنه من مقال طلى يظهر فى عدد الصباح .

وشكر السفير سيرس رئيس التحرير وأسرع وأمر سكرتيرته بأن توصل الى الصحفى النابه صندوقا من الويسكى الفاخر ..

ودخل السفير حجرة كولفن ، وكانت عينا الاخير مفتوحتين ووجهه منطخا بمئات الجروح الصغيرة ..

وتقدم السفير وانحنى عليه بطريقة ديبلوماسية وقال له :

ـ حسنا يا بنى ·· لقد حشرت نفسك حشرا فى معركة رهيبة وكأنك خرجت توا من تحت منشار كهربائى ·

وأغلق كولفن عينيه وقال : هل تعرف ماذا حدث لى بالأمس ؟ ··

فرد عليه السفير : نعم أعرف ، فقد أطلعتنى الملحقة الصحفية على أنك اشتبكت مع فتاة من بنـــات سارخان ·· والآن تذكر يا بنى أننى أريدك حرا طليقا ·· فمثل هذه الحوادث قد تضع أمـــريكا فى الضوء الباهت ، لذلك سأعمل على اعادتك الى الولايات المتحدة الامريكية عند ما تستطيع أن تتحرك ··

ولم يفتح كولفن عينيه هذه المرة ·· وظل السفير واقفا عدة دقائق ثم استدار آخر الامر ليغادر المكان فما كاد ينتصف الغرفة حتى تكلم كولفن بطريقة جعلت السفير يتسمر فى مكانه : سيرس ·· اننى لن أغادر هـذه البـــــلاد ··

الفصل الثانى

لو .. السعيد .. رقم ٢

ولد لويس كرويتزين فى ايفانوفو بروسيا عام ١٩١٧ ابنا لفلاح .. وفى يوم من الايام عند ما كان لا يزال صبيا رأى أبويه وهما يقتلان رميا بالرصاص .. وحدث ذلك عرضا عندما كان لويس واقفا فى نافذة كوخه ينصت الى حوار والديه مع ضابط على رأس ثلة من الجنود .. فرأى أباه يهز رأسه ويغادر المكان فأسرع الضابط وأمسك بمسدسه القبيح القصير بعد أن أخرجه من جرابه الجلدى وأطلق الرصاص على والد لويس من الخلف فأصابه فى مؤخر رأسه ثم استدار وقتل أمه ..

حدث ذلك بسرعة مذهلة حتى أن لويس لم يدر ماذا يفعل .. أيغضب أو يثور ويفقد توازنه ؟ .. ولكنه شعر بالخوف والرهبة .. وتأكد فى هذه اللحظة أن مسدسا قصيرا قبيح المنظر أو ما يشبهه قد يعيد اليه الطمأنينة وراحة البال ولا سيما بعد مقتل والديه أمام ناظريه .

وأرسل الصغير الى ملجأ تربوى فى « مورمانسك » حيث نما جسمه القوى واستطال على التغذية الخشنة .. وأحس لويس بأن له عقلا سليما ناضجا . وما أن بلغ السادسة عشرة من عمره حتى تبنته الدولة نفسها .. وعلم فيما بعد أن والديه قتلا لأنهما أجرما فى حق النظام الزراعى العقيم الذى فرضته الدولة . وكانت عائلته من المزارعين الاغنياء الذين جمعوا مالهم من ابتزاز الفقراء وكانوا يرفضون التعاون مع الحكومة فى روسيا لذلك أطلق عليهم كلمة Kvlek وكان لويس قد بدأ يكره هذه الفئة من الناس .

وفى عام ١٩٣٤ فاز مقاله بعنوان « ديناميكية اللهجات السوفيتية » بجائزة لينين فى الآداب . وعرف كل انسان وقتذاك أن نجم لويس سوف يسطع فى سماء الادب وبدأ بعض زملائه يلقبونه بالسعيد وان لم يواجهوه برأيهم جهرا .

وفى عام ١٩٣٥ بدأت حياته الدبلوماسية فأرسل فى بعثة التجارة السوفيتية الى نيويورك ليعمل بها كسائق .. والمعروف أن كل الخدم العاملين فى السلك الدبلوماسى كالسائقين والتابعين والخادمات والطباخين ، كان دائما يقع الاختيار عليهم من فرق الخدمة الاجنبية ، فهم يعملون كخدم نصف مدة خدمتهم ، ونصف المدة الآخر فى دراسات خاصة . وبهذه الطريقة كان الروس يتحاشون وجود الدخلاء الاجانب أو الاغراب فى

سفاراتهم أو بعثاتهم · وفى الوقت نفسه يستطيعون تدريب ضبـــاطهم الصغار المعينين فى الخدمات الاجنبية خير تدريب ··

وفى أثناء وجوده فى نيويورك درس السائق كروبتزين نظام النقابات الامريكية · وفى المساء تتلمذ على يد الاستاذ الكسندر ويلورد فى دراسة « سيكولوجية الطبقة الامريكية الارستقراطية » فى جامعة كولومبيا ·

وفى عام ١٩٣٧ ذهب الى براغ كسائق أيضا · وفى عام ١٩٣٨ أرسله المكتب الأجنبى الى بكين ككاتب فى بعثة ثقافية ··
وفى عام ١٩٣٩ استدعى الى موسكو وظل عامين فى المعهد الاكاديمى الاجنبى · وفى الليل كان يعمل كضابط لحل الشفرة ·
وليست هناك سجلات يعرف منها ما الذى فعله كروبتزين فى الفترة مابين ١٩٤١ و ١٩٤٥ وان كان من المقرر أنه لم يكن فى الخدمة العسكرية·

وفى عام ١٩٤٥ عند بلوغه الثامنة والعشرين عين كمراقب على هيئـة ماوتسى تونج ·· فأرسله ماو مع فرقة من الجيش الى « يانان » لـــيراقب كيف تستخدم المعدات الحربية كأسلحة سياسية واقتصادية » ·

وقد مكث كروبتزين فى الصين مدة ثلاث سنوات ، اذا استثنينا منها أجازاته الى وطنه فى تلك الفترة وتقدر بستة أشهر ، وفى أجازاته الاخيرة ، التى قضاها فى وطنه تزوج « نادا كولوسوف » احـدى زميلاته فى الخدمة الخـــــارجية ··

وفى عام ١٩٤٩ عاد الى موسكو حيث أشرف عـــــلى القسم الآسيوى لوزارة الخارجية فى الاتحاد السوفيتى ··
وأبحر هو وزوجته على الباخرة « جوركى » التى استخدمتها الحـكومة السرخانية لرسم خريطة المياه الجنوبية الشرقية الآسيوية الملاصقة لسرخان·

وعاد الزوجان بعد ذلك الى موسكو حيث دخلا مدرسة خاصة لدراسة المناطق الجنوبية الشرقية الآسيوية ·· وفى قائمـــة الانتظار أدرج اسم لويس كروبتزين كسفـــير معين لسرخان ·· وكانت هذه الوظيفة تعد من وظائف الدرجة الاولى للسفراء لا لأن سرخان بلد غنى بتعداده الذى يربو على عشرين مليونا ، ولكن لموقعه الاستراتيجى · وبجانب « سرخان » وضع الروس الرقم (٣٠) اشارة الى رغبتهم فى ضمها الى الفلك الشيوعى خلال ثلاثين شـــــهرا ··

وفى مدرسة موسكو للمناطق الآسيوية ظل السفير المعين وزوجتـــــه عامين كاملين فى دراسات صعبة لتأهيلهما للوظيفـــة الجديدة الخطيرة ·· فتعلما قراءة وكتابة اللغة السرخانية ، وتعلما أيضا أن الرجل المثـالى فى سرخان هو ذلك السيد المهذب الوسيم الذى يتحدث فى نعومة ، الرجـــل الذى يعرف كيف يكبح جماح غضبه ، الرجل الذى يحب دينه ـ البوذية ـ ويخلص له ·· وأخيرا يتذوق ويعشق الموسيقى الكلاسيكية ··

وصهر الدبلوماسى أو السفيرالمنتظر نفسه فى هذا القالب ، فبدأ يتبع نظاما خاصا فى الغذاء حتى أنقص وزنه أربعين رطلا ، كما تلقى دروسا فى رقص الباليه ودرس الادب السرخانى والدراما وأصبح موسيقيا ممتازا « يضرب على الناى » كما دأب على سماع محاضرات فى الديانة البوذية كما تدرب على أدائها ..

ووصل السفير لويس كروبتزين الى سرخان بعد أسبوع واحد من وصول السفير الامريكى الجديد لويس سيرس وتقديمه أوراق اعتماده ..

وكان فى المطار بعض المسئولين القلائل لمقابلة السفير كروبتزين .. وبعد أن حياهم السفير بلغتهم دلف الى سيارته وقادها الى السفارة الروسية . وفى اليوم التالى قدم أوراق اعتماده الى رئيس الوزراء . وبعد الظهر سافر السفير الى بعض الضواحى القريبة من المدينة لزيارة قبر الرئيس آبوت قائد البوذيين فى المنطقة . وسبب وصول كروبتزين بعض الارتباك ، فقد كان من الغريب أن يزور المقبرة رجل أبيض حتى أن بعض الرهبان فى القاعة الخارجية كانوا ينظرون اليه فى استغراب ، وكان بعضهم الآخر يبتسم ويهز رأسه عجبا .. وأسرع أحدهم الى رئيسه وأطلعه على جلية الامر ليتصرف بحكمته المعهودة . وبعد لحظات كان شاب فى رداء أبيض فضفاض يسرع نحو المقبرة واتجه نحو السفير الروسى وسأله بالانجليزية : هل أستطيع ان اساعدك يا سيدى ؟ ..

فأجابه بالانجليزية : لقد أتيت لأقدم احتراماتى لصاحب القداسة السيد الكبير ..

ثم قدم له بطاقته التى طبع عليها اسمه بالروسية على جانب وبالسرخانية على الجانب الآخر ..

واستأذن الكاهن الصغير وغادر الغرفة . ثم عاد بعد عشر دقائق وقال:

ـ سيراك سيدى الآن .. ولكنه لا يتكلم لغات أجنبية .. لذلك سأرافقك كمترجم ..

وبعد أن اجتاز الاثنان ممرات مظلمة ، دخلا غرفة كبيرة ليس لها غير مقعد ذهبى وضع فى ركن الغرفة حيث جلس عليه كاهن عجوز . وعند ما أصبحا أمام الكاهن انحنى لويس كروبتزين انحناءة طويلة وقال فى لهجة سرخانية أصيلة :

ـ انها لمنحة عظيمة من قداستك أن تخصنى بهذا الشرف ..
ـ انك لم تطلع مساعدى على أنك تتكلم لغتنا ..

فأجاب كروبتزين وهو لا يزال منحنيا انحناءة طويلة : انها العادة يا صاحب القداسة أن يحتفظ الانسان بأجمل كلماته للسيد العظيم ..

وجلس كروبتزين على الارض وبدأ زعيم البوذيين فى سرخان ولويس كروبتزين السفير الروسى يتحدثان .. كان الحديث فى أول الامر مجرد

ثرثرة ثم تحول الى حديث فلسفى · وظل الاثنان يتحدثان الى وقت متأخر حتى أقبل المساء ··

***

صادفت بلاد سرخان بعض سوء الطالع هذا العام ·· فقد طغى الطوفان على البلاد قبل موسم الحصاد بقليل فأغرق الزرع ، وبعد ذلك بشهور اجتاحت المجاعات المناطق الجنوبية ، وبدأ الرعاع يسطون على ممتلكات الاغنياء ··

وعلمت السفارة الروسية من أحد المخبرين الذى يعمل كمترجم فى السفارة الامريكية بأن الولايات المتحدة الامريكية قد شحنت ١٤٫٠٠٠ طن من الارز الى المناطق الجائعة · وعلمت السفارة الروسية بعد ذلك بقليل من عين آخر لها يعمل سائقا للسفير الامريكى بأن أول باخرة أمريكية تقل شحنات الارز ستصل بعد يومين ··

وتصرف كروبتزين على الفور بدهاء وشجاعة نادرة ·· فاشترى فى الحال عدة أطنان من الارز من السوق السوداء وشحن الارز فى سيارة وساقها ثلاثمائة ميل جنوبا الى المنطقة التى اجتاحتها المجاعة بقسوة وضراوة ··

وعند ما وصل « بلوتال » عاصمة الجنوب الرئيسية تجمع عدد كبير من الناس ·· وأخرجت الجريدة الشيوعية ملحقا خاصا أعلنت فيه بالخطوط العريضة أن روسيا الصديقة لبلاد سرخان ستقضى على أسباب المجاعة وأن السفير الروسى سيصل اليوم بنفسه ومعه أول دفعة من الارز ·

ثم جاء كروبتزين بنفسه ·· وتحدث الى الناس عن طريق مكبرات الصوت وجميع محطات الاذاعة فى المنطقة وأعلن أن روسيا تبذل كل جهودها لمساعدة أصدقائها ·· أن خمسة أطنان الارز التى اشتراها السفير الروسى من السوق السوداء هى كل ما استطاع أن يجدها فى الاسواق المحلية لبلاد « سارخان » ولكنه خاطب الناس بلغتهم بقوله : اصبروا قليلا فان بعض السفن الروسية ستصل خلال أيام قليلة محملة بآلاف الاطنان من الأرز الذى سيوزع بالمجان ·· ثم ذكر أن سارخان وروسيا صديقتان متحابتان ·· وستقفان دائما جنبا الى جنب ·· فمن الواضح أن البلاد الاستعمارية الرأسمالية لن تساعد فى مثل هذه الظروف أى دولة أخرى ما لم تستفد من هذه المعونة ··

***

ووصلت أولى السفن الامريكية بعد ذلك بيومين الى ميناء « هايدهو » عاصمة سارخان · وكان رجال المخابرات الامريكية هناك مع رجال الصحافة والمصورين وأشرطة التسجيل · وحضر رئيس الوزراء أيضا لتقبل المعونة من سيادة لويس سيرس السفير الامريكى فى « سارخان » ·

وأطلقت الابواق وألقيت الخطب الرنانة ·· وعنـــدما انتهى الاحتفـــال الرسمى بدأ الحمالون فى تفريغ شحنات الارز الى العربات الامريكية التى كانت تنتظر لنقل الأرز الى المناطق الجائعة ··

وكان على الحمالين أن يقفوا عنـد نقطة معينة لوزن أكياس الارز ، لأن العادة فى سارخان أن يدفع للحمال أجره نظير الوزن الذى يحمله لا بالساعة التى يعمل خلالها ·· وعند ما كان يرفع كل كيس من الميزان كان عامـل خاص يطبع على كل كيس بضع كلمات باللغة السارخانية ··

وعند ما وصلت السيارات الى « بلوتال » قابلها عدد كبير من الناس يزيد على عشرة آلاف نسمة ، وأعلن فى احـدى مكبرات الصوت بأن الارز الذى وعد به السفير الروسى قد وصل ، وهذا دليل على أن روسيا قـد برت بوعدها ··

واحتج الناس على هذا التصريح وهتفوا قائلين : « ولـكن السيارات أمريكية ويقودها ســـائقون أمريكيون » ··

وأسرع الشيوعيون السارخانيون يقولون : لقد أجرنا هذه السيارات من الامريكيين ·· ألم يحذركم الســـفير الروسى من أن الرأسماليين لن يفعلوا شيئا الا بأجر معلوم ؟ ··

وكانت الجموع لا تزال فى حيرة لانهم سمعوا بأن السفن التى حملت الارز يرفرف عليها العلم الامريكى وأن الارز جاء اليهم بسيارات أمريكية· وعند ما أفرغت الشحنة صدق الجميع ما أذاعه المذيعون وأنهم كانوا عـلى حق فيما أذاعوه ·· وأن السفير الروسى قـد بر بوعده ·· فقد ختم كل كيس من أكياس الارز بجملة مكتوبة باللغة السارخانية : «هذا الارز هدية من روسيا » · والتقط الامريكيون صورا لتوزيع الارز وللوجوه التى عادت اليها ابتسامتها وللسعادة التى غمرت الناس · ولم يعلق الامريكيون على شىء مما حدث ·· فلم يفهم أحد منهم اللغة السارخانية ولم يدروا بما دار حولهم ووقع تحت بصرهم من مغالطات ضخمة ·

وبعد مرور أسبوع ، علم السفير الامريكى بما حدث ·· فألقى السفير خطبة رنانة يدحض فيهـــا هذه المزاعم ، وغضبت واشـــنطن للمغالطات الروسية الجريئة ، ووصلت سفن أمريكيـــة أخرى ، ووزع الارز تحت حراسة مشددة ، ولـــكن أهل سارخان ظلوا يعتقدون أن روسيـا كانت صديقتهم وغوثهم فى مجاعتهم ··

***

وبعد شهر واحد من حادثة الارز المشهورة كتب السفير لويس كروبتزين أول تقرير له الى موسكو ·· كتب يقول : ان النشاط الشيوعى والدعاية الروسية يسيران بنجاح مطرد فى سارخان ·· وتحـــدث التقرير عن كل صغيرة وكبـــيرة ، عن التقدم الثقـــافى والاقتصادى والسياسى والدينى والعسكرى والمحاولات الروسية العسكرية للفوز بالقوة والسـيطرة العامة

فى سارخان · وفى نهاية التقرير كتب السفير ملاحظتين قصيرتين لكنهما كانتا فى غاية الاهمية :

« ان السفير الامريكى جوهرة نادرة المثال ·· فهو يقصر رجاله على حضور الاجتماعات والمحافل والتهانى بالفوز بعضوية مجلس الشيوخ ومقابلة الضباط ووكلاء وزارتى الخارجية والدفاع وهكذا ·· على حين يمنعهم من ارتياد التلال ·· ولا يزال يضايق أهل سارخان بعاداته وتصرفاته الذميمة » ··

« ولاحظت أيضا أن الصحافة الامريكية تنتقد بشدة السفير سيرس لعدم كفاءته ومقدرته على فهم الحيل التى قمنا بها فيما يختص بسفن الارز·

فاذا ظلت هذه الصحافة الامريكية تهاجم السفير ، فمن المحتمل أن يخلع من منصبه ومن مصلحتنا أن يبقى هنا ·· لذلك سأعمل بنفسى خلال الاسبوع القادم على أن تكيل له الصحافة المحلية المديح والثناء وتضفى عليه من صفات البطولة والاقدام ما يثبت عرشه · وأقترح أن تهاجمه جريدة « برافدا » بقسوة وعنف ، فكل هذه الامور سوف تقنع وزارة الخارجية الامريكية والشعب الأمريكى بأن السفير سيرس يقوم بعمل عظيم·

وهناك مسألة أخرى أحب أن أوليها قدرها من الاهتمام ، فقد وصف عميل لنا فى بورما نشاط أحد القساوسة الامريكيين الكاثوليك الذى يعمل فى احدى المقاطعات هناك ·· واسمه الأب « فانيان » فاذا كان التقرير صحيحا فهذا الرجل مشاغب من الطراز الاول · ويقال ان هذا القسيس يتكلم لغة بورما ويأكل طعام الاهالى · وأعتقد أنه يسعى الى تنفيذ مؤامرات بابوية · ولست فى حاجة الى أن أذكركم بما قاله لينين عن مهارة البابوية اذا أحست بأن مصالحها مهددة بالخطر · وأكون شاكرا لو أرسلتم لى تقريرا شاملا أو ملفا بأكمله قد يكون لديكم عن هذا الرجل·

الفصل الثالث

تسعة أصدقاء

الاب : جون اكس فانيان ـ ولد عام ١٩٢٠ فى ورسستر بماساتشوتس .. الابوان : جون اكس ومارى فلفيان . ثلاث أخوات وثلاثة اخوة .. تخرج فى جامعة بوسطن عام ١٩٣٤ وحصل على ماجستير فى الآداب من الكلية الكاثوليكية بروما عام ١٩٤١ . عين أستاذا للعلوم الشرعية بكلية سانت مارى ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ . ثم واعظا فى بحرية الولايات المتحدة الامريكية من ١٩٤٤ الى ١٩٤٧ ثم دكتورا فى الفلسفة بجامعة اكسفورد من ١٩٤٧ الى ١٩٥٠ .

انتاجه : العقيدة الاجتماعية للقديس توماس الاكوينى .

ثم عين بعد ذلك مساعدا خاصا لمطران بوسطن عام ١٩٥١/٥٠

مؤلفاته : المقالات : آلام القديسة تريز ـ ومقال عن «حداثةالتواضع» ورؤى القديس برنار ، وكنه علم النفس الحديث ، والرأى الجديد والنظرية الكاثوليكية الاجتماعية . و « بعض آراء عن قوى الشيوعية المتحدة » و « هل الشيوعية ألحاد ؟ » و « الخطر الماثل للشيوعية » .

الكتب : نظرات فى ديانات العصور الوسطى ، والتفسير الاجتماعى ، وتحدى الشيوعية (١٩٥١)

وفى عام ١٩٥٢ أرسل الاب فانيان الى بورما كمراقب للبعثات الكاثوليكية ومحام عام « لجماعة يسوع » ..

***

ابتسم الاب فانيان عندما قرأ أمر نقله من نيو انجلند الى بورما التى تبعد عن وطنه بعشرة آلاف ميل وظهرت على وجهه علامات الرضا والسرور لهذا النقل المفاجىء ..

وكان الاب فانيان رجلا ضخما يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، حتى ان ظهره تقوس من كثرة انحنائه ليصغى الى من كانوا دونه فى الضراعة والطول .

وكانت يداه كبيرتين ناعمتين وتبدوان فى منتهى القوة ..

وكان فى صباه يقوم بتوصيل ألواح الثلج الى المحال التجارية ، وينقل الصناديق الخشبية فى محطة السكك الحديدية ، ويحمل أطنان الفحم على ظهره القوى ، وأيام دراسته فى أكسفورد كان دائما فى مقدمة فريق « مرتون » للتجديف وكان يعد أحسن رياضى عرفته أكسفورد .

وهو كرجل يعرف ضعف الرجال ، رحب بتعيينه فى بورما رغم أنه كان راضيا عن عمله الدينى فى بلاده ، لذلك شعر فى قرارة نفسه بأنه عضو ممتاز ينظر اليه نظرة خاصة تميزه عن غيره من أعضاء « جماعة يسوع » ولابد أن عملا خطيرا ينتظره فى آسيا .. لذلك كان حريصا على أن ينفذ النقل فى الحال لتعلقة بأمل كان يتمناه ويتشبث به ..

كان يعلم كرجل محنك مجرب المشاكل الخطيرة التى تنتظره هناك والطاعون السياسى الذى سمم أجسام الناس من جراء الجوع والفقر والتفكك السياسى الذى كان يعرف دقائقه ووقائعه .

فقد حدث أيام ان كان واعظا فى البحرية الامريكية أن التف حوله بعض البحارة فى جزر « رسل » يناقشهم ويحاجهم ، وقد امتدت أمامهم أشجار جوز الهند والشاطىء الرملى الابيض ومياه البحر الزرقاء الصافية .. وكان أحد البحارة الشبان ينصت باهتمام بالغ الىحديث الواعظ الجرىء ولم تفته منه كلمة واحدة كأنه تعمد ذلك .. وتحمس الاب فانيان حماسة متدفقة على غير عادته . وتحدث فى طلاقة تامة عن التضحية فى سبيل الله وعن الحاجة الى التواضع وأكد أن الدار الآخرة لن تمنح الا للمؤمنين ..

وعندما انتهى من وعظه وقد زاد حدة وانفعالا مضى مسرعا نحو البحار الشديد الاصفاء وهو يقول له « الرب معك فى غزوك » .

وأطل البحار ومد رأسه الى أعلى وأخذ يحملق فى الواعظ الذى ظن لاول وهلة أنه بروتستانتى لم يعجبه حديث الواعظ الكاثوليكى ..

ولكن الواعظ تأكد من أنه أخطأ التقدير عندما رأى البحار يبصق على الارض ببرود وهدوء . وكانت عينا الفتى جامدتين باردتين ثم اذا به يتحدث آخر الامر ويقول :

« ليس هناك اله يحرسنى أو يحمينى أو يحمى غيرى على هذه السفينة أيها الاب .. وانك لتعرف ذلك ويعرفه الجميع » .

ثم مد البحار يده الى صليب الواعظ وقال : « أنا شيوعى أيها الاب .. وسأذهب الى الجزيرة المنحوسة البائسة وأصلى اليابانيين نارا

حاميـــة لا ترحم .. لا من أجلك أو من أجـــل هؤلاء المفلين فى الولا
المتحدة ، ولكن لان الشيوعية تستحق ذلك .. »

فرد عليه الكاهن ــ يا بنى ان الشيوعية ...

فقاطعه البحار بقوله : ان الذى يجب أن تذكره لنا يا أبى .. لمـاذا فتحت جبهة ثانية ؟.. قل لنا لماذا لا يريد أن يذهب بعض الرأسماليين الشرهين الى أوربا الا اذا تقطعت أوصال الاتحاد السوفيتى .. لاتحدثنا عن الايمان بالله واليوم الآخر ، فعلينا أن نساعد أنفسنا بأنفسنا .. »

واربد وجه البحار حتى ان الاب فانيـــان ذكر أنه لم ير فى حيـــاته انسانا متعصبا لمذهبه على هذا النحو العجيب .. لذلك خانته الكلمات وفوجىء من هول صفاقة البحار فلم يفه بكلمة واحدة ..

***

ولم ينس الاب « فانيان » هذه الحادثة .. فقد عرف أن حماسة البحار وصدق احساسه وتعبيرات وجهه هى التى تحيل الرجال الى قديسين ، ولكن هذا البحار كان فى طريق تحوله الى شيطان رجيم ..

وبعد مقابلته هذه مع البحارة ، كبح الواعظ غضبه ثم أخذ يقرأ عن الشيوعية .. بدأ بقراءة خطب ستالين وبولجانين وزوكوف من الجرائد السيارة ، وقد حيرته خشـــونتهم ووضوحهم وافتقارهم الى الحـــذق والمهارة . وآلم الاب فانيان المجرب الخبير افتقـــادهم المنطق وتجنيهم على الحقيقة . ولكن المنطق كان فى نظر ملايين الناس غير ذى موضوع..

وخرج الواعظ من قراءاته وأبحاثه بأن هذه الخطب الشيوعية كانت نوعا من الطقوس الدنيوية . وأن أهدافها كانت رموزا أغرت الكثيرين باعتناق هذا المذهب ووعدتهم بمستقبل باهر عظيم ، وكانت هذه الوعود تعنى الكثير للشيوعيين . ودرس فانيان أن ايمان الشيوعى لا يقل عن ايمان المسيحى الكاثوليكى فى شىء وكان لهذا الاكتشاف أهميته وأيقن الواعظ أن الشيوعية هى وجه الشيطان ، لان الشيوعيين قلدوا الطقوس والايمان والتضحية والغيرة على الكنيسة ، وحولوها جميعا الى تقاليد فى سبيل ازدهار مذهبهم . وكانت هناك نفس النظم التى تعمـــل على البذل والتضحية والاذلال والحاجة الى معرفة الحقائق للوصـــول الى الحق الاعظم .. وكان الفرق بين المذهبين أو الديانتين ــ ان صـــح أن الشيوعية دين ــ هو أن الاخيرة تخدم الشيطان وتعمل فى سبيل ارضائه.

وتأكد القسيس أن دعاة الشيوعية الاولين قد أخلصوا لهـــا اخلاصا عظيما حتى أصبح من أشق الامور أن ينازعها مذهب آخر فى العالم ..

ثم قرأ فيما بعد ما كتبه لينين بعنوان « ما الذى يجب عمله ؟ » وما كتبه ستالين بعنوان « تاريخ الحزب الشيوعى » وقرأ لانجلز .. وأخيرا « رأس المال » لماركس ، وقرأ الكثير لغيرهم .

ولم يتأثر القسيس بهذه القراءات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفلسفية .. وكثيرا ما ظن نفر من الناس ان الشيوعية جاءت نتيجة لصراع الطبقات أو نتيجة لتغيير اقتصادى أو سياسى طويل المدى ، وكل ما استطاع أن يخرج به القسيس عن الشيوعية انها وجه الشيطان لا غير .. بل هى الشيطان ذاته وقد نزل الى أرض الاحياء ليمتحن عقليات الرجال .. وكان أن قرر مواجهة الامتحان ، ولو قام بهذا العمل وحده .

كان فانيان رجلا عمليا ومفكرا من الطراز الاول ، وعندما بدأ رحلته الى بورما كان قد تسلح بسلاح المعرفة وألم بدقائق الشيوعية وتزود بمعلومات خطيرة عنها .. وفى أثناء رحلته الطويلة عن طريق مانيلا وسايجون وبانكوك وأخيرا رانجون تبلورت لديه فكرة الهجوم وبعد أن مكث فى رانجون قرابة أسبوعين ، واصل رحلته التى بلغت ألف ميل فى نهر « ايراوادى » فى زورق بخارى بطىء استطاع خلالها أن يدرس طبائع أهل بورما ويراجع معلوماته عن ثقافتهم وحضارتهم وتاريخ بلادهم .. فالاب فانيان لم يكن من الذين يأخذون الامور على علاتها ..

***

كانت نوافذ مسكن مطران « موكثو » من غير زجاج نظرا لحرارة الجو فى بورما .. وكانت مغطاة بشباك من السلك . أما فى الليل فكان يسدل عليها حصير مصنوع من البامبو ، ورأى فانيان حشرات كثيرة ، غريبة ، وقد حشرت فى الشباك المصنوعة من السلك ، ومن خلال النافذة نفسها رأى فانيان وادى « موكثو » الاخضر الجميل الذى تقع عند حافته مدينة موكثو نفسها بشوارعها الضيقة ومجاريها المفتوحة وفى نهايتها تبدأ الغابة الخضراء التى تموج بحيواناتها . وكانت المدينة تبدو كأنها تحتضر وأن الغابة الخالدة القوية اكسول سوف تكتسح المدينة وتزيلها من الوجود ..

وقال القسيس بهدوء ـ أحب أن أزور القرية حالا .. ويا حبذا لو استطعتم امدادى بعربة جيب وخيمة وسرير وبعض الطعام ..

فرد عليه المطران قائلا ـ ستقضى هناك أكثر من ليلة ؟

ـ بل عدة شهور ..

ـ أبى لقد أغلقنا أبواب ثلاث ارساليات بين هذا المكان والعين ..

بورما . فكان يسـأل عن أسماء ما يصادفه من أشياء فعرف معنى الماء والشجر والنهر والبحر والسحاب والنار .. الخ .. ودهش لقلة الكلمات الاساسيه التى تكون لغة بورما .. ولم ييـأس القسيس بل كان يتمرن على نطق الـكلمات فى أثناء مرضه بالدوسنطاريا .. وبعد أربعة أسابيع استطاع أن يكون جملا كاملة .. ولم يبد مجهودا يذكر فى تعلم الـكلمات الصعبة .. بل كان يبحث دائما عن الـكلمات السهلة التى يستطيع أن يقنع بها أهل البلاد .. وكانت اجادته للغة البورمية هى الوسيلة الوحيدة للعثور على أمناء مخلصين من الاهالى ..

وعثر فانيان على أول كاثوليـكى بورمى واستطاع بعد ذلك أن يعثر على غيره بين المواطنين الصالحين المخلصين .. ولم يكن ليهتم كثـيرا أن يجدهم « كاثوليكيين » بل كان اهتمامه منصبا على أنهم غير شيوعيين .. وأن يكونوا أمناء وشجعانا ..

وغادر فانيان الشجرة التى كان يعسكر تحتها ، وفى كل مرة كـان يتحرك فيها كان يشعر بامعائه تؤلمه الما مبرحا ولكنه كان يتحامل عـلى نفسـه ، ويهب واقفا من جلسته عندما يحضر اليه مساعدوه الثمانيةالذين راى الامرين فى العثور عليهم وانتقائهم من بين مئات الناس .. لقـد استخدم فى اختيارهم كل مؤهلاته وفراسته وتجاربه كرجل متخـرج من كلية « اليسوعيين» رغم مرضه الذى اقعدهورغم قسوة الدوسنتاريا التى هدت كيانه هذا .. لقد كانت الصعوبة الكبرى فى عثوره على اول رجل من مواطنى بورما يمكن الاعتماد عليـه .. انه وجـده فى يـو — تين ..

كان يو — تين هذا سائقا فى المطرانية ومن رجال المطران المخلصين- صدرت اليه الاوامر أن يذهب مع القسـيس فانيان ، وكان يعيش فى الشمال اى فى منطقة الجبال على بعد خمسين ميلا من الحدود الصينية وكانت هذه هى المنطقة التى قرر فانيان ان يعمل فيها .. وكان يو — تين قد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره ، متزوجا وله ثلاثة أولاد وكان يقال عنه انه اشد الناس اخلاصا لمذهبه الكاثوليكى . وشعر فانيان بذلك لاول وهله وعلم ان الرجل جاد فى ايمانه ، مخلص لعقيدته ومع ذلك فقـد أجرى عليه عدة اختبارات من باب الطمانينة لاغير ..

وكانت اولى هذه الاختبارات التى اجراها فانيان على يو — تين ، ان ترك معه حقيبته الخاصة وغادر المكان لعدة ايام .. وبعد ان عاد قام بفحص الحقيبة فحصا دقيقا حتى ان الخيط الرفيع غير المنظور الذى لف به اوراقه لم يمس او يقطع ، فتاكد من امانة يو — تين واخلاصه ..

اما الاختبار الثانى فيتلخص فى انه اطلع يو — تين على خبر هـام وهو انه — اى فانيان — كان يفكر فى التفاوض مع الشيوعيين ليسمحـوا لمدارس الارسالية الكاثوليكية بفتح ابوابها من جديد . وقال فانيـان

لخادمه انه من الجائز اعادة فتح هذه المدارس على شريطة الا يعلموا فيها شيئا يمس الشيوعية من قريب أو بعيد .. فلم يبد على وجه يو ـ تين اى تغيير .. فاستمر فانيان يقول ان الشوعية سياسة اما الكاثوليكية فدين وليس هناك ما يدعو الى التطاحن بين الاثنين .. ويستطيع اهل بورما ان يصبحوا شيوعيين كما يصح ان يكونوا كاثوليكيين .. واضاف ان هذا كله اوجد خلافا وسوء تفاهم .. ولكن الحقيقة انه من الجائز ان تكون وطنيا أو شيوعيا او كاثوليكيا .. وختم حديثه بقوله ماذا فى هذا يا يو ـ تين ؟

وبدأ الالم يظهر بوضوح فى عينى يو ـ تين ، وكان فانيان يعلم ان الاسيويين لايحبون ان يقولوا شيئا يجرح شعور محدثيهم ، لذلك يعلقون دائما على مثل هذه الاسئلة بما يدخل السرور على سائليهم .. وكان فانيان الخبير المجرب يعرف أيضا أن أى شيوعى لن يستطيع أن يجيبه فى الحال عن مثل هذه الاسئلة الدقيقة بل يطلب وقتا للتفكير او استشارة المسئولين او من هم اعلم منه ببواطن الامور ..

وكان هدف فانيان ان يستسلم يو ـ تين وينصاع لارائه ولكن الاخير بلل شفتيه وقال :

« اعتقد أنه ليس من الجائز أن تصبح كاثوليكيا مستقيما وشيوعيا محترما .. وبطريقة ما لااستطيع ايضاحها أقول لك ان هذه اشياء لايمكن خلطها بسهولة .. ولكى اوضح لك الامر اكثر من ذلك ، اقول اذا كان أحدهما على حق فلابد أن يكون الاخر على غير حق .. وهذا هو ما استطيع أن اقوله .. فمعذرة » ..

واجريت اختبارات أخرى ، بعضها خفيف والاخر سريع وبعضها الثالث على مجال اوسع واعمق .. واخيرا عمد الاب فانيان الى اجراء تجربة قاسية لكنها ضرورية للتحقق والتاكد من صدق خادمه واخلاصه وايمانه بعقيدته .. ذهب الاب الى السوق فى « موكثو » ليبحث عن حقيبة جلدية خاصة فى اربعة محلات ، وفى كل مرة كان يقول لاصحاب هذه المحلات .. « اننى ابحث عن حقيبة جلدية متينة تستطيع حمل عدارة كبيرة وخمسين طلقة نارية لاسلمها الى سائقى الخاص لحراسة سيارتى فى هذه الايام المضطربة .. »

وفى الغد تاخر يو ـ تين عن عمله . ولم تكن هذه عادته من قبل .. وعندما ظهر اخر الامر وهو يسوق سيارة الجيب كان وجهه مغطى بالدم الذى سال من عينيه الى فكه السفلى وتجمد على حافة قميصه ..

وساله فانيان عما حدث ..

فاجابه يو ــ تين : لقد اتى الشيوعيون ليلة الامس واوسعونى ضربا ولكما ، فقد ظنوا ان معى مسدسا وذخيرة .. وقالوا انهم يعلمون ذلك علم اليقين .. حتى انهم كادوا يزيلون حجرتى من الوجـــود بحثا عن المسدس والذخيرة المزعومتين ..

وكانت الثورة والغضب باديين فى عينيه وهو يقول : « لم تكن حكيما ياسيدى فيما قلته .. فليس من العقل او الحكمة ان تقول شيئا كهذا.. وفى هذه اللحظة تخلص فانيان من الدور الذى كان يمثله واجابه مسرعـــا ..

« لن يحدث هذا مرة ثانية يا يو ــ تين »

ثم وضع يده على كتف الرجل وقال :

« هذا هو نهاية الاختبار .. الان يعرف كل منا الاخر حق المعرفة .. لقد كان هذا ضروريا لكثرة انتشار الجواسيس فى كل مكان .. وكان على أن أعثر على انسان يعيننى على اداء رسالتى .. وعليك الان ان تبحث عن الجواسيس ومن يكونون . »

وخلال اسبوع اطلع يو ــ تين اباه القسيس عن اسماء الجواسيس وكذلك اسماء الذين يستطيع الاعتماد عليهم . وكان بعض هؤلاء الرجال غير كاثوليكيين ولكنهم كانوا يكرهون الشيوعيين وذكر يو ــ تين سبب كراهية كل واحد منهم للشـــيوعيين . .
فقال فانيان : والان ، لنبدأ عملنا ..

***

تسلل اربعة رجال من بينهم يو ــ تين من وراء اشجار الغابة وطأطأوا رؤوسهم لفانيان ثم وقفوا امامه فى هدوء . وانتظروا من غير ان يتفوهوا بكلمة واحدة ، وبعد لحظات ظهر اربعة رجال اخرين ، فاصبح مجموعهم مع رئيسهم تسعة اصدقاء . .

وفكر فانيان فى نفسه « لقد بدا العمل » ان تدريب الســـنوات الطويلة اصبح امرا واقعا لاشـــك فيه »

وشعر القسيس بهدوء غريب .. رغم ضعفه الجسمانى الكبير ،ولكن هذا الضعف كان شيئا جسمانيا مصدره الطعام وعدم النوم ، وعدا ذلك فهو قـــوى ..

وأطبق فانيان عينيه لحظة ، كأنه يطلب الرشد والقدرة . ثم فتحهما وبدأ يتكلم ببطء الى الرجال الثمانية :

« انه من الصعب النطق بهذا الشيء .. ولكن لابد ان نقوله .. ففى الايام العادية نرى ان الكنيسة لاتهتم بالامور التى تهتم بها الدولة .. فكل منهما يهتم بأجزاء معينة فى الرجل .. فالكنيسة تهتم بالروح أما الدولة فتهتم بحياته السياسية . قال قديس عظيم مرة « ما دامت الحرية مكفولة لسيف الكنيسة فى محاربة الخطيئة لن تفعل شيئا يلوث سيف الدولة » .

وتردد لحظة وهو يفكر فيما اذا كان القديس اوغسطين قد يوافقه على الطريقة التى استهل بها قوله ، ثم وجه حديثه مرة أخرى الى الرجال الثمانية بقوله :

« ولكن هذه الاوقات غير عادية ، فالرجال الذين يسمون انفسهم سيوعيين يقولون ان الروح والدولة صنوان والثمن الذى تدفعه لتكون سيوعيا هو ان تعطيهم روحك وعزيمتك .. وهم يحاولون ان ينصبوا انفسهم الهة على هذه الارض »

وكان الرجال الثمانية ينصتون باهتمام ، فقد عاشوا تحت سلاح التهديد والقوة والقتل والتشريد .. فلن تخدعهم اذن الكلمات المعسولة فهم يعرفون كيف يميزون الحق حتى ولو كان قاسيا . .

واستمر فانيان بعد ذلك يقول مرة اخرى :

« علينا ان نقرراولا ونتاكد من الشيء الذى نريده تماما .. وقبل نقوم بادنى حركة ، ولو كانت بسيطة ، يجب ان نتفق عليها »

ثم سالهم سؤالا مفتوحا :

« ما الذى يجب أن نفعله ؟ »

وتكهرب الجو فجأة واطبق على الحاضرين سكون رهيب ، ثم ساله احد الرجال وكان يدعى يو ـ بيو :

قل لنا ما الذى يجب ان نفعله ؟ ، وكان فانيان يعلم ان هذه لحظة حرجة . نقطة الاتزان ، وشعر بأن « يو ـ بيو » يحاول أن يختبره .

فاجاب فانيان ـ لست أنا الذى اقرر بل لنا جميعا ان نصل الى قرار انها بلدكم .. وارواحكم .. وسافعل ما توافقون عليه .

وبدت مظاهر الجد والعزيمة على وجوه الرجال وتوقفت ايديهم عن العبث بالاشياء التى كانت بها ونظروا الى فانيان الذى فهم فى الحال انهم قرروا العمل ولن يعترض طريقهم انسان .. ولا سيما وان هذه هى المرة الاولى التى يسمعون فيها من رجل أبيض ان القرار قرارهم

وعليهم وحدهم يقع عبء المسئولية الكبرى والعمل الكبير الذى ينتظرهم وسوف يكون الرجل الابيض رهن اشارتهم تابعا لهم منفذا لاوامرهم ..

فرد احد الرجال الثمانية بقوله : العمل الكبير ؟ .. هذا هو الذى يجب ان نسميه .. فالعمل الكبير الذى نريده ان يصبح الناس هنا كاثوليكا لاشيوعيين ..

ونظر بعض البورميين الى فانيان ليروا رد الفعل ، ولكن وجهه كان جامدا لانه كان يعلم ان الثبات فى هذه الظروف يوحى بالطمأنينة الى نفوس محدثيه . ورد يو ـ تين بقوله : ليس هذا هو العمل الكبير النهائى الذى نريده .. فلا يهمنى ان يكون بيننا بوذيون او اناميون أو ميثوديون أو معمدانيون أو حتى غير مؤمنين ، فقبل الشيوعيين كان بيننا أناس لم يمنعونى من عبادة من أرغب أو أربى أولادى بالطريقة التى أريدها ولا يتعرضون لمذهبى..أما الشيوعيون فقد جعلوا جميع العبادات مستحيلةماعدا عبادة ستالين ولينين وماو. ففى المناطق التى يهيمنعليها الشيوعيون يجب على الجميع أن يعتقدوا فى شىء واحد هو « الشيوعية»..

ومرة أخرى ران على الجميع سكون مطلق . لان الرجال كانوا يفكرون فيما سمعوه ..

وقال احد البورميين : ان يو ـ تين على صواب فانا الاخر كاثوليكى ولكنى لااريد ان يكون الكل كاثوليكا .. وأظن ان معنى هذا او الذى نريده هو وطن يعبد فيه الفرد الاله الذى يختاره وبالطريقة التى تلائمه، واعتقد ان هذا هو العمل الكبير النهائى . .

واستمرت بعض المناقشات وكانت حامية الوطيس .. وفى كل مرة كان البورميون ينظرون الى فانيان الذى كان ينظر اليهم ويحملق فى وجوههم ، واخيرا اتفقوا على راى يو ـ تين ..

وقال فانيان اخيرا :

اذا سمحتم لى فسوف الخص ما قلتموه .. ان الشىء المهم او العمل الكبير هو الوطن الذى يعبد فيه الانسان الهه ويعيش بالطريقة التى يشاؤها ثم أضاف يقول بتواضع .. ليس من حقى أن أوافق أو لا اوافق ، ولكنى اتفق معكم .

وظهر البشر على وجوه البورميين وصفق يو ـ بيو بكلتا يديه فرحا مسرورا ولم يشعر فانيان لاول مرة خلال خمسة اسابيع بالم الدوسنطاريا الحاد الذى كان يقض مضجعه .. فقال فى هدوء :

« والان يا اخوانى . . فان الخطوة التالية اصعب واقسى فهى

تحتاج الى امانة مطلقة تعد مضرب الامثال وكثير من المعلومات والافكار، وهذه الخطوة هى : لماذا لايكون لنا مطلق الحرية الان فى عبـــادة من نرغب ، او نعيش بالطريقة التى تدخل على نفوسنا البشر والسرور ؟ لمـــاذا ؟ . .

فاجاب احد الرجال ـ لان الشيوعيين لايسمحون لنا .. فهم يحرقون الكنائس ويضربون الرجال الذين يتبعون سياسة « يونو » ويحتقرون الاعتراف وينكرون علينـا كل انواع الحـــريات ..

فسأله فانيان بكل هدوء ـ ولماذا يعتقد البورميون فيما يقـوله الشـيوعيون ؟ . فقد كان الشيوعون اقلية هنا .. ولكنهم اصبحوا الان كثرة ويهيمنون على مناطق كثيرة .. ومنهم مواطنون مثلكم . اما ماتقوله بان الشيوعيين ينكرون عليكم الحـــريات فقول لامعنى له .. اذ لمـاذا سمح لهم بكبت حـــرياتنا ؟

فاجابه يو بيو : اغلب الظن ان كثيرا من مواطنينا يعتقدون فيمـــا يقوله الشيوعيون فسأله فانيان بحدة ـ ولكن لماذا ؟ ..

واشتد النقاش حتى ان توكى الهادىء الوديع هب واقفا وســـار الى شجرة قريبة ونزع غصنا منها واخذ يعبث به بين اصابعه .. ولكن رغم هذا كله خرج فانيان من المناقشة بان روحا عالية تهيمن عـــلى الرجال وان اكتشافه لهم كان موفقا كل التوفيق .. واخيرا هـــدأت حدة المناقشة ونظر الرجال الى « يوتين » كانه خطيبهم المصقع او رائدهم العظيم وهو يوجه حديثه الى القسيس :

« ان ما نفكر فيـــه يا أبى ، وقد تسيء كلماتنـــا اليك ، هو أمور ثلاثة :

الشيء الاول ـ ان الشيوعيين ينكرون علينا حرياتنا لان كثيرين من البورميين قد اصبحوا شـــيوعيين .

والشيء الثانى ـ اصبح عدد كبير من مواطنى بورما شيوعيـــين لاعتقادهم بأن الشيوعيين يعملون ضد الرجل الابيض .. الرجل الغربى .. وانا اعتذر يابى عن هذا .. انه امر صعب ولكن اغلبيتنا تشـــعر بان الرجل الابيض لم يكن عادلا فى كثير من الحالات .. انها حقيقة مرة لابد من ذكـــرها ..

والشيء الثالث ـ أن عددا كبيرا من البورميين يفضـلون الشيوعيين لانهم يعتقدون بانهم يفعلون اشياء ممتازة فى صالح المواطنين .. وعلى الاخص الفلاحين والاجراء فهم يعطونا أرضا وطعاما وسيارات وأجهـزة اسلكية ودواء رخيصا ..

وهذه هى الاسباب التى من اجلها ينكر علينا الشيوعيون حرية العبادة .. »

فاجاب فانيان : هذا يبدو حقيقيا وواضحا وكل ما نريده هو :
اولا : حرية العبادة وحرية الحياة ..

ثانيا : لن ننال حريتنا الا اذا توقف البورميون عن اعتناقهم للمذهب الشيوعى ولن يتخلصوا منه الا اذا تحققوا ان الشيوعية مذهب شيطاني .. وأنا أعتقد اعتقادا جازما بأن الشيوعيين لايهمهم فى كثير أو قليل الرجل الابيض أو الاسود أو الداكن بقدر اهتمامهم بالقوة . ولا يجب ان تاخذوا كلامى قضية مسلمة . فسوف ننظر معا فى الحقائق لنرى ما الذى نستطيع ان نكتشفه ..

ثم قال .. « غدا ان شئتم فسوف نجتمع مرة أخرى فى نفس الميعاد وسنقرأ معا ما يريده او يقوله الشيوعيون والوسائل التى يتبعونها فى الحصول على ما يريدون او الطريقة التى يحققون بها ما يقولون .. . سنقرأ من كتابات الشيوعيين انفسهم ونمحص الاعمال التى يقومون بها .. وعندئذ ستتكشف لنا الحقائق ونعرف ما يجب علينا عمله .. »

وهب فانيان واقفا فشعر فجأة بحدة الالم حتى انه كاد يسقط مغشيا عليه . واصفر وجهه . فاسرع يو ـ تين نحوه ليمنعه من السقوط ولكن فانيان هز راسه ، ثم اخذ يصافح الرجال ببطء ويشكرهم لحضورهم الاجتماع . .

***

وفى مساء اليوم التالى عاد البورميون وكانوا فى هذه المرة متحمسين للكلام والمناقشة والجدال . فقد فكروا طويلا فى مناقشة الامس واستعدوا استعدادا عظيما للمناقشة هذه المرة ..

وقال احدهم : قبل ان نفعل اى شىء يابى يجب ان نحصل على جميع المعلومات الخاصة بالشيوعيين فى هذه المنطقة . فمن حقنا أن نعرف ما نريده فى المستقبل القريب ، لذلك يجب علينا أن نعرف أولا المشكلات والصعاب التى تعترض طريقنا . .

وكادت تظهر على وجه فانيان ابتسامة حماسية ، ولكنه فضل ألا يظهرها لان اقتراحات البورميين هى نفسها التى دارت بخلد فانيان ، تنفيذا للخطة الثالثة أى « تاسيس قلم مخابرات »

ووافق بقية البورميين وبدأوا يتحدثون عن مدى قوة الشيوعيين .. فذكروا اخبار بعض التجار الذين كانوا شيوعيين فى السر لا الجهر

.. وكشفوا عن بعض الطلبة القادة او رؤساء الخلايا الشيوعية ومن منهم الديمقراطيون ومن منهم الذين يقومون بحملات الدعاية ، وأين توجد الذخيرة ومدى تاثير الحرب الباردة . وتحدث الرجال يومين كاملين .. ورسموا رسوما على الارض ، وحددوا مواقع معينة على الخرائط

والغريب فى الامر انهم دهشوا لغزارة معلوماتهم ولقوة الشيوعيين وسطوتهم . فلم تخل قرية من القرى من ظل الشيوعيين ولم تكن هناك مؤسسة غربية الا والشيوعيين يتجسسون عليها باحكام .. وفى بعض القرى كان الشيوعيون يهددون كل شيء او من يعترض طريقهم بقسوة وغلظة . وفى كل مكان اخر كانوا يطلقون اسلحة دعايتهم عن مساوىء الرجل الغربى وحب الشيوعية للرجل العادى وللشعوب عامة .

فقال فانيان : اننا الان نعرف كل ما يجب ان نعرفه عن الشيوعيين ، فكل واحد منا يعرف ما يعرفه الاخر .. فنحن لسنا كالشيوعيين الذين يخفون المعلومات عن قومهم .. والان يجب ان نقرر ما يجب عمله .. ما ينبغى ان نفعله .

واستمر النقاش بعد ظهر كل يوم لمدة اسبوعين .. كانت الاجتماعات اثناءها مليئة بالافكار والكلمات والحماسة والغضب والسخط العارم على الشيوعيين ، واخيرا تمت نصوص الاتفاقية ..

وبعد عدة شهور كتب فانيان فى تقريره ما فعله رجاله الثمانية، حيث وضحت الامور .. كتب يقول :

« لقد اكتشفنا ان الرجال ينقادون عادة وراء العقائد سواء اكانت هذه العقائد تابعة للكنيسة الكاثوليكية أو اللوثرية أو حتى الشيوعية او الديمقراطية . ولا يمكن الحكم على حركة من الحركات باطريقة التى اتبعت فى اقناع الناس باتباع هذا المذهب او ذاك بل بالقوة التى استخدمت حتى ان انجح الحركات تتبع نفس الطرق والوسائل . وكل الذى اكتشفناه خلال مناقشاتنا الطويلة فى الادغال ما ياتى :

١ ـ لقد رغبنا فى مجتمع تسوده حرية الدين والحياة .

٢ ـ ولكن كان هذا يبدو مستحيلا نظرا لان كثيرين من البورميين قد خدعتهم الشيوعية ..

٣ ـ ولذلك كان علينا أن نبرهن للناس أن الشيوعيين لا يهمهم أى انسان بقدر اهتمامهم بالقوة ..

٤ ـ وكان علينا اجراء ذلك بمهارة ومن غير استخدام القوة ... بطريقة الاقناع والمنطق لذلك وجب علينا ان نصبح مهرة فى فن الاقناع .

٥ ـ وان نقنعهم حسب مجريات الحوادث والظروف التى يعرفها البورميون .

٦ ـ وان يكون اقتناعا بكلمات يفهمها كل انسان .

٧ ـ اما الافكار المعقدة فيجب ان تصاغ بطريقة مؤثرة وقوية

٨ ـ ويتم الاقناع فى الوقت الذى تكون النظارة فيه مستسلمة ، ويجب اجراء ذلك على جميع المستويات .

« ومتى وافق الرجال الثمانية على هذه الامور فمن السهل اقناع الاخرين .

أما الجانب الصعب فكان الانتظار وترتيب الامور .. وكان علينا ان نضع الخطط لاننا كنا تسعة اصدقاء . ضد ثلاثة الاف من الشيوعيين العاملين . .

« وكان اول ما فعله شركائى الثمانية ان قاموا بطبع جريدة رخيصة على الة الرونيو التى احضرتها معى واطلقوا عليها اسم « الفلاح الشيوعى » وكان اختيار الاسم موفقا لان العنوان كان خادعا ، حتى أن الشيوعيين أنفسهم لم يستطيعوا تحديد موقفهم منها . هل يعاونون الجريدة ام يحاربونها ، وقد ظهرت بطريقة غامضة وفجأة فى الاسواق والمحال التجارية وتحت عتبات الابواب وميادين القرى والسيارات والشوارع العامة .. وفى كل عدد كان يتصدره مقال لشيوعى خطير .. لستالين او ماركس او لينين او ماوتسى ـ تونج او شواين لاى أو بليخانوف ..

وظهر احد الاعداد وبه مقال لكارل ماركس يهاجم فيه غباوة الفلاحين وتخلفهم ، ونشر فى عدد آخر خطاب لستالين أثنى فيه ثناء عاطرا على ذبح الكولاكس ـ فئة من الروس قاومت جماعية المزارع ـ على اساس أنه يجب أن تكون الزراعة جماعية .. أما باقى العدد فكان يشمل حقائق متفرقة عن مشكلات الزراعة فى روسيا وتقدمها فى الولايات المتحدة الامريكية وبعض الملاحظات عن طرق تقدم الانتاج الزراعى ونصائح لاستعمال الاسمدة العضوية ..

واختلط الامر اختلاطا كبيرا على الحزب الشيوعى بعد صدور عددين معينين .. لذلك هجموا على الجريدة هجوما وحشيا فى خطاباتهم عن طريق الاذاعة وبعض الجرائد الاخرى . واوضحوا ان جريدة « الفلاح الشيوعى » لم تذكر سوى جانب واحد من النظرية الشيوعية وان لم يستطيعوا انكار الحقيقة المرة وان كل ما كتب فيها حقيقى لاشك فيه .. وهاجوا وماجوا فى جرائدهم وذكروا ان ستالين كان يحب الفلاحين

ولكن هذا الزعم كان باطلا على ضوء قتله الكولاكس وابادتهم من روسيا .. وخلال شهر واحد انقطعت الصحافة الشيوعية للرد على جريدة الفلاح الشيوعى "

« ثم جاهدوا جهاد المستميت للبحث عن هذه الجريدة ومصادرتها وهذا مما جعل الناس يتزاحمون على طلبها وقراءتها وارتفع ثمنها فى السوق السوداء »

وهدد الشيوعيون بقتل الذين يطبعونها ويوزعونها .. وهنا ولاول مرة فشلت تهديداتهم وخاب سعيهم ولم يستطيعوا ابدا اكتشاف الذين يشرفون على اصدارها بانتظام .. وبدأ الشيوعيون يسقطون تدريجيا من انظار البورميين واصبح الناس يتهكمون ويسخرون من مقالات جهابذة الشيوعيين ..

قد يعمل حساب فى بورما لحزب قوى محترم ، اما اذا اصبح هذا الحزب موضع السخرية والتندر فمآله الفشل الذريع ..

« وترتب على ذلك ان تغير القواد الشيوعيون فى الشمال وحل محلهم اخرون .. وفشل القواد الجدد وحل محلهم اخرون بمضى الوقت حتى ان نكتة بدأت تروج ، تقول ان اسرع طريقة للموت هى أن تصبح زعيما خطيرا فى الحزب الشيوعى !

« وبلغت الامور اقصاها او ذروتها .. فجاء رجل من موسكو الى مدينة « آنتيخانا » وكان خبيرا فى مشكلات بورما وكان فارع العود قاسى الوجه تدل ملامحه على اجادته المؤامرات والخداع والمكائد ، ولم يفشل هذا الرجل فى حياته مرة واحدة .. وكان اسمه « فينيش »

« وقام فينيس هذا بوضع خطط كبيرة قبل أن ينسل الى « آنتيخاتا » .. فوضع خطة رهيبة للقضاء على جريدة « الفلاح الشيوعى » وتعمد ألا يعرف انسان خبر وجوده فى أنتيخانا .. واكتشف ان الاهالى هم الذين يقومون بالاعمال السياسية اما الاجانب فيلتزمون الهدوء أو الصمت ولا يتدخلون فى مثل هذه الاعمال . .

« وكادت خطته ان تنجح لبراعتها وحبكتها . ولم تكن هناك غير نقطة ضعف واحدة . فقد اكتشف احد الجواسيس وجود الشيوعى الخطير وكان ذلك الجاسوس هو توكى ذو الذاكرة الحادة والعقلية الجبارة ..

« فبعد ثلاثة أسابيع من وصول فنيش بدأت جريدة « الفلاح الشيوعى » تظهر كل يوم فى البارات وبيوت الشاى والمكاتب والامكنة العامة ، وفى القرى والريف وكل مكان اخر .. وكانت تعلن كل يوم

أنه فى يوم ١٠ يونيه فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر سيعلن الراديو اذاعة هامة من « مايتكينيا » مع رسالة هامة ستوجه الى الجميع بما فيهم الشيوعيون ..

وفى اليوم العاشر من شهر يونيه كان فى « انتيخانا » عدد كبير من الناس ينصتون الى الاذاعة المحلية ، واصبحت الاذاعة فى هذا اليوم لها همية كبرى عند السواد الاعظم من الموطنين فكان الكل ماعدا نفر قليل ينصتون ببالغ الاهمية الى ماسوف يذيعه المذياع ..

« وفى الساعة الثانية مساء أعلن المذيع أنه فى النصف ساعة القادمة سيتحدث افراد جامعة التربية البورمية . ثم صدر صوت اجش بلهجة آنتخاتية يقول فى هدوء ورزانة :

« اننا نعتقد ان مواطنى آنتخاتا قد خدعنهم الدعاية المفرضة التى يتزعمها الحزب الشيوعى .. ونعتقد ان هذا امر خطير ، لذلك سنفسح المجال لخطباء رسميين من الاتحاد السوفيتى والحزب الشيوعى بآنتخاتا بان يتحدثوا اليكم . وستسمعون صوت « فلاديمير فنيش » نفسه من موسكو بروسيا الشيوعية والذى يعيش فى قرية « تون مو » فى سرية تامة .. ففى الاسبوع الماضى عقد فنيش اجتماعا للشيوعيين المحليين لمناقشة سياسة آنتخاتا ليتاكد من أن الشيوعية فى هذه البلاد لاتزال بخير .. ونحن اعضاء جامعة التربية البورمية قد سجلنا هذا الحديث الذى دار بين فنيش وبين زملائه الشيوعيين وسادير جزءا من هذا الحديث لتسمعوه .. لتحكموا بانفسكم على الشيوعيين من منطق مناقشاتهم التى يكشفون فيها عن نياتهم ..

« ان الصوت الذى سوف تسمعونه الان ايها الاصدقاء هو للسيد فلاديمير فنيش من موسكو بالاتحاد السوفيتى يتحدث عن اهدافه الشيوعية !! »

« ثم سمع صوت ادارة شريط مسجل ، ثم صدر صوت خشن قوى يتحدث بطلاقة بلهجة روسية ولكن بالبورمية ، وكان الصوت لفنيش نفسه وهو يقول بصوت متعب « لقد تركتكم تتناقشون لمدة ثلاث ساعات ولم اشأ ان أتكلم خلال هذا الوقت .. فلا يهم ماذا يحدث هنا .. فانا لا اطلب النصح منكم بل اقول لكم الحقائق .. والنتائج المترتبة على هذه الحقائق ..

أولا : اوقفوا الحديث عن وعود روسيا فى ارسال جرارات لكم فليس وسعنا ارسال شىء من هذا القبيل فقد ارسلنا معدات حربية الى هو ـ شى ـ منه » فى فيتنام ..

ثانيا : اوقفوا الحديث عن اصحاب الاملاك .. ولا تتحدثوا عن

المزارع الجماعية فهذا يخيف الفلاح ، فالفلاحون قوم متاخرون . وهم يريدون ملكيات خاصة لا مزارع جماعية .. وسوف يميزون فيما بعد ضرورة الملكية العامة ، ولكن فى غير هذه الاونة بالذات

وساله صوت : مارايك فى الدعاية ضد الامريكيين ايها الرفيق ؟

فرد عليه فنيش بخشونة : لقد بالغتم فى ذلك مبالغة كبيرة وجعلتم الطبقة التى تكره الامريكيين تصبح وطنية متطرفة حتى ان البورمى بدا يبحث عن ضعف الحكومة البورمية .. فلا تتهموا الامريكيين بكل شىء بل وجهوا بعض هذا الاتهام او اللوم الى المعارضة المحلية ..

وصدر صوت لمواطن من اهل بورما يقول ـ من الصعب ان ننتقد حكومتنا فى هذه الفترة بالذات ..

فقاطعة فنيش قائلا : بالطبع هذا صحيح .. ولكن يجب ان تتذكروا ان اسوأ الامور هى احاسنها » هكذا قال لينين ومعنى ذلك ان معونة الارز والتوت يجب ان تفشل فشلا ذريعا كذلك مشروع مد الطرق فى هذه البلاد .

وعلت الضوضاء المنبعثة من التسجيل ثم توقفت ، وفى صوت جهورى بريء ، صوت احد المواطنين انطلق معقبا فى غير تهكم : « نحن على يقين من اغتباطكم لسماعكم مبادىء الشيوعيين وخطط روسيا فى آنتخاتا من متحدث رسمى روسى كبير .. ونرجو ان تكونوا قد تحصنتم ضد الاكاذيب التى ينشرها الاعداء عن الشيوعية !

***

وبعد يوم من هذه الاذاعة البارعة تقابل الرجال التسعة فى الغابة ـ ولاول مرة لم يعبث « توكى » بفصن الشجرة . بل كان يضحك ملء شدقيه .. واخذوا يتندرون بما حدث .

وقال توكى باصرار ـ يجب ان نقوم بعمل نفس الشىء فى اقاليم بورما وما وراء بورما ايضا .. فى سارخان مثلا ، فقد بدأت المتاعب هناك ـ ان لغتهم تشبه لغتنا الى حد كبير .. وسنريهم كيف يحاربون العدو قبل ان يقوى عليهم ويغزوهم . .

والتفت توكى ونظر الى الاب فانيان ، ولم ينظر اليه ليستطلع رأيه أو يحظى بموافقته فقد قرر توكى وزملاؤه أن يقوموا بالعمل الكبير، بل كانت نظرته تحمل معنى الصداقة والمساواة .

وشعر الاب فانيان بدفقة من الفرح من السرور فقد اختفى الالم الذى

كان يقض مضجعه وكان فى هذه الآونة يحسب المسافة بينه وبين سارخان ويأمل الا يكون الطعام هناك مختلفا عن نظيره فى بورما ..

وقبل أن يغادر الاب فانيان بورما أضاف الى مذكراته هذه الفقرة :

« ان ما ينبغى أن نؤكد معرفته ، ان ماهو انسانى ، ومقبول ، وحق عند الناس هو ايضا جذاب لهم .. فشيطان الشيوعية قد وارى عن اعين الناس هذه الحقيقة البسيطة ، مما ادى الى الاضرار بهم .. فاذا استطاع الامريكيون أن يقوموا بالعمل الضرورى الصائب، فانهم ينهضون ايضا بعمل فعال .. »

الفصل الرابع

الـكل يحب ((جوينج))

ان أفضل مصدر تحدث عن رحلة الاب فانيان الى بورما كان « روث جيوتى ·· رئيسة تحرير » ستكيا ديلى هيرالد أعظم الصحف المستقلةفى جنوبى شرق آسيا ·· وكانت « روث » هى أول من ســـمع عن مغامرة فانيان وأمضت شهرا بأكمله فى شمالى بورما لتكتب قصته وتسـجل وقائعها ··

وكانت روث غير عادية ، فهى تجمع فى أصلها بين قارتين ، فشعرها الاشقر وملمسها الناعم يدلان على أصلها الانجليزى ، أما بقيـة ملامحها وهيئتها فتوحى بانتسابها الى آسيا ، وقد شبت وتعلمت فى أحضـــان أمها الكامبودية ·

وليس معنى هذا أنها لم تعرف الكثير عن الاوربيين أو الامريكيين : فشهرتها كمحررة آسيوية جعلتها تتصل بأجانب كثيرين وكانت فوق ذلك جذابة لم تتزوج بعد وسنها لا تزيد عن الثامنة والعشرين ··

وكانت روث تعرف امريكيين كثيرين وكانت مدينة « ستكيا » التى صـــدرت فيهـا جريدتها أحد المراكز الامريكية الاجنبية التى ازدحمت بالخبراء الامريكيين ومراســـلى الجرائد الامريكيـــة الكبرى والملحقين الثقافيين · وكثيرا ما كان يتصل بها الخبراء طلبا للمعونة أو المشورة ، لذلك كان طبيعيـا أن يدعوها مراســلو الجـرائد لزيارة امريكا دعوة رسمية ··

وفى عام ١٩٥٢ قبلت روث عرضا لزيارة الولايات المتحدة الامريكية لمدة ثلاثة شهور لدراسة الصحافة هناك ·· وجاء أول اتصال لها بأمريكا فى « هاواى » حيث استهواها جمالها وسـحرها بعد أن استطاعت أن تجوب جزرها وترى كل صـغيرة وكبيرة فيها . وحـدث أن احتجزت ساعات فى غرفة الهجرة والجمارك المخصصة للغرباء · ولم تكن الحجرة قذرة أو رديئة ، بل أن أحدا لم يهتم بهـا الاهتمام اللائق .. وقد وقف الرسميون تجاهها موقفا باردا أدنى الى الاهانة ..

وكانت روث ذات خبرة ممتازة كمحررة ، لذلك لم تضيع وقتها سدى أو تهمل أول ما يقع عليه بصرها من ملاحظات فكتبت تقول فى مذكراتها :

« قد لايصدقون قولى .. ولكن الامريكيين لديهم تسهيلات للزائرين أردا مما هى عليه فى الصين الشيوعية .. ففى كل مصنع أو قرية أو مركز رياضى ــ وفى أى مكان تذهب اليه ــ فى الصين ، مكان للضيافة معد أحسن اعداد .. وقد يكون هذا المكان خشنا الا انه أحسن ما يمكن تجهيزه للزوار .. وهذه هى الدعاية الفعالة الحقيقية .. »

وفى سان فرانسيسكو انتظرت روث حتى وصل مندوب وزارة الخارجية .. فاشترت أثناء مدة الانتظار بعض الجرائد الامريكية كالكرونيكل » و « الاكساميتو » وبدأت تقرأ .. وتصفحت الجريدتين بسرعة ولكنها لم تجد ما كانت تبحث عنه ، فبدت على وجهها مسحة من كآبة وعمدت الى مذكراتها وأخذت تكتب :

« اليوم فى ستكيا يجتمع سبعة رؤساء لدول آسيوية هامة .. وقد يكون لهذا الاجتماع اثره ونتائجه على العلاقات الاسيوية الامريكية ، ومع ذلك فلم تذكر الجريدتان الكبيرتان اللتان تصدران فى سان فرانسسكو خبرا عن الجبهة الاسيوية الجنوبية أو عن اجتماعها هذا الخطير .. وانى لاتساءل لماذا لاتذكر الجرائد الامريكية الاخبار الاسيوية ؟ ولاحظت أن ٧٠٪ من مساحة الجرائد تشغلها الاعلانات والمهازل .. ولكن يجب أن أقرا جرائد أكثر فى مدن متفرقة قبل أن أعمم الملاحظات .

أما عن المرأة الامريكية التى أراها هنا فى المطار فلاحظت أن كثيرات منهن يرتدين السراويل و .. »

واذا بصوت يناديها : مس جيوتى ؟

وكان الصوت لرجل مهذب نيف على الخمسين عاما وقف امامها ، وبعد أن رفع قبعته وانحنى انحناءة خفيفة قال :

« أنا جوزيف ريفرز من وزارة الخارجية . فمرحبا بك فى أمريكا .. لقد قرأت باهتمام بالغ مقالاتك عن الاب فانيان .

ــ شكرا يا مستر ريفرز .. انك لكريم جدا ..

ــ بالطبع يامس جيوتى فالاب فانيان كمواطن مدنى كان له مطلق الحرية فى القيام بأعمال جليلة ، ما كان يستطيع ان يقوم بها شخص يعمل لحساب حكومتنا ..

ــ بالطبع يا سيدى وهذا معناه أن أمريكا سوف تشجع رعاياها

المدنيين للقيام بمثل الاعمال الجليلة التى قام بها الاب فانيان ..

ونظر اليها المستر ريفرز بحدة وابتسمت له روث .. ولم يذكرا الاب فانيـــان بعد ذلك ..

وسألته روث ـ أريد نسخة من جريدة نيويورك تايمز ..

فاجابها ريفرز ـ بالطبع يسيدتى ..

ثم سار وإياها خلال مبنى المطار المزدحم وهو يقول :

« اقول يامس جيوتى .. لقد كنت فى ستيكا لمدة أيام قليلة من زمن قريب .. هل تعرفين جو بنج هناك ؟

وعندما هزت راسها نفيا ، تعجب لذلك المستر ريفرز تعجبا كبـيرا. ورد عليها قائلا .. أما لماذا يجب أن تعرفيه فلانه رئيس قلم الاستعلامات الامريكى فى ستكيا .. والكل يعرفه .. كتبت عنه جريدة لايف مقالا منذ أسابيع قليلة ..

فاجابته روث ـ اننا لانرى مجلة «لايف» كثيرا فى ستكيـا ، انهـا مستر ريفرز مجلة باهظة الثمن هناك ..

ـ ولكن لا بد أن تعرفى « جو بنج » .. أنه رجل فارع فطوله ستة أقدام ، بدين الهيئة ، ويرتدى صـديريا من نوع « التاترسال » وهو شخصية محبوبة جذابة ، يعرف الجميع ، وانى لاذكر مرة كان جالسـا فيهـا على مقهى مونتانى وكان يحيى كل انسان يعبر الطـريق أو يمر أمامه ..

فردت عليه رو ـ أنه يحيى كل من كان اوربيا .. أو فوقازيا أو من كان حسن المظهر ، مرتب الهندام أو من كانت ثقافته غربية ، فانا أعرف الشخص الآن .. انه يسوق سيارة حمراء كبيرة مفتوحة يتحرف بهـا دائما نحو الازقة والشوارع الجانبية .. وهو صاحب أعلى ضحكة غبية ينفر منها كل آسيوى يسمعها ..

ـ يا لله عليك يا مس روث ! ! ان جو العجوز صحفى خبير .. وهو الذى ينشر باستمرار برامج مساعداتنا على الجمهـــور ..

ـ انه يرسل صورة البرنامج بالبريد او يرسله الينا عن طريق السعاة .. ويقيم حفـــلة شهرية يغرقها بالاطعمة والمشروبات الامريكيـــة التى يحصل عليها بسعر الجملة من مخازن المأكولات والمشروبات ولم يحضر آسيوى واحد حفلاته هذه لمدة عامين .. ففى الحفلة الاولى اقتصر على الشراب ودعا عددا من البوذيين والمسلمين الذين لا يشربون غير عصـير الفواكه او الماء أو اللبـن ..

فرد عليها ريفرز وأفزعته اللهجة التى تحدث بها عن « جو ينج » وحيره فى الوقت نفسه كيف تكون مس جيوتى صديقة لامريكا وتنتقد جو ينج هذا الانتقاد المر ، رغم ان الكل يحبه .. فوزارة الخارجية تحبه .. ورجال الصحافة يحبونه .. لذلك اختاروه ليضع بروتوكول زيارة نيكسون .. فماذا قصدها وما الذى تهدف اليه من وراء هذه الاقوال عن « جو ينج » .

وقالت روث بطلاوة ونعومة ، وهى تدلف الى السيارة الفخمة فى طريقها الى سان فرانسسكو . هل تعرف اننى سمعت عن جو ينج من الاب فانيان ، فقد كتب له الاخير يطلب اليه ارسال بعض أقلام الحبر الجاف من المخازن الامريكية « بستكليا » . وأطلعنى الاب فانيان على رد جو الذى يقول « ان الاستفادة من المخازن الامريكية مقتصرة على موظفى الحكومة الامريكية وعائلاتهم فقط طبقا للتعليمات الحكومية » .

فقال ريفرز : « الحقيقة ان مثل هذه الامور يجب ان يكون لها نهاية .. والا ازدحمت الطلبات على مخازن الحكومة .. »

فقالت روث : « بالطبع اوافق على ما تقول .. ولكن الاب فانيان كان يرغب فى الحصول على هذه الاقلام لاستخدامها لاغراض خاصة — كهدايا للاهالى الذين قاموا بأعمال مجيدة باهرة فى توزيع الصحيفة .. ففى بادىء الامر كانت الجريدة سرية ثم أصبحت فيما بعد من أعظم الصحف الوطنية فى بورما .. » .

فقال ريفرز — نحن لانسمح للافراد باستعمال الادوات الحكومية من أجل الاغراض الخاصة ..

فقالت روث — أنا اوافق على قولك ..

وجلس المستر ريفرز بجوارها واخذ يشير الى الاماكن الهامة فى سان فرانسسكو ..

***

احتفلت صحافة سان فرانسسكو بروث بعد وصولها بليلتين فى حفلات طاب اليها فيها ان تلقى كلمة عن الامريكيين المبعوثين الى آسيا .. وابتدت الصحفية الاسيوية حديثها بالكلام عن كرم الضيافة الامريكية . والطعام الامريكى الفاخر ، ثم دخلت فى الموضوع بحيوية ونشاط ، وهى تقول :

« ان الامريكيين فى آسيا عموما لااثر لهم .. انهم فى نظرى كخط

ماجينو الفرنسى .. فهم يشعرون أنه اذا كان الاغنياء قوما محترمين مثلهم ، فهم يؤدون عملا جليلا . وانا أفهم ذلك فهما صحيحا ، ولكي اقرب ما اقول الى اذهانكم اقول انكم تنظرون الى الوجوه الاجنبية بقرابة وتسمعون لغات غريبة ثم تشعرون بالراحة والطمأنينة فى النوادى الامريكية أو نوادى الصحافة أو نوادى الضباط الامريكيين ..

أو فى اى مكان يتحدث الناس فيه باللغة الانجليزية ، او يرتدون الياقات أو اربطة الرقبة . فالاسيويون الذين يرتدون الياقات ويتكلمون الانجليزية طبقة خاصة . ويلاقى عدد كبير من الامريكيين صعوبات جمة فى مقابلة الطبقات الاخرى ، ونا آسفة لان اذكر لكم ذلك ، لان معظمكم لايحاول شيئا ولا يكلف نفسه عمل شىء حاسم .. قد استطيع أن اقف هكذا طول الليل لاقص عليكم قصصا عن أخطاء الامريكيين .. ولكن من الاجدر ان اقص عليكم قصة امريكى قام بعمل جليل .. « كان هذا الامريكى يدعى « بوب مايل » من مكتب الاستعلامات الامريكى .. وانا لاأقول ان رجال هذا المكتب جميعا عاملون . بل ابعد ما يكونون عن العمل الجيد ، ولكن بوب مايل كان رجلا مجتهدا مكافحا .. فقد عمل على رفع هيبة الامريكيين اكثر من أى فرد آخر ، بما فى ذلك السفير نفسه ..

ظل بوب خمسة اشهر فى « ستكيا » قبل ان يسمع عنه اى محرر اسيوى ، لان اول شىء يفعله الامريكى بمجرد وصوله الى مكتب الاستعلامات الامريكى ان يهرع الينا فاذا تحدثنا اليه بالانجليزية بدأ يرسم لنا خططا كبيرة لتنمية مواردنا من غير أن يعرف شيئا عن هذه البلاد .. فلما ضقنا ذرعا بتطفلهم وسماجتهم صدرت الأوامر الى المحررين بعدم استقبال امريكيين فى مكاتبهم ، واذا اقتحم امريكى مكتبى فانى اتظاهر بأننى لاأتكلم اللغة الانجليزية ..

ولكن بوب هذا كان مختلفا . . فقد قابلته هو وزوجته « دوروثى » فى حفلة قام بها بعض عمال المطابع تكريما لهما .. ان بوب لم يبدأ عمله بالسير فى ركب السفير أو الاندماج فى جوه ، بل قام بالتعرف الى اعمالنا لكى يلم الماما تاما بلغتنا وبلادنا .. وتصادق مع العمال والمحررين والمصورين والموزعين وعلم المصورين الوطنيين كيف يلتقطون الصور الفوتوغرافية ببراعة وحذق وعاونهم فى الحصول على المواد الكيمائية اللازمة لتحميض الافلام وغيرها ..

لقد فعل ذلك بوحى من شعوره الخالص وبدون أن يخبر احدا .. بدأ يتعلم لغتنا ، كما بدأت دوروثى زوجته تأخذ دروسا فى طهو طعامنا .. وأرسل ابناءه الى مدارسنا .. لقد كان متواضعا فى كل شىء .. وكان يبدى دائما روحا طيبة ويعطى اكثر مما ياخذ . .

« والان .. ليست هذه الامور من السهولة بمكان .. فانا اعرف الكفاية عن المستويات الغربية ، وأن أرسال طفل أمريكى الى مدرسة وطنية يحتاج الى شجاعة نادرة .. فالمدارس الآسيوية قذرة ، مزدحمة ، صاخبة ، واقل من مستوياتكم بكثير .. ولكن أبناء بوب مايل تغلبوا على الصعاب رغم أنهم أصيبوا بمرض جلدى ، وتورطوا فى عرك مرتين ولكنهم حصلوا على ثقافة محترمة ، ووقفوا على لون آخر من الحياة ..

« دعونى اقص عليكم قصة تهمكم كرجال صحافة .. منذ عام مضى انتشرت قصة فحواها أن جنديا امريكيا اغتصب فتاة فى معبد ، فلو نشرنا هذه القصة بالخطوط العريضة فى الصفحات الاولى من جرائدنا لقامت حرب دينية ضد الامريكيين فى بلادنا ..

واذا بمدير العلاقات العامة الامريكى فى ستكيا ، وهو رجل قد تعرفونه جيدا ، لم يتحرك من مكتبه ولم يعالج أبدا المشاكل الوطنية اى انه كان مشغولا لدرجة انه لم يطلع واشنطن على هذا الامر الخطير او الفعلة النكراء التى اقترفها جندى فى معبد دينى .. فاسمعوا مافعله بوب مايل .. لقد اتصل فى الحال بكبريات الصحف فى ستكيا ولم يهدد أحدا او ينكر جريمة الاغتصاب او يقول أن القصة قد تسىء العلاقات بل طلب أن يتحرى الامر بنفسه ..

« هذا هو العمل الجيد .. فقمنا بالتحريات اللازمة ، وكانت القصة كاذبة ملفقة . فقد ذهب أمريكى الى مكان للدعارة ورفض ان يدفع الاجر عندما غادر المكار .. فحدث شغب وضجيج وهذا شىء لايستحق ان نذكر عنه كلمة فى الجرائد السيارة ..

« ولم يتحدث بوب عن هذا الامر مطلقا او عن التحريات التى قمنا بها .. ففى بلادنا نعلن دائما عن الاعمال الجيدة بطريق التلفراف الغابى ـ أى بتزويد الاخبار عن طريق الطبول ـ ونخرج من هذا كله أن بوب مايل هو أحسن أمريكى فى بلادنا ..

« وانى لاجو ان يحذو الامريكيون الاخرون حذو بوب ، ولو فعلوا لما بقى الشيوعيون طويلا فى آسيا .. » .

الفصل الخامس

سرى وخاص

من السفير لويس سيرس « سرخان » .

الى : المستر ديكستر س . بيترسون ـ مكتب سارخان بوزارة الخارجية بواشنطن .

عزيزى ديكس . . .

اكتب اليك بصفة خاصة (على الآلة الكاتبة بنفسى) لاننى فى حاجة الى مساعدة واريدك أن تعرف جيدا الحالة هنا فى سارخان .. الحقيقة يا ديكس ان السارخانيين قوم ماكرون ، وفى بعض الاحيان خبثهم جميعا شيوعيين .. ولكن أقول لك الحقيقة فاننى لست متاكدا من ولاء بعض الامريكيين واخلاصهم هنا أيضا ..

واظن ان وزارة الخارجية قد قرأت كل الاكاذيب التى اعلنتها الجرائد عن سارخان .. فالقصص التى حاكها مندوبو صحيفة «التايمز» كلها مختلقة من اساسها .. فعلاقتى مع السارخانيين لايمكن ان تكون فى يوم من الايام احسن مما هى عليه الآن .. والمقال المرفق من جريدة « النجمة الشرقية » يثبت ذلك .. أما القصة التى ذكرتها الجريدة عن اعمالى كوزير المشاغب ، لجهلى بالظروف التى أحاطت بقضيته فهى جوفاء ، لاننى زرت كولفن مباشرة بعد ان تورط فى الازمة التى أثارها .. ورفق هذه الرسالة بعض قصاصات من الجرائد السارخانية التى ظهرت فى اليوم التالى للحادث .. فلكولفن هذا سند قوى أو ظهر قوى فى ويسكونسين ، وقد يثير بعض المتاعب فى المستقبل القريب عن طريق بعض رجال مجلس الشيوخ وأعضاء الكونجرس .. فما عليك الا ان تطلعهم على هذه القصاصات المرفقة .. ولدينا فى الوقت نفسه مشاغب آخر هنا هو الاب فانيان . ويجب معالجة هذا القسيس بطريقة خاصة لانى لا اريد ان اتورط مع الكاثوليكيين الرومانيين .. وهذا الفانيان قد وصل توا من بورما بعد أن قام بثورة صغيرة ، وهو يقيم الآن فى شمال سارخان ليدبر ثورة أخرى ، وقد بدأت الصحف المحلية تمطرنا بسيل من الهجوم والنقد العنيفين .. فاذا كان الكاردينال « سبلمان» فى

صفه فسأكون متسامحا معه ، اما اذا كان الآباء الكاثوليكيون ضده فسأعيده الى الولايات المتحدة الامريكية .

وبجانب هذين الامرين يا ديكس ، ورغم أكاذيب الجرائد ، فكل شيء هنا يكاد يكون متوازنا .. فالسياسيون السارخانيون يهددون بأنه اذا لم ننصفهم فسوف تتحول البلاد الى شيوعية متطرفة .. ولكن لا تصدق هذا القول ولو لدقيقة واحدة .. فأنا أقوم هنا بنشاط اجتماعى كبير ، فاقيم الحفلات والمآدب ، ولكنى لم اقابل حتى الآن مواطنا شيوعيا بعد.. ورغم أن السفير الروسى ضحك علينا قليلا وخدعنا فى مسألة الارز ، فقد قمت بتوزيع مائة ألف منشور ذكرت فيها أن الولايات المتحدة الامريكية هى التى قدمت الارز كمعونة للمواطنين .. والامور بصفة عامة تبدو على ما يرام ..

ولكن الشيء الذى اريده بصفة عاجلة هو تعيين بعض الاشخاص الذين استطيع أن أثق فيهم ويكون عندهم غيرة على العمل .. لاننى تعبت ومرضت من نهوضى وحدى بكل العبء .. ونحن فى حاجة الى مكتب جيد للعلاقات العامة .. ان هذه الفتاة التى تدعى ماجى جونسون لاباس بها ولكنها تميل الى الصحافة الاهلية ، وكثيرا ما توافقها .. وتداب على احضار رجال الصحافة — وعلى الاخص الامريكيين — لمقابلتى .. وهؤلاء يسببون لى متاعب ومشاكل على مسائل لاناقة لهم فيها ولا جمل ، هى من اختصاص مس جونسون وحدها .. ديكس ، أتذكر جو بنج ؟ لقد أثر على هذا الرجل تأثيرا كبيرا عندما ظهر أمام لجنة الشيوخ .. وهو شاب حازم نابه .. فابحث فى امر استدعائه الى هذا المكان .. لقد كان يقيم فى « ستكيا » بعض الوقت ولابد انه على علم بالمسألة الاسيوية . وارسل كذلك بعض السكرتيرات الجميلات ... فسوف يصبحن دعاية عظيمة لأمريكا .. وسوف ينعشن الروح المعنوية ويرفعنها .

تستطيع أن تقرأ ما بين السطور يا ديكس ، فلست اريد أن اكون موضع سخرية او نقد من بعض الهيئات العمالية التى لا تعرف اى الكفتين اكثر رجحانا !! .. أريد موظفين نفخر بهم ونعتمد عليهم.. فعليك بتعيين شخص فى ادارة المستخدمين ليختار بعض المتطوعين للعمل معنا .. وشكرا .. « لو »

الفصل السادس

فرص العمل فى الخارج

« فرص العمل فى الخارج »

هذا هو العنوان الذى ظهر بالخط العريض على بطاقات أنيقة طبع منها أكثر من ١٥٠٠ بطاقة وعلقت فى دواوين الحكومة بواشنطون وقاعات الجامعات ومكاتب الخدمة المدنيـــة والفنادق وبيوت الشابات ولا سيما العاملات فى الخدمة الحكومية .. واوضحت البطاقة أن هناك عجزا فى الموظفين ذوى الخبرة للعمل فى الخارج . وان الذى يعمل او يعين فيما وراء البحار سيكون أجره كبيرا وتقدمه ملحوظا .. ويعد هـذا التطوع وظيفة منه ، وفى نفس الوقت فرصة نادرة لرؤية معالم الدنيا .. وذكرت البطاقة أيضا أن اجتماعا سوف يعقـد فى الجامعة الامـريكية يخطب فيه مجموعة من الضباط السابقين فى الخدمة الخارجية والذين عاشـــوا وعملوا خارج بلادهم ..

وسيكون هناك أيضا وقت للمناظرة والقاء الاسئلة .

كانت قاعة الاجتماعات مزدحمة عنـد ما بدأ الاجتماع .. وكان المتحدث الرسمى هو المستر « هاملتون برديج آيتون » الذى خـدم كقنصل فى سبعة بلاد مختلفة .. وكان ، كأحد اخوان بروكس ، يبدو وجيها متحدثا لبقا ، لا يتخلل حديثه نكات وقحة ، ويعد مندوبا حقيقيا للولايات المتحدة الامريكية . وكان يجلس معه وراء المنضدة رجل بدين جميل المنظر يدعى «جيمس ف. بينج » وكان يبـدو كرحالة اعتـاد الاسفار .. وخبيرا فى شئون الجرائد ..

وتحدث المستر هاملتون آيتون أولا بكل تؤدة ومهـــارة .. وكان حديثه صـــادقا وصحيحا وشـــعر سامعوه أنه كان بحق سفيرا لأمة كبيرة ، فقد عرف كيف يعالج المشكلات ويتغلب على المؤامرات الاجنبية ، لقد قال :

« ان كل انسان منا يود ان يظل فى وطنـه يعالج اموره الخاصة ، ويقوى صداقته وينميها مع الآخرين ويلتفت لشئون أسرته .. ولـكن

فى الاوقات العسرة الدقيقة عندما تتحدى القوى الاخرى بلادنا فيجب أن نتذكر ان علينا واجبات كمواطنين ، ليس فقط كمواطنين ، بل كأعضاء فى المجتمع العالمى .. ففى كل البلاد تقاومنا قوى شريرة وتحاك المؤامرات والدسائس ضدنا .. لذلك فنحن فى حاجة الى ارسال أمهر مواطنينا الى الخارج للقضاء على هذه المؤامرات ..

وفكرت احدى الجالسات وكانت تدعى مارى ماكنتوش حين قالت لنفسها : « انه ليعجبنى عدم تسمية هؤلاء الذين يحيكون المؤامرات بالشيوعين .. » ..

وتحدث المستر آيتون لمدة ربع ساعة ، خلف أثناءها فى نفوس محدثيه اثرا .. حتى أن مارى شعرت وكأن الحديث كان موجها لها بالذات .. وما أن انتهى آيتون من حديثه حتى قال :

« والآن أريد أن أقدم لكم المستر جو بنج .. » .

والمستر بنج ضابط فى المخابرات وخبير فى المسائل الآسيوية ، وقد خدم بلاده سنوات عديدة فى ستكيا خدمة ممتازة رفيعة ، وقد طالب بالعودة الى هذه البلاد وربما يعود اليها فى المستقبل القريب : هذا رجل خبير فى مواجهة الوطنيين وجها لوجه ، فاستمعوا اليه ..

وجلس مستر آيتون ونهض الرجل البدين ولف حول المائدة ثم جلس على حافتها وهدأ الحاضرون ..

« اسمى بنج .. وأنا رجل مخابرات رسمى ، ويمكنكم أن تنادونى جو .. وضحك المستمعون وناداه بعضهم من آخر القاعة بأعلى أصواتهم .. ها يا جو !!

فرفع جو بنج يديه فى الهواء مرحبا بمن نادوه « جو » واستمر يقول :

« اننى اعمل تحت رئاسة رجل عظيم كآيتون ودعونى اقولها لكم انه لشرف عظيم .. ان المسائل الخارجية أ الاجنبية عمل كبير هام .. وكلكم تعرفون ذلك .. ولعلى استطيع الآن ان أقول لكم بعض أشياء لا تعرفونها عن العمل فى الخارج من أجل العم سام .. وأنا أعلم أنكم مشغوفون بمعرفة طرق المعيشة والعمل فى الخارج والظروف التى تحيط بهذه الامور .. » .

وظل جو يشرح هذه المسائل شرح خبير مجرب وان السفر الى البلاد البعيدة يكون دائما فى الدرجة الاولى ، ثم غمز بعينه فضج الحاضرون

بالضحك مرة أخرى ، وكانت مارى ماكنتوش تنصت باهتمام بالغ الى ما يقوله جو ..

« والآن أعرف ما يدور فى أذهانكم .. أو فى أذهان بعضكم ، ان حياتكم الاجتماعية هناك تتسم عادة بطابع الاهمية .. فلنتحدث عنها قليلا .. انكم سوف تعملون بين أجانب ولا نتوقع منكم ان تحبوهم لانكم تعملون معهم جنبا الى جنب ..

ولا يهمنى الى اى مكان تذهبون اليه لتعملوا من اجل العم سام .. ولكنكم فى كل مكان ستعملون مع امريكيين مهذبين واغلبهم غير متزوجين .. ولن تكونوا وحيدين اذا كنتم غير متزوجين »

وبدت على وجه مستر آبتون ابتسامة هادئة لدعابة جو وسرعة بديهته ، ومعالجته للامور واغرائه السامعين على الانخراط فى الخدمة خارج البلاد .. وكان يعلم علم اليقين مقدرة جو ..

واستمر جو يوجه حديثه الى الحاضرين لمدة عشرين دقيقة وكان سريعا فى ضرب الامثال والرد على الاسئلة بمهارة وحذق ، وكان على علم بالسلع البضائع فى كل مكان كثمن حذاء جلد التمساح فى البرازيل وزجاجة الويسكى فى اليابان وكثرة الخدم فى فيتنام والمعاش الذى سوف يتقاضاه الانسان بعد خدمة عشرين سنة بأمانة واخلاص .. وتحدث كثيرا عن السلع التى يشتريها الامريكيون بسعر التكلفة من المخازن الحكومية وعن النظام الامريكى للامريكيين خارج البلاد . .

« تستطيعون شراء هذه الماكولات فى اسيا تماما كما فى « بيوريا » حتى فى سايجون يحتفظون بالخبز والكعك الامريكى بل وكل شىء .. فنحن نقدم لمواطنينا خدمة جليلة ، وتاكدوا انكم اذا عشتم خارج البلاد سوف تعيشون على مستويات امريكية عالية »

همست مارى ماكينتوش لصديقاتها الثلاث .. ان هذا يبدو جميلا .
وهزت الفتيات الثلاث رءوسهن موافقات . .

وكانت مارى تفكر فى المسكن الذى تعيش فيه مع صديقاتها .. ان لكل منهما تنامان على اريكة فى احدى الحجرتين وتستيقظان مبكرا لتحويل الاريكة الى منضدة ليتناولا عليها طعام الفطور .. وفى كل ليلة جمعة كن يرشفن بعض جرعات من زجاجة الويسكى الوحيدة فى غرفتهن كنوع من الترفيه او التسلية .

وانتهى جو بنج من حديثه ثم اعلن انه او مستر آبتون على استعداد للرد على اسئلة الجمهور ، ولم يسأل انسان مستر آبتون اى سؤال

بل وجهت الاسئلة كلها الى جو الذى ظل يتحدث لمدة نصف ساعة اخرى .

وسالته احدى المستمعات ـ ولكن ما الوسيلة لدراسة اللغات الاجنبية ؟.. لاننى فهمت انه يجب ان تدرس لغة البلد الاجنبى قبل السفر ..

فاجاب جو : والان لحظة واحدة يا انستى .. اظن انك مخطئة . . فالعم سام ليس مجنونا .. كم تظنين عدد الذين يتكلمون الكمبودية او اليابانية او حتى الالمانية ؟ ليسوا كثيرين .. فانا لاتكلم الفرنسية جيدا ولكنى كنت اتصرف تصرفا معقولا فى البلاد التى اقمت فيها ..الحقيقة اننا لانتوقع منك ان تتكلمى لغة البلد الذى ستسافرين اليه .. فالتراجمة هناك بالعشرات .. ومن الافضل ان تعلمى الاسيويين كيف يتكلمون الانجليزية لان هذا يساعدهم كثيرا كما ان الاجانب الذين يعملون معنا فى هذه البلاد يتكلمون الانجليزية بطلاقة واجادة ..

وسالت احدى المستمعات : سمعنا ان كل شىء مرتفع الثمن فى الخارج فهل نستطيع توفير بعض المال ؟

وضحك جو بنج ملء شدقيه ورد قائلا :

« انظرى ، ستقوم الدولة بدفع تكاليف اجر المسكن الذى سوف تعيشين فيه ، وتتكفلين انت بالطعام والملبس والخمور حتى انك تستطيعين شراء عائلة من الخدم باربعين دولارا فى الشهر .. »

وانتهى الاجتماع وسجل ستة وسبعون شخصا اسماءهم من بينهم مارى ماكنتوش وهومر آتكنسون ، وهو مهندس متقاعد ، وصحفى يدعى كوهلر .. ورفض طلب الصحفى لانه كتب مرة عدة مقالات ينقد فيها الحكومة .. ولكن جو بنج كان مهتما بهؤلاء الثلاثة ايما اهتمام لانهم ابدوا رغبة اكيدة فى السفر الى اسيا حتى ان اثنين منهم حددوا بلد «سارخان» بالذات .

وبعد اسبوع من تاريخ هذا الاجتماع قال آبتون :

« اظن ان هناك خطأ .. ان هناك نقط ضعف فى مكتب المتطوعين فكل متطوع سوف يحصل على مرتب كبير من الحكومة اكثر مما يحصل عليه الان فى وظيفته الحالية ماعدا اتكنسون المهندس ، وهذا مما يدعونى الى الاعتقاد بان هؤلاء المتطوعين لايصلحون بالمرة . .

ـ ولكن مارايك فى هذا المهندس العجوز ؟. .

ـ اننى اشك فى امره .. لانه ذكر ان دخله فى العام الواحد من مجموع استثماراته يربو على مائة وخمسين الف دولار .

الفصل السابع

الفتاة التى تطوعت للخدمة فيما وراء البحار

كانت مارى ماكنتوش فى الثامنة والعشرين .. وكانت عاهـــرا .. وكانت تعرف ذلك جيدا .. وكانت حياتها كلها دعارة .. وكانت تعرف ذلك جيـــدا وكانت تبحث عن زوج .. وكانت تســعى لذلك أيضا .. وكان الامل الوحيـــد الذى كانت تصبو اليه هـــو التحاقها بعمل فى الخـــارج .

ورغم أن مارى كانت تعمل تحت مباشرة رؤساء مسؤلين فقد كانت حياتها معتمة .. وكانت تغادر مسكنها كل يوم فى تمام الساعة السادسة والنصف صباحا لتحصل على مكان فى الاتوبيس ، ولكى تتناول طعامها فى المقهى الحكومى . وكانت تظل بمكتبها حتى الخامسة والنصف مساء لتناول طعام العشاء فى نفس المقهى الرخيص

وبهذا النظام الرتيب كانت تتحاشى زحمة الاتوبيس وتتناول طعامها برخص الاسعار ..

وكانت ليالى مارى واحـدة لا تتغير . فبعـد ان تقوم بنصيبها فى تنظيف حجرتها كانت تجلس أمام التلفزيون مع رفيقاتها الثلاث ..

وذات يوم استلمت مارى خطابا بالبريد ينبؤ ها بان طلبها المقدم للخدمة خارج البلاد قد حاز القبول ، وسوف ترحل الى سارخان ، وبعد ثلاثة شهور وصلت مارى الى مطار « هايد هو »

وبعد شهر واحد كتبت الى رفيقاتها الثلاث تقول :

« عزيزاتى مارى وجين ولويس ..

كانت الرحلة الى « هايد هو » ممتعة حقا .. لاول مرة كنت ضيفة على الدرجة الاولى الفاخرة ذات الخدمة الممتازة . « اتذكرون يوم أن سافرنا الى شيكاغو بالدرجة السياحية ووضعنا غداءنا فى حقائبنـــا اليدوية .. وكيف وقفنا فى خط طويل ؟ »

الواقع اننى ارتجف عندما خرجت من الطائرة فى هايدهو « عاصمة سارخان » فقد كان كل شىء جديدا بالنسبة لى ، ولم اكن اعرف مـــاذا ستطرنى .. والان يابنات . اسمعن الى جيدا .. لقد كانت بالمطـــار سيارة فخمة يسوقها سائق رسمى تنتظرنى وكذلك هيئة استقبال كاملة .. ولم أر الجمارك أو أمر خلالها .. وعندما سالت عن حقائبى

أجاب مستر برستون « الرجل الذى جاء لمقابلتى » بقوله .. لاعليك ياسيدتى فان تونكى مسئول عنها .. وتونكى هذا رجل سارخانى يعمل فى السفارة هنـــا ..

قابلت فتاتين يعملن كسكرتيرتين أيضا ، وسوف اعيش معهمـــا اذا اردت ذلك وانا اعيش معهمـــا الان .

وسترون صورة منزلنا الفاخر المرفقة فلكل منا فراشه الوثيرالخاص وهناك عدة اسرة اخرى للزائرين ، وبالمنزل قاعة للطعام وأخرى للجلوس وجناح للخـــدم .

والخدم اجسامهم قوية !!. وعندنا ثلاثة منهم يقومون بخدمتنا .. انها عائلة باكملها الاب والام وفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها .. يقومون بطهو الطعام وتنظيف البيت والفسيل الخ .. انهم يعاملوننا معاملة نظيفة وعندما يوقظوننى فى الصباح يحضرون عصير البرتقال والشاى .. ان الحياة هنا حقيقية لاجدال فى ذلك ..

والامريكيون هنا متحابون .. وهم يكثرون من الحفلات فكل ليلة حفلة صاخبة وهذا امر سهل ، وكل ما على اذا اردت اقامة حفلة مـن الحفلات أن انادى خادمتى « اهيبون » واسالها اذا كانت تســتطيع استقبال عشرة ضيوف يوم الثلاثاء سيحضرون لتناول طعام العشاء فترد على الخادمة ، نعم ياسيدتى .. وهذا هو كل شىء .. وتتم الحفلةوكاننا فى هوليـــود .

ان المشروبات الروحية فى المخازن الحكومية رخيصة جدا.. من غير ضريبة ، فجميع انواع الويسكى والخمر ، اقل من ثمنها فى بلادنا بدولارين .. ولنا فوق ذلك امتيازات اخرى منها الحصول على الاشياء الثمينة بأزهد الاسعار من المخازن نفســـها ..

يوجد فى سارخان حوالى الف امريكى ونحن نتكتل جميعا . ومعنى هذا اننا كفتيات يطلب الينا اداء اعمال كثيرة .. فقد حضرت حفـلات السفير عدة مرات ، وكذلك حفلات المستشارين العسكريين والبعثـات الاقتصادية .

أظن أن الوقت قد حان للذهاب الى المـكتب « لاننى أرى سـيارتى تنتظرنى فى الخارج .. ساذهب الى المكتب مبكرة اليوم لاتناول طعـام الغداء فى ساعة كاملة لاننى على ميعاد مع «حائكة الملابس »

ان أجمل شىء لوجودى فى هذا المكان هو من اجل ادخـــارى بعض المال .. فالمسكن بالمجان .. ومرتبى الاساسى ٢٤٠٠ دولار فى العـــام وفوق ذلك احصل على ٦٨٠ دولارا كبدل اغتراب ، وكما ترين ان وظيفتى فى نظر وزارة الخارجية وظيفة هامة صـــعبة .

مارى

الفصل الثامن

السفير والصحافة العاملة

مضى عام على وجود السفير « سيرس » فى هايدهو . وكان الوقت فى منتصف فصل الامطار الموسمية ، حيث كانت تهطل ليل نهار من غير توقف .. ولم يكن يجرؤ على الخروج فى هذا الجو المكفهر المضطرب غير الفلاحين بقبعاتهم الخوصية الكبيرة وهم يخوضون الوحل .. وكانت رائحة الرطوبة تغمر الجو حتى ان حجرة السفير المكيفة لم تكن جافة تمام الجفاف ..

وفى فصل الامطار كان الاجانب الذين يرتدون الملابس الغربية يشكون باستمرار من الالتهابات الجلدية ونمو بعض الطفيليات على اجسامهم البضة من احتكاك الصوف بابدانهم .. وفى هذا الفصل بالذات وقع حادث فى القاعدة الجوية الملكية فى « سارخان »

كانت الولايات المتحدة الامريكية قد اشترت الف فدان فى ضواحى هايدهو منذ خمسين سنة مضت . ولم يعرف او يتذكر انسان ماذا كانت الخطط الموضوعة عند عملية الشراء . وظلت الارض بورا منذ عام ١٩٤٧ . واثناء فصل الامطار طلب السلاح الجوى لسارخان استعمال هذه الممتلكات والمساحات الواسعة كمنطقة للتدريب ، وكانت الارض مرتفعة وخشنة ، ولكن يمكن استخدامها طول العام .. واعطى التصريح اللازم وقامت الخزانة الملكية فى سارخان بصرف الملايين لاستصلاح الارض وتمهيدها .. وكان من الطبيعى ان تنشأ الضواحى حولها ، ويختار الامريكيون مساكنهم فى اجمل بقعة بسارخان . .

وسرعان الحادثة تذاع فى الناس عندما نشرت احدى الجرائد المعادية للشيوعية خبرا فحواه ان السلاح الجوى الملكى فى سارخان سوف يطرد من الممتلكات الامريكية لبيعها .. وفى صباح اليوم التالى لنشر هذا الخبر قامت الجرائد الاخرى فى سارخان بالتعليق على هذا النبأ الخطير .. ونقلته فى الحال وكالات الانباء « كبان آسيا برس .. ويونيتد برس .. واسوشييتد برس » ووكالات الانباء العالمية .. وكذلك وكالات رويتر وبرس فرانس .

وتعمدت الجريدة المعادية ان تذكر وتعلق على القصة فى صفحاتها الاولى يوما بعد يوم وذكرت « ان الخبر صحيح لان مسئولا واحدا فى السفارة الامريكية لم ينكره .. »

واتصل محرر الصحيفة الانجليزية ، وكان امريكيا بمكتب الاستعلامات الامريكى وقال : اظن أن هذه قصة خيالية .. قصة كاذبة تسىء اساءة بالغة الى الولايات المتحدة الامريكية . وساتصل بعد الظهر بالاربعة الكبار من رؤساء تحرير الصحف فى سارخان واحضر واياهم لرؤية السفير .. وساساله سؤالا مفتوحا عن الممتلكات الامريكية التى يشغلها السلاح الجوى للتدريبات العسكرية .. وفى اللحظة التى يقول فيها ان اخبر ملفق فسوف تموت القصة فى الحال ..وتفقد الصحافة الشيوعية كثيرا من ماء وجهها .. وميعادنا اذن فى الثانية بعد الظهر ..

وكان جو بنج ، ضابط العلاقات العامة الجديد ، فى رحلة ثقافية الى هونج كونج وكان مساعده الملحق الصحفى يقوم بمهام منصبه نيابة عنه وعندما اتصل الاحير بالسفير سيرس واخبره ان رجال الصحافة سيحضرون بعد الظهر ليستطلعوه الامر احمر وجهه وجحظت عيناه وهتف يقول :

ـ لا .. بحق السماء .. انك لن تزج بى فى مشكلة اخرى ..اترى هذا ! .. انه خطاب من الرئيس يقول فيه بأن محكمة فيدرالية ستفتح ابوابها خلال اربعة شهور ويسره ان أقوم برئاستها .. وسافعل .. ولا أريد ان ادخل فى مشاكل من وقت لاخر .. قل لجو بنج ان يقوم بالمهمة .

ـ انه فى هونج كونج ياسيدى ! .

ـ اذن فقم انت بالمهمة ..

ـ انهم يريدون رؤيتك انت ياسيدى .. وحاولت ان أؤجل اجتماعهم

وجلس السفير فى مقعده وقد بدت فى عينيه نظرة ماكرة وهو يقول :

ـ حسنا .. دعهم يحضرون .. وساكون مستعدا لهم فى تمام الساعة الثانية ..

وفى تمام الساعة الثانية دف المحررون الخمسة الى غرفة السفير ..

ـ اجلسوا ياسادتى .. ما الذى استطيع ان افعله لكم ؟

فقال المحرر الامريكى:سيدى السفير .. هناك قصة تقول ان الولايات المتحدة فى سبيل طرد السلاح الجوى من الارض المؤجرة له من الولايات المتحدة . وهذا معناه ان ملايين الدولارات التى صرفت على المبانى ستذهب أدراج الرياح .. وأن المبانى سوف تسلم الى خبراء امريكيين ليهما ..

فرد السفير ـ نعم ياسادتى .. لقد قرات القصة ..

حسنا ياسيدى ، اصحيحة هى أم ملفقة ؟

وتردد السفير لحظة ، ثم وضع حافة القلم فى اذنه ، وداعب شعر رأسه الابيض بأنامله ، ثم نظر الى سقف الحجرة وقال :

ـ سادتى .. ليس لدى ما اقوله ..

ونظر المحررون الاسيويون الاربعة بعضهم الى بعض فى غرابة وشكروا السفير وغادروا المكان . وتخلف المحرر الامريكى ، حتى اذا ما تاكد من مقادرة زملائه للسفارة صرخ باعلى صوته فى وجه السفير : بحق السماء ليس لديك ما تقوله .. كانك تقول ان الموضوع صحيح .. .. الصحيح .. ان القصة ستنشر فى جميع انحاء العالم .. وانت تعلم ان قصة طرد السلاح الجوى كاذبة من أساسها ..

فرد عليه السفير ـ قل لى الحقيقة يابنى .. فانا لا اعرف اصحيحة ام كاذبة .

ـ اذن فابرق الى واشنطن واسالهم اذا كانت صحيحة ..

وضغط السفير على زر امامه وبعد لحظة دخل عليه رئيس البعثة

ـ نعم ياسيدى .. ؟

فقاله السفير .. اسمع ياشارلى .. ان سمث هنا ولديه قصة خطيرة .. فعليك به ..

* * *

وفى اليوم الثالث عشر من شهر فبراير وصلت البرقية التالية الى السفارة الامريكية بسارخان :

« شخصى للسفير من ديكستر بيترسون ..

يسرنى ان احيطك علما بان تعيينك فى السلك القضائى قد وافق

عليه السيد الرئيس وسينفذ فى الحال عند عودتك . اعتقد ان الذى سيحل محلك هو جلبرت ماك هوايت . تهانى الخالصة ..»

***

وما ان تم تعيين لاكى لو ، حتى فوجىء بمغادرته لسارخان وان احس فى قرارة نفسه بحنو غريب نحو البلد الذى عين فيه سفيرا .

على ان هذا الشعور لم يكن جارفا ، لانه كاد ان ينسى المسائل الديبلوماسية العملية الاخرى ، لذلك قام بتنفيذ ثلاثة أمور قبل ان يقيم الحفل الكبير الزاخر بالمشروبات ، وكان أول حفل من نوعه فى تاريخ هايدهو » .

لقد رفض ان يحمى الاب فانيان لانه « تعمد ان يشترك فى المشكلات الداخلية لقوة اخرى .. »

ثم اوصى الحكومة السارخانية الا تمنح جون كولفن تاشيرة دخول الى البلاد عندما حاول العودة اليها بعد شفائه .. وفعل ذلك بمكالمة تليفونية لانه كان يكره ان تصطبغ هذه الامور بصبغة رسمية ..

ثم كتب تقريرا مفصلا الى وزارة الخارجية يشرح فيه الاعمال الجليلة التى قام بها فى سارخان اثناء اقامته بها وكان مما ذكره :

« هناك كثيرون يبالغون فيما يفعلون حتى لتبدو اعمالهم السياسية كضرب من الخيال .. ولكنى اقول ان سارخان وانا اغادرها الان اصبحت فى جانب أمريكا عنها فى أى وقت مضى ..!

الفصل التاسع

الكل له أذان

كان فخامة « جلبرت ماك هوايت » السفير الجديد فى سارخان الرجل المناسب ، ففى عامه الرابع والاربعين لم يزد وزنه عما كان عليه وقت تخرجه فى جامعة برنستون عام ١٩٣٤ . كان شعر راسه احمر وجسمه قوى العضلات ، يلعب « الاسكواش » ثلاث مرات فى الاسبوع سواء أكان ذلك فى أمريكا أو انجلترا ، أما فى بعض البلاد الاخرى فكان يلعب التنس ويدخن نوعا خاصا من سيجار هافانا ، ويحتسى الخمر ولكن بنظام وفى غير اسراف ، وقد تضطره الظروف الى ان يجرع كميات كبيرة من الخمر ، من غير ان يثقل لسانه او يفقد توازنه ..

وكان ماك هوايت من اول يوم دخل فيه وزارة الخارجية يجيد عمله كدبلوماسى او كرجل مسئول فى خدمة وزارة الخارجية . ولم يكن فى حاجة الى اكتساب خبرة او تدريب خاص ، لانه كان منذ اللحظة الاولى رجلا ممتازا قديرا ، وكان كذلك خطيبا مفوها وشجاعا من الطراز النادر ، واديبا واسع الخيال ..

وفى اثناء اثارة موضوع مكارثى استطاع بلباقته وكياسته ان يدير مكتبه بنعومة ويتغلب على الصعاب التى واجهته .. وفى عام ١٩٢٥ عين كقنصل عام فى اربع بلاد كبيرة ، ثم كنائب لرئيس بعثات خاصة الى سلاسلتين ، وكان رؤساؤه يعتبرونه من نجوم المستقبل .

وفى عام ١٩٥٤ عين فخامة « جلبرت ماك هوايت » سفيرا فى سارخان .. وقد اغتبط لهذا التعيين لانه كان على يقين من ان حكومة سارخان جديدة تنقصها الخبرة وانها سريعة الاهتزاز ، وان الثمانية عشر مليونا من السارخانيين مضطربون كريشة فى مهب الريح .. وكان يعلم ايضا ان الشيوعيين فى سارخان أقوياء منظمون ، ولم يخطر له على بال ان الشيوعيين يدبرون انقلابا ضد الحكومة هناك ..

وكانت معلوماته عن الماركسية واللينينية وعن تيتو وماو كبيرة جدا

لذلك كان يعد خبيرا فى النظرية السوفيتية وطرق تطبيقها كذلك ..

واعد السفير ماك هوايت العدة للسفر الى مقر عمله الجديد بكل حماسة بعد ان تعلم اللغة السارخانية فى خمسة عشر اسبوعا من العمل المتواصل المرهق كما قرأ كل كتاب وقع تحت بصره عن تاريخ سارخان وحياتها السياسية .. وتحدث الى كل من زار سارخان من العلماء والسياسيين ورجال الاعمال والتجار ، كما قرأ كل التقارير التى كتبها سلفه السفير سيرس

وتقع مدينة « هايدهو » فوق ربوة عالية تواجه الباسيفيكى وتطل عليه ، ورغم ان الغابة المجاورة تضغط على المبانى وتلتف حولها باشجارها الخضراء الزاهية ، فقد كان كل مبنى من هذه المبانى جميل المنظر رائع البناء .. ولم يرتفع السارخانيون ببيوتهم الى عدة طبقات ، بل كانت المبانى العامة والخاصة مبنية من الصخور البركانية الصفراء التى غطتها مياه الامطار بطبقة خضراء من الطحالب لذلك كانت المدينة تبدو من بعيد وكانها تحت سطح البحر ..

وكان مناخ هايدهو حارا قائظا ، ولكن هذا الطقس الحار لم يضايق السفير او زوجته « مولى » لانهما كانا يتوقعان او يعرفان مناخ المناطق الاستوائية . فلم يؤثر ذلك عليهما او على اولادهما فى قليل او كثير .. فما ان أطل السفير من نافذة السفارة التى تطل من فوق الهضبة على زرقة مياه المحيط المنبسطة أمامه حتى أبدى عجبه من اندماجه الكلى فى مهنته الى هذا الحد .. فلم يشعر بحرارة الجو الذى يعيش فيه رغم انقضاء ستة اشهر على حضوره الى سارخان ، وخلال هذه الشهور الستة استطاع السفير الداهية ان يرسم الخطوط الرئيسيةفى خطته الجهنمية لمنازلة الشيوعيين بالصبر والجلد والكياسة والدهاء واستخدام الخيال كذلك واستطلاع آراء القواد الوطنيين فلا بد انيكتب النجاح لخطته اخر الامر لثقته فى نفسه وسعة اطلاعه ومعرفته ببواطن الامور ..

ووضعت الخطة طى الكتمان وأحيطت بالسرية التامة .. ولم يكن فى السفارة غير ثلاثة اشخاص كانوا على علم بما سوف يحدث قريبا .. ولكى يضمن السفير عدم تسرب الاخبار عقد اجتماعاته السرية فى مسكنه الخاص .

وكان « ماك هوايت » متحمسا للمعركة حماسة منقطعة النظير .. فلم يسىء تقدير قوة الشيوعيين فى سارخان ولم يسىء تقدير قوته وامكانياته كذلك .. الحق يقال ان السفير ماك هوايت كان يعلق على هذه المعركة آماله واحلامه فيما يختص بمستقبله فى السلك السياسى.

وكان ينظر الى هذه المعركة كحد فاصل لابد ان يصهر فيها كل امكانياته ومقدرته ودهائه وعبقريته وخبرته الطويلة لكى يحقق نصرا يرضى كبرياءه وشخصيته الفذة النادرة ..

وفى هذا المساء بالذات قرر السفير ان يثبت حجرا اخر فى حائط الاستراتيجية الذى اقامه ضد الشيوعيين .. كان ينتظر فخامة لى بانج .. وكان مستر لى هذا ممثل الزعيم شيانج كاى ـ شيك . وكان السفير ماك هوايت قد دعا «لى» الى سرخان لمقابلة الزعماء الصينيين الوطنيين .. فالمواطنون الصينيون قد عاشوا فى سارخان خمسة اجيال وكانوا يعتبرون انفسهم كالسارخانيين الاصليين بل اشد منهم وطنية وتعصبا للبلاد التى عاشوا فيها هذا الزمن الطويل ، كما كانوا يعدون انفسهم مواطنين صينيين . اى انهم كانوا يشعرون نحو الصين نفس شعورهم نحو سارخان

وكان لى ، وماك هوايت ، صديقين حميمين . وكانا من قبل من رجال الاعمال البارزين ، ورغم انهما تركا التجارة والاعمال الحرة منذ عهد طويل الا انهما كانا كذلك جنديين وأسقفين . وكان كل منهما يفهم الآخر تماما . وكان ماك هوايث على يقين من أن «لى» سوف يزج بالصينيين الوطنيين الى المعركة ضد الشيوعيين من المواطنين . وعندما تأكد من ذلك بدأ «ماك هوايت» تحركاته .

عندما كان السفير يطل من وراء زجاج نافذة السفارة كان يعلم ان «دونالد وروجر» يرتبان الحجرة المجاورة وكانت أصوات جلبتهما تريحه وتدخل السرور على نفسه ، وكان كل من دونالد وروجر صينيين عجوزين لا يعرفان من الانجليزية غير أسمائهما التى يطلقها عليهما الموظفون الامريكيون فى السفارة واسماء بعض أشياء قليلة فى المنزل .. وكان الامريكيون يثقون فيهما ثقة تامة منذ تعيين السفير الاول لسارخان عام ١٩٣٩ . وكانا يخدمان بمهارة ومقدرة وبراعة انطلت على السفير ماك هوايت ، فلم يشك فيهما مطلقا .. وكثيرا ما كانا يعاونان زوجة السفير «مولى» فى تربية أولادها .. وكانا فوق ذلك طاهيين ممتازين وخادمين عظيمين ، وكانا ، بطريقة ما ، رمزين للرجل الآسيوى المستقيم يمثلان كل المستويات للشرف والامانة كما تعلماها من فيلسوف الصين الكبير كنفوشيوس .

واستدار السفير واتجه نحو الدرج عندما تقدم مستر «لى» وقال السفير ضاحكا ـ يا صاحب السعادة لقد جهزت لك أبريقا خاصا من المارتينى بمناسبة تشريفك .

فأجاب لى والابتسامة ترف على شفتيه ـ يا صاحب السعادة انني

على استعداد لاحتساء الابريق بأكمله .. هل ذكرت لك أيها السفير «ماك هوايت» قصة المرأة التى حبست مرة فى دورة مياه بالدور الرابع والثلاثين بفندق والدورف استوريا بنيويورك وعاشت على المارتينى لعدة أيام لانه كان الشراب الوحيد الذى استطاعوا دفعه لها خلال ثقب الباب ؟

وضحك السفير ماك هوايت ، وصب المارتينى فى كؤوس كبيرة مثلجة وأخذ الاثنان يجرعان كؤوس الشراب ويتحدثان بهدوء لمدة عشر دقائق .. وفى خلال نصف ساعة ستنضم اليهما «مولى» ثم يتناولون جميعا طعام العشاء وقبل أن تحضر مولى كان على «ماك هوايت» أن يتحدث سرا الى «لى» وعندما انتهى الاخير من قصة كان يحكيها مال نحوه السفير وقال :

ـ لى .. لقد كنت صريحا معك ، وأعتقد أنك كنت صريحا معى أيضا ...

فانا أود أن أناقش معك موضوعا خطيرا ذا أهمية كبيرة ..

فأجابه لى ـ اذا كان شيئا أستطيع أن أفعله لك يا جلبرت فعلى الرحب والسعة ..

وهز السفير رأسه عندما ملأ «دونالد» كأسه بالمارتينى ثم قال :

ـ ان المشكلة سهلة يا «لى» .. فسوف تفهم المسألة سريعا لما لك من خبرة حربية ممتازة .. فهى مسألة استراتيجية .. فأنا أود أن أعرف القواد الصينيين الذين يميلون الى الشيوعية ويعطفون عليها فلدى خطة كبيرة لاخراجهم من البلاد .

ولم تغادر الابتسامة وجه «لى» بل تغيرت ملامحه بطريقة سريعة وهو لا يزال يحتسى كأس المارتينى وتجمدت عيناه وهو ينظر من فوق كتف السفير الى دونالد وروجر وهما واقفان عند المائدة على بعد خمسة عشر قدما .. فضحك بنعومة وفهم «ماك هوايت» أن الضحكة تنطوى على انذار أو اخطار ، فتغير الحديث كله دفعة واحدة .. وعرف «ماك هوايت» الخبير المجرب والسياسى الداهية أن أمرا لا بد أن يكون قد وقع فاستمر السفير يقول :

ـ أرجو أن تفهمنى يا لى .. فلن أستخدم هذه المعلومات ضد أى صينى حسن السيرة والسلوك فى سارخان .. بل انها ستكون لى فقط وأعتقد انها ستكون مثيرة فى الصراع القادم ضد الشيوعيين فى هذه البلاد .

فقال لى ـ اننى أعرف ذلك يا جلبرت ... فقد رايت فى الحال اهمية السؤال ..

ـ ولكن الامر يقلقك بعض الشىء ؟

وأفرغ «لى» كأس المارتينى فى جرعة بطيئة متزنة ثم وضع الكأس الفارغة فوق المنضدة ، وأشعل سيجارة وأخذ منها نفسا عميقا ، ثم حبقها فى منفضة السجائر وعندما نظر الى ماك هوايت كان منظره غريبا ، ولاول مرة رأى «ماك هوايت» شرقيا غاضبا يتطاير الشرر من عينيه ، فاهتز السفير واضطرب عندما وجه «لى» الحديث اليه قائلا :

ـ جلبرت انك غبى .. غبى كبير .. اننى أتكلم ببطء حتى لا يسمعنى احد سواك .. كيف نناقش مسائل كهذه فى غاية الاهمية والحجرة بها خادمان ؟

فقاطعه «ماك هوايت» ـ ان دونالد وروجر خادمان عجوزان نثق فيهما ثقة عمياء وهما لا يفهمان كلمة واحدة من الانجليزية ، على انهما فى الجانب الآخر من الحجرة وراء الستار ..

فقال لى : لا يجب أن تثق فى انسان يا جلبرت سواء أكان عجوزا أم شابا وسواء أكان قريبا منك أو فى الطابق الاسفل . .

وفهم السفير أن «لى» لا يهزل من العلامات البيض التى ارتسمت على أنفه وحول فمه ...

فرد عليه السفير ـ دعنى أؤكد لك «يا لى» أن دونالد وروجر لا يعرفان كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .. وقبل أن أعينهما فحصت ملفاتهما فى بوليس سارخان الوطنى . كما أن سلفى كان واثقا من أمانتهما واخلاصهما ، ففى عام ١٩٤١ قام هذان الخادمان بدفن مهمات السفارة الفالية عندما جاء اليابانيون .. وبعد الحرب عادا واظهرا هذه الاشياء .. وهذا الطبق الفضى الذى تراه هناك أحد الاشياء التى أنقذوها ..

وعندما تكلم «لى» كان صوته لا يزال هادئا وباردا ولم تختف الخطوط من وجهه :

ـ جلبرت .. يجب ان أقولها مرة أخرى ، انك تقترف خطأ كبيرا وتتصرف فى غباء ..

لقد هاجم «لى» صديقه جلبرت هجوما عنيفا حتى أنه أساء اليه اساءة بالغة متهما اياه بالتهاون أو الغباء رغم أن السفير قد أجرى على الخادمين عدة اختبارات ليرى ان كانا يتكلمان لغة أخرى غير اللغة الصينية .. فكثيرا ما كان يوجه اليهما الحديث باللغة الانجليزية فجأة

ومن غير مقدمات ، ولكن تعبيرات وجهيمهما لم تتغير أبدا أو يبدو عليهما ما يفيد أنهما يعرفان الانجليزية ، فاطمأن اليهما وعرف أنهما لا يعرفان هذه اللغة .. وتأكد السفير أيضا أنهما لا يكتبان فلم ير أيا منهما وبيده قلم يكتب به بل لم يرسلا قط رسالة من المنزل الذى يخدمان فيه .

ومال السفير مرة أخرى ووجهه يعكس ما يفكر فيه :

«ان هذين الصينيين من أصدقائى .. لقد خدما أمريكا قرابة عشرين سنة وأثناء الحرب غامرا بحياتهما فى سبيلنا» ..

ومع ذلك فان ملامح «لى» لم تتغير بل ظلت جامدة ، فقام من مكانه واتجه نحو «البار» وتناول ابريق المارتينى وملأ كأس ماك هوايت وكأسه .. ثم جلس مواجها ماك هوايت وهو يقول :

ـ انك رجل ذكى يا جلبرت .. اذا أردت أى معلومات من السفارة الامريكية فما المكان الذى يصلح لوضع جاسوسك فيه ؟

فأجاب السفير : سكرتير السفير . .

ـ ومن يليه ؟

ـ خادمه الخاص أو كاتم أسراره .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ عامل التليفون ..

ـ الا يكون جاسوسك شخصية فوق كل الشبهات .. شخصية وضعت فيها كامل ثقتك كلها ؟

ونظر ماك هوايت اليه بحدة .. فلأول مرة شعر فيها بقبس من الشك فبدأ يقلق .. ان جميع الوظائف فى السفارة كوظائف التراجمة والسعاة والسائقين والكتبة كلها يشغلها آسيويون . ثم تذكر فجأة أنه فى كل سفارة من سفارات الولايات المتحدة الامريكية فى العالم وفى جميع مكاتب الاستعلامات الامريكية وبعثات المعونة العسكرية والبعثات الاقتصادية كل هذه الوظائف يشغلها غرباء . ثم شعر بمرارة وألم ،كيف سمح لهذا الامر ان يحدث فى سفارته ..

وقال «لى» بنعومة ـ كم من الوقت لا يزال أمامنا قبل أن تحضر «مولى» ؟

فأجابه ماك هوايت ـ قرابة عشرين دقيقة .

وتراجع «لى» فى مقعده وصرخ باللغة الصينية .. وفى الحال هرع

دونالد وروجر نحوه .. ونظر دونالد فى الحـــال الى ابريق المارتينى وتناوله ثم صب فيه بعض الجن والفرموت ، ثم وقف أمام الرجلين وملأ كأسيهما بهدوء فأفرغ «لى» نصف الكأس فى جوفه ثم وضعها فوق منضدة القهوة ووقف ببطء .. وقد ارتسمت على وجهه خطوط جديدة مما جعل دونالد والسفير ماك هوايت ينظران اليه بدهشة .. وما أن اعتدل «لى» فى وقفته حتى تغيرت هيأته وفاضت ابتسامته ، واهتز جسمه كأنه يعانى ألما مفاجئا ، ورغم أنه كان أقصر من دونالد بكثير الا أن الاخير تراجع الى الوراء كأن شيئا يخيفه أو يهدده .. وتكلم «لى» باللغة السارخانية آمرا روجر أن يغادر الحجرة .. ثم تحجرت عينـاه وأصبحتا كقطعتين من الحجر الاسود وتحول «لى» الى دونالد موجهـا اليه الحديث باللغة الصينية ببطء واستطاع «ماك هوايت» أن يتتبع المناقشة ويفهمها ..

ـ قال لى السفير الامريكى ان أشياء كثيرة سرقت من السفارة .. ساعة يد نفيسة ، وأربع زجاجات من الويسكى . وقد قرر الســـفير العثور على ذلك الشخص الذى سرق هذه الاشياء ونحن نعرف أيهـا اللئيم الماكر انك انت هذا اللص ..

واحتج دونالد بشدة .. فهو لم يسرق فى حياته شيئا وأخذ يبكى ويولول وينظر الى السفير .. وتقدم لى الى الامام ولطم دونالد عـلى وجهه لطمة دامية .

وصعق السفير من هذه المفاجأة وقد رأى أصابع لى الاربعة وقـد تركت آثارها على وجه دونالد .. فأربد وجه دونالد العجوز الهادىء الوديع المسالم وفغر فاه ..

واتجه لى نحو السفير كأن شيئا لم يحدث وتحدث اليه باللغـــة الانجليزية متعمدا ذلك ..

ـ انه ينكر سرقة الويسكى والساعة .. ولكنه يكذب على كل حال. فما أن تقرر أنه السارق أمكننا سؤاله عن الآلة الكاتبة والحقيبة ..وهما فى الحقيقة الشيئان اللذان تبحث عنهما .

وهز السفير رأسه موافقا ولكنه كان غاضبا .. ومتعجبا من تغير هيئة لى وهو الذى اعتاد أن يراه رجلا عاديا مستقيما لا يعرف المـكر أو الالتواء .. وكان لى يعرف النكت الامريكيـة والاهازيج الانجليزية واللهجات الايرلندية .. وكان يتاجر فى الجرارات الامريكية ولكنه الآن كما يبدو رجلا آخر ، رجلا قاسى الطبع غليظ القلب وكل كلمة فاه بهـا لى كانت كوقع السياط .

ان ماك هوايت نفسه قد شهد تحقيقات كثيرة حتى انه كان محققا مرة أثناء الحرب .. ولكنه لم ير فى حياته محققا غليظا مثل «لى» وكل ما فعله «لى» كان من قبيل الاجهاز على دونالد ، وكان على ماك هوايت أن يبتعد عما يحدث ولا يتدخل فى الامر بأية صورة .

وبطريقة بارعة أخذ لى يذكر للسفير عقوبة الكذب وان جاويشا سارخانيا تخصص فى استخلاص الحقيقة من أكبر الكذبة والمنافقين ، وكان يذكر كل هذا كأنها أشياء عادية معروفة للجميع .

وقال لى موجها الحديث مرة أخرى الى دونالد :

ـ والآن يا دونالد هل تعرف عقوبة الكذب .. لقد أنذرتك .. فعليك أن تقول الحقيقة .. الحقيقة البسيطة لا غير .. وعندما تقول ذلك تستطيع أن تذهب .

وانتهى صوت لى بنعومة ثم تحول الى صوت آمر صارم ..

ـ تقول انك من «موكنج» غرب مقاطعة زوشوان هل سمعت عن بنج ـ ته ـ هوى ؟ أجب فى الحال ..

وترد دونالد وبل شفتيه وأجاب :

ـ نعم .. لقد سمعت عنه .

ـ هل سرت مع بنج وشيوعييه الى شترى عام ١٩٣٤ ؟

ـ لا .. لم أفعل .

ـ أين كنت اذن عام ١٩٣٤ .. لقد كنت فى المدرسة .. انك تتكلم بلهجة مهذبة ، ولكنك ابنا لفلاح خنزير حقير من زوشوان وليس هناك أحقر من فلاح خنزير فى هذه المقاطعة ، كيف حصلت على المال وذهبت الى المدرسة ؟

وكان صوت «لى» لا يزال صارما وكريها ..

وامتلأ دونالد بالغضب وهو يردد :

ـ حتى أن ابن فلاح خنزير يستطيع الذهاب الى المدرسة ..

ولكن «لى» عالجه بسرعة وقطع عليه الحديث كأنه يتممه له :

ـ نعم لو حصل على المال من الشيوعيين لاستطاع الذهاب الى المدرسة ..

ـ اننى لم أقل هذا بل حاولت أن أقول ..

ـ لقد كنت تحاول الكذب .. لقد ذكرت للسفير أنك لا تستطيع أن تكتب وفى الوقت نفسه تعترف بأنك ذهبت الى المدرسة فى موكنج ..

وفوجىء دونالد مفاجأة كبيرة وأسقط فى يده .

وغير لى طريقة الاستجواب وأخذ يسأل دونالد عن عائلته ، ولم يسمح له أن ينهى أو يتم أجوبته .. وكلما تردد دونالد أو اضطرب مده «لى» بالجواب أو أكمل له الرد على السؤال .. وأذهلت اجابة «لى» دونالد وحيرته .. وكان لى يتعمد اغاظته واثارته باتهامه اياه بأنه شيوعى .. ثم ذكر أن أى صينى أمين يجب أن يكون شيوعيا «بالاصول» .. وأخذ يهجم عليه هجوما عنيفا ويسب عائلة دونالد ، وفى أجداده الملاعين الخنازير وهدده بأن أولاده سيقتلهم جميعا عملاء شيانج .. وتركزت أجوبة دونالد وتحددت معالمها بعد ان اختلط عليه الامر اختلاطا ، كما اختلط على السفير نفسه وهو يشهد هذا الحادث الغريب .

ثم تحول منظر «لى» وبدا عليه التعب والاجهاد وبدا كأنه يتضاءل واصبح انسانا مسالما هادئا وديعا وهو يقول فى نهاية استجوابه ..

ـ ساعدنا جميعا يا دونالد .. قل لنا أين الويسكى والساعة .. فهذا هو كل ما نريده .. ثم بعد ذلك تستطيع أن تذهب .

واستقام دونالد وظهرت على ملامحه القوة عندما بدأ «لى» ينهار ويضعف وشعر ماك هوايت بالشجاعة وهو ينظر الى دونالد الذى ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة .

ـ أنا لا أعرف شيئا عن الويسكى أو الساعة .. ولكنى أعرف أن الآلة الكاتبة والحقيبة لم تسرقا بتاتا .. فهما فى مكتبة السفير ماك هوايت .. فقد رأيتهما هناك ..

واستدار لى كحيوان هائج أو كنمر فى لحظة الانقضاض ..

ـ من ذكر شيئا عن الآلة الكاتبة أو الحقيبة يا دونالد ؟ ممن سمعت ذلك ؟

واصفر وجه دونالد ..

ولم يترك له «لى» فرصة للرد بل قال بلغة انجليزية ..

ـ لقد سمعت ذلك لاننى ذكرته باللغة الانجليزية الى السفير ماك هوايت ، فأنت تفهم الانجليزية ولعدة شهور وأنت تسمع ما يقوله السفير أثناء تنظيفك منافض السجائر أو ملئك كؤوس المارتينى .

ثم قرب وجهه من دونالد وقد اربد وجهه سنى خاف دونالد

واضطرب فأجابه دونالد بلغة انجليزية سليمة ، وكان صوته خليطا من الرعب والسخرية .

– نعم .. لقد كذبت .. لقد فعلت ذلك لان الشيوعيين يحتجزون أبنائى كرهائن فى موكنج وقد يقتلوهم لو لم أمدهم بالمعلومات .

فسأله لى – وقد أخبرت الشيوعيين عن خطط ماك هوايت للقضاء عليهم فى سارخان ؟

فهز دونالد رأسه موافقا ..

– يمكنك أن تغادر الغرفة ولكن لا تغادر المنزل .. فسوف نتحدث اليك مرة اخرى ..

وغادر دونالد الحجرة وعينا السفير تلاحقانه .. وعلم ماك هوايت فى هذه اللحظة أن خططه الدقيقة وملايين الدولارات التى صرفها واستراتيجيته الماكرة قد ذهبت كلها أدراج الرياح .. وعلم أيضا انه ، أى فخامة جلبرت ماك هوايت ، قد اقترف خطأ جسيما .. ان خللا قد طرأ على خططه المحكمة وغيرته وحماسته .. لذلك كان وقع المفاجأة عليه جسيما .. لم يكن ليتوقع أبدا أن يسدد له القدر هذا السهم النافذ ويطيح بخططه وهو ذلك الرجل القدير المحنك .. ولكن الحقيقة قد وضحت أمامه وبرهن له «لى» أنه فعلا «غبى» لذلك شعر بكراهية نحو «لى» لانه أراه غباءه وأوضح له ذلك الشىء الذى كان يفتقر الى وجوده .. ونظر السفير حوله ببطء وكان «لى» واقفا أمام النافذة يطل من وراء زجاجها الى مناظر سارخان من بعيد .. الى السحب البيضاء فى السماء الزرقاء .

ثم استدار «لى» وواجه ماك هوايت وقال بنعومة :

– اننى آسف يا جلبرت .. فليس من السهل أن يكون الانسان قاسيا مع رجل طاعن فى السن .. وليس من السهل كذلك أن يغرس الانسان الشك فى رأس انسان مهذب محنك مثلك .. ولكنه أمر ضرورى .. والاشياء الضرورية غالبا ما تكون غير مقبولة .. لقد كان هذا الامر سيئا .. سيئا للغاية .

وكان الاثنان واقفين بهدوء ينظران الى المنظر الجميل عندما جاءت «مولى» تهبط الدرج وقد ارتدت فستانا سماويا جميلا باهظ الثمن اشترته من «ساكس» ثم طلبت كأسا من المارتينى ..

كان ماك هوايت يعلم ان السباب نوع من الترفيه ولم يسمح لنفسه ابدا أن يحصل على هذه اللذة .. وكان يعلم أنه اقترف خطأ جسيما ،

لذلك ظل يومين كاملين وحيدا فى مكتبه يحلل أخطاءه وطبيعة مشكلته والحلول التى يجب أن يصل اليها .

وخرج من تحليله للامور انه لم يكن ملما تمام الالمـــام بالشخصية الآسيوية ، والطريقة التى تتناول بها الامور السياسية ، لقد كانت هناك مرارة لم يشعر بها من قبل .. فالسياسة فى آسيا تحتاج الى مهارة فائقة ، وخرج أيضا بنتيجة حاسمة هى أنه يستطيع أن يتعلم من خبرة الآخرين .

وفى مساء الليلة الثانية أرسل «ماك هوايت» برقيـــة الى وزارة الخارجية يقول فيها :

«ارجو الموافقة على سفرى الى الفليبين وفيتنام لادرس طـــرق معالجة المشاكل الشيوعية الداخلية . فأنا متأكد أن كفايتى تفتقر الى معلومات وفيرة عن المشكلة الآسيوية . لقد ارتكبت فعلا خطأ جسيما وأرجو الا اقترف غيره مرة أخرى ، جورج سويفت يستطيع أن يقوم بعملى أثناء سفرى . أطلعت مكتب العلاقات الخارجية فى سارخان على رحلتى فوافق» .

وبعد اثنتى عشرة ساعة أبرقت وزارة الخارجية الامريكية بالموافقـــة على رحلة السفير .

واول شخص رآه ماك هوايت فى الفليبين هو رامون ماجسای ،وزير الدفاع الذى قاد معركة طويلة حامية الوطيس ضـــد الشيوعيين فى الفليبين ثم تزعم فيما بعد الحكومة الموحدة التى حكمت جزر الارخبيل حكما موفقا ، صحيحا ..

وتناقش السفير والوزير مناقشة كافية خرج منها السفير بتقرير كبير أرسله الى وزارة الخارجية الامريكية ، وكانت هناك نقطة واحدة ذكرها الوزير ولم يستطع السفير أن يكتبها فى تقريره ، قال الوزير :

«ان الحقيقة المجردة البسيطة يا سيدى السفير هى أن الامريكيين فى حالتهم الطبيعية ، يعتبرون أحسن السفراء الذين تستطيع أمة أن تحصل عليهم .. فهم منزهون عن الشك .. مجتهدون . كرماء ، ولكن شيئا يحدث للامريكيين اذا ذهبوا الى بلاد غريبة عنهم .. فأغلبهم ليسوا فى حكم المتوسط بل يأتون فى الدرجة الثانية .. وأكثرهم يعيشون أو يشعرون بأنهم يعيشون من أجل سياراتهم الكبيرة وحفلات الكوكتيـــل ولكن ابحث عن امريكى من غير هذا الطراز فستحصل فى الحال على رجل ذكى ، بل على ثروة كبيرة .. واذا عثرت على واحد من هذا الطراز

«فاحتفظ به ولا تزج به فى حفلات الكوكتيل .. وابعده عن كل هـــذه المساوىء واتركه يعمل بطريقته الخاصة» .

فسأله ماك هوايت ـ هل تعرف انسانا من هذا الطراز الذى تقول عنه ، فأنا أفتقر الى أكثر من واحد بين موظفى ؟

فأجاب ماجسای سای ـ أعرف بالفعـــــل .. «الفتى العازف» الكولونيل هيلانديل .. فقد يستطيع هذا الرجل عمل شىء .. وآمل ألا تسرقه أو تأمر بنقله من هذا المكان .

ودون ماك هوايت الاسم فى مذكرته ..

وعاد يسأل الوزير مرة أخرى ـ ما الذى كنت تفعله لو كنت مكانى؟

فأجاب ماجسای سای ـ أذهب الى فيتنام وأراقب القتال الذى يدور حول دين بين فو .. اننى أعرف أنك ديبلوماسى وان الحـــرب ليست مهنتك ولكنك سيتكشف لك وشيكا ان الدبلوماسية ومســئولية الحكم والاقتصاد وشئون الحرب لا يمكن فصل بعضها عن بعض .. ولو فتحت عينيك وأذنيك جيدا فستدرك فى الحال بعض العلاقات بينها .. انها أمور لا تستطيع أن تتعلمها من الكتب ، بل نحس بها فقط .

الفصل العاشر

الفتى العـــــازف

فى السلاح الجوى رجل يدعى ادوين بارنوم هيلانديل .. برتبة كولونيل وهيلانديل هذا احد هؤلاء المحظوظين ، انه يستطيع أن يرقص ويشرب طول الليل ثم يبدو فى الثامنة صباحا جم النشاط .. ولكن قلما يرقص الكولونيل أو يحتسى الخمر طول الليل . ففى الثانية صباحا تراه ينضم الى فرقة الاوركسترا ويعزف معها فيشيع فى الجو لونا من المرح وعندما يلعب « بالكومبو » وهى آلة موسيقية يخيل للمستمع أنها أصوات آتية من الجازباند والهرمونيكا فى وقت واحد .

وليس الجاز وحده هواية الكولونيل بل انه يهوى الاكل ويحب أن يجتمع بالناس .. أى نوع منهم .

وفى عام ١٩٥٢ أرسل الكولونيل هيلانديل الى مانيلا كضابط اتصال لامر أو لآخر .. وفى وقت قصير أحبه الفيليبيون حبا عظيما .. وكان يتناول طعامه فى المطاعم الفليبينية ويلتهم كميات كبيرة من الارز ويحتسى «الروم» ، الخمر الوطنية .. وكان يعشق كل شىء فيليبينى ، وكثيرا ما كان يذهب الى الجامعة فى أوقات فراغه لدراسة «التاجالوج» ــ لغة البلاد ..

وأصبح الكولونيل هيلانديل الشخصية الخاصة التى تعشقها مانيلا بأسرها ، وكثيرا ما كان يناديه السياسيون «دون أدوين» أما سائقو التاكسى والباعة وخدم الموائد فكانوا يسمونه «أمريكانو ابلاسترادو» أما الموسيقيون فكانوا يسمونه «الفتى العازف» . أما القنصل الامريكى فى السفارة الامريكية فكان يطلق عليه اسم «اللقيط المجنون» .

ولكن خلال ستة أشهر كان «اللقيط المجنون» يتناول طعام الفطور مع وزير الدفاع ماجسای سای ، وأصبح بعد وقت قصير مستشاره غير الرسمى ..

وفى صيف عام ١٩٥٣ كان «ماجسای سای» يستعد لانتخابات الرئاسة فزار جميع جزر الارخبيل حيث قوبل فى كل مكان بحفاوة بالغة

وترحيب عظيم ما عدا مكانا واحدا فى شمال مانيلا حيث عملت الدعاية الشيوعية عملها فقد ادخل الشيوعيون فى عقول الدهماء أن الامريكيين أغنياء غنى فاحشا ، وأغبياء مترفعون ، وأن كل من يعمل معهم كصاحبنا «ماجساى ساى» لن يستطيع أن يفهم مشكلات الفليبيين .

لذلك توقع الخبراء السياسيون فشـــل «ماجساى ساى» فى المقاطعة ...

وفى يوم سبت ذهب الكولونيل هيلانديل ، صديق ماجساى ساى الى هذه المقاطعة .. وعندما وصل الى لعاصمة فى تمام الساعة الحادية عشرة والنصف رأى أهل «كونسو» شيئا لم يره فى حياتهم مطلقا .. رأوا شابا طويلا رفيع القامة ذا شعر احمر وأنف كبير يركب دراجة بخارية حمراء كتب على خزانها بالخط الاسود «الفتى العازف» ... واخترق الفتى الشارع الرئيسى ثم توقف فى أكبر مكان مزدحم بالناس. وركن دراجته وأصلح من بذلته العسكرية ثم اتجه نحو قاعة كبـــيرة وجلس على أريكة فى الشارع ، وبعد أن ابتسم وأشار لكل من مر أمامه، تنـــاول الهرمونيكا وأخذ يعزف عليهـــا أشهر اقطع الموسيقيـــة الفيليبينية بطريقة مرحة عالية .. وفى مدى ربع ساعة تجمهر حـوله اكثر من مائتى مواطن وأحاطوه احاطة السوار بالمعصم .. وسـحرت الموسيقى الجموع والهبت حماسهم ولكنهم كانوا فى شك من أمر هـذا الرجل الذى يمثل الامريكيين الاغنياء الفاحشى الثراء .

وأخذ الكولونيل هيلانديل يعزف مقطوعة «الارز المزروع ليس أمرا سهلا» ثم توقف ونظر الى الجموع الزاخرة وقال باللغة «التاجالوجية» :

ـ تعالوا .. انضموا الى ..

ثم بدأ يغنى كلمات قليلة .. ثم تناول آلته الموسيقية واخذ يعزف قطعا رائعة .. وبدأت الجموع تغنى وكانت تربو على ثلاثمائة فيلبينى. التفوا حول الكولونيل يغنون بصوت عال وقد هزت شعورهم الموسيقى الجميلة ، ويتزاحمون بالمناكب ليلقوا نظرة على هذا الفتى الغريب .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة دقت أجراس الكنيسة المجاورة .. فوضع الفتى العازف آلته فى جيب سترته وهب واقفا وقال :

ـ اننى جائع وأحب أن أتناول بعض «الآديبو والبانسيت» ـ طعام وطنى ـ ونظر الفيلبيون بعضهم الى بعض بخجل ..

وأدار الكولونيل عينيه فى الجموع الملتفة حوله فى دائرة وقال :

ـ أمل أن يدعونى أحدكم الى الغداء فأنا مفلس ..

فاجابه أحد الفيليبيين ـ اليس لديك مال ؟

فوضع الكولونيل يديه فى جيوبه وأخرج حافظة نقوده وفتحهـــا وأراها للجموع وكانت فارغة خاوية الوفاض .. ثم وضع يده فى جيب جانبى وأخرج بعض القطع النقدية الصغيرة وقال :

ـ ستون سنتافوس ..

ـ ولكن الامريكيون أغنياء ..

ـ لست كذلك ..

ـ انك تمزح .

وكان الكولونيل لا يزال يتحدث باللغة « التاجالوجية » ـ عنـدنا فقراء فى أمريكا كما عندكم فى الفيليبين .

ـ ولكنك كولونيلا فى السلاح الجوى الامريكى .. نعرف أنك تحصل على ثلاثة آلاف بزوس فى الشهر ..

ـ هذا صحيح .. بل ان هذا مال كثير .. ولكن عندى مصروفات كثيرة .. زوجة وثلاثة أبناء فى أمريكا .. كم تساوى زجاجة الروم هنا ؟

ـ اثنان من البزوسات .

ـ انها تساوى ست بيزوسات فى أمريكا ..

ـ أحقا ما تقول ؟

ـ نعم .. وكم تدفع ايجارا لمسكنك فى كل شهر ؟

ـ أربعين بزوسا ..

ـ ان مسكنى فى أمريكا يكلفنى ٢٤٠ بزوسا .. انه مسكن صـــغير متواضع ولا أستطيع الحصول على مسكن بأقل من هذا القدر .. ان هذا يبدو مستحيلا ..

وصمتت الجموع فقال الكولونيل بهـــدوء ..

ـ ان هذا غير مشرف .. فلم أقابل مرة فيليبنيا لا يطعم انســانا جائعـــا ..

واندفع أحد الفيليبيين مخترقا الصفوف وقال :

ـ ستأكل فى منزلى !

وأجاب آخر : لا بل تعال الى منزلى ..

وقال ثالث : إننى أمتلك مطعما على جانب الطريق .. ستأتى معى.

وكان هذا هو المكان الذى ذهب اليه الكولونيل مععشرة من الفيلبيين فاكلوا الآدوبو والباستت والارز وغسلوه بالروم الفيليبينى وبيرة سان ميجيل ، وغنوا أغنيات كثيرة على نغم آلة « الفتى العازف » ، وما ان انتهى الطعام حتى دعاه الفيليبون للحضور مرة أخرى يوم السبت القادم .. وبر الكولونيل بوعده ، وظل يتردد على المكان كل يوم سبت ..

وهكذا لم يصدق انسان فى المنطقة كل ما كان يقال عن الامريكيين بأنهم أغنياء وأغبياء « فالفتى العازف » الذى غنى لهم أغنيات جميلة وعزف قطعا موسيقية ممتازة على آلته .. كان واحدا منهم .. بل كان كولونيلا فى السلاح الجوى للولايات المتحدة الامريكية ..

وحاول الشيوعيون فى الجبال والوديان مقاومة هذه الافكار ولكن الفيليبيين أسكتوهم .. وقالوا : لا تكذبوا علينا مرة أخرى لقد قابلنا ورأينا واكلنا وشربنا وعزفنا الموسيقى مع أمريكى ونحن نحبه ونعجب به.

والعجيب فى الامر أن ٩٥ فى المائة من سكان هذه المنطقة أعطوا اصواتهم للرئيس ماجسای سای وزملائه ذوى الميول الامريكية فى انتخابات عام ١٩٥٣ ..

قد يقال أن « الفتى العازف » لم يقهر الشيوعيين فى هذه المنطقة .. فاذا لم يكن هذا الفتى هو السبب ، فليس هناك سبب آخر ..

الفصل الحادى عشر

صـــلابة الحـــرب

الميجور جيمس «تكس» ولشـــــك ـ ولد يوم ١٢ مارس ١٩٢٤ فى فورت ورث بتكساس . ابن السيد سولومون ولشك .

تخرج فى مدرسة هادستون الثانوية عام ١٩٤١ وانخرط فى جيش الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٤٢ واصبح ملازما ثانيا فى قوات الفيلق الاول للمظلات . قام بخمس وثلاثين مناورة فى فورت بنبنج .. وكسر كاحله ـ كعبه ـ مرتين ، وقفز ثلاث مرات أثناء غزو نورماندى وجنوبى فرنسا .. منح وسام النجمة الفضية والقلب القرمزى الفاخر ..

عاد الى خدمة الجيش بعد الحرب العالمية الثانية . وعين فى الكلية الحربية من عام ١٩٤٧ الى ١٩٥٠ ثم أرسل الى كوريا فى نوفمبر ١٩٥٠ ثم رئيسا وضابطا عظيما فى الجيش ومنح وســـام القلب القـــرمزى والميدالية البرونزية .

العنوان الدائم : ١١٨٩٧ ساوث لين ـ فورت ورث ـ تكساس ..

***

دخل الميجور جيمس ولشك على الضابط الفرنسى وأدى التحيـــة العســـكرية ، وقال بسرعة :

ـ الميجور جيمس ولشك بجيش الولايات المتحدة الامريكية يقدم نفسه للخدمة كمراقب فى الفرقة الثانية « آمفينى » .

وكان الضابط الفرنسى مونيه يجلس وراء مكتبه وكان رجلا صغيرا متعبا .. فألقى عليه نظرة فاحصة من وراء مكتبه ، ثم ابتسم قائلا بلغة انجليزية ممتـــازة !

ـ ميجور ، انك تبدو كما ســمعت قبـــلا من أهل تكســـاس ، كعجل .. أرجو ألا تظن ذلك اهانة .. فلم أقصد أن أهينك ..

فابتسم الميجور ولشك وقال : شكرا لك ياسيدى .. فأنا فعلا من تكساس ..

فقال مونيه – وبالطبع يسمونك « تكس »

فهز ولسك رأسه موافقا .. وابتسم الاثنان لحظة ثم اخذ «مونيه» يعبث بأحد أدراج مكتبه يبحث عن أوراق ولشك ... بينما أتجه تكس نحو النافذة واخذ ينظر منها .. وكان مكتب مونيه يقع فى احـــدى ضواحى « هانوى » ورأى تكس طابور اللوريات الطويل وســـيارات الجيب وهى تتحرك تجاه الاراضى المنخفضة حيث كانت تدور معركة « الدلتا » وعلى جانبى الطريق كانت صفوف من أهالى فيتنام يتحركون فى الطريق العكسى نحو المدينـــة ..

وضحك تكس عندما تذكر مونيه وهو يستعمل لفظ «العجل» فى دعابته .. وقد سمع تكس هذه الملاحظة قبل ذلك ولكنه لم يسمعها من فرنسى أبدا .. وكان يبدو على كل حال كمواطن أصـــيل من مواطنى تكساس ... فقد هاجر أبواه الى فورت ورث من ليتوانيا قبل ان يولد تكس بعامين وكانا قصيرين داكنى اللون ذوى عضلات . وكانا يحلمان دائما بالحدود الامريكية ، فوجدا السحر الامريكى فى تكساس .. ان الشمس والطعام والجو جعلت أبناءهما ينمون بسرعة وتصبح لهـــم عضلات قوية . وكان أبناؤهما الستة مثلا للتكساسيين الاصـــليين ، واستغل الاب ولشك ثروته فى بناء مساكن فى فورت ورث وجنى من وراء ذلك ثروة طائلة .. وكان دائما يفخر بأن ابنـــه الاكبر ضـــابط ومقاتل من الطراز الاول .. وعاونت تكس سمعة عائلته بل انقذته من مواقف محرجـــة اكثر من مرة ...

وتركت آثار حربين علامات فى جسم تكس .. المرة الاولى جـــرح فيها فى نورماندى حيث كان أحد جنود المظـــلات الذين هبطوا وراء شواطىء نورماندى يوم الهزيمة الكبرى .. فقد ألقيت نار حاميـــة على مظلته ، وفى أثناء هبوطه صوبت اليه سبع طلقات من مدفع رشاش استقرت كلها فى ساقيه .. وما أن لمس الارض حتى كان حذاؤه مغارقا فى الدم ، ولم يستطع السير مطلقا ولكنه زحف على بطنه ثلاثة أميال فى خمس ساعات . ثم صادفه بعض الالمان المتراجعون فى طريق قصير حيث فوجئوا به واقفا بطوله الفارع مستندا الى شجرة كبـــيرة وفى وجهه نظرة صارمة وبيده غدارته ، ولم يتحـــدث تكس الى شرذمة الجنود ، بل أشار اليهم أن يلقوا بأسلحتهم ويرفعوا أيديهم .. وحاول الضابط الالمانى خداعه ولكنه قبل ان يتحرك ثلاث خطوات رمـــاه تكس بالرصاص بسرعة مذهلة وبعد نصف ساعة فهم الالمان ان آسرهم كان

يستند الى الشجرة لانه لم يستطع استخدام ساقيـــه ، ولكن كان الوقت قد فات ..

ونزع الاطباء ست رصاصات من رجليه وتركوا السابعة لانهـــا استقرت فى عظامه ومنح تكس وسام النجمة الفضية لهذا العمـــل المجيـــد ..

وأصيب تكس بالجرح الثانى فى تلال بورك شوب بكوريا وهويقود دورية مسلحة فوق منطقة معتمة كثيرة الضباب بين الخطوط الامريكية والصينية .. وكان من الصعب عليه أن يتبين الاشياء أو الاشخاص ، ولكنه سمع أصوات قتال ، وتقدمت الداورية مائة ياردة عندما تبين لها ان الصينيين يشنون عليها هجوما عنيفا وحشيا .. وتأكد تكس أن قوته لن تقف أمام عدد الصينيين الضخم ولم يجد بدا من اختـــراق صفوف الصينيين واشاعة الفوضى فى صفوفهم..وقاد تكس داوريته واصلى العدو نارا حامية بالقنابل اليدوية المحرقة ، واستطاع آخـــر الامر أن يأسر بعضهم ، وأن يجهز على كل من كان فى هذا المرتفع ، كما قتل جنرالا وكولونيلين ثم قضى على ١٢٠ صينيا .. ولكنه فشـــل فى العودة بدوريته رغم اشاعته الفوضى فى صفوف الصينيين وتغلبـــه على عددهم الكبير ، الا ان ماتبقى من دوريته بما فيهم تكس نفســـه وقعوا فى الاسر آخر الامر ..

واصيب تكس بأربع وعشرين ابرة حادة من حديد القنابل اليدوية فى ظهره وحقن تكس نفسه بالمورفين وسأل الضابط الصينى بكل أدب أن يسمح لاحد رجاله بانتزاع هذه الابر من ظهره ، فتـــكس الامريكى الذى كان قصابا فى حياته المدنية قام بعمل سريع محكم وأصبح بظهره مجموعة نادرة من آثار الجروح وتركت بعض قطع الصـــلب الصينية فى جسمه ليستخرجها الجراحون ..

واستطاع تكس فيما بعد أن يهرب من المعتقل الشيوعى ويعـــود الى الخطوط الامريكية . لذلك اقترح رئيسه أن يشغل تكس وظيفة مرافقب مع القوات الفرنسية التى تعمل خارج «هانوى» ، وعندماكانت الحرب الكورية على أشدها أرسل تكساس الى فيتنام ..

***

وضحك الضابط الفرنسى برتبة ميجور واتجه تكس نحوه بسرعة.

ـ تكس ، أرجو أن تسامحنى اذا ناديتك باسم التدليـــل من أول مرة .. عندى لك أخبار غير سارة .. فالاوامر تقـــول بتعيينك فى صحبتى وتأمرك بأن تلقى بنفسك فى « دير بين فو » معنـــا ..

وسأله تكس ـ وما الخطأ فى ذلك ؟

ـ بالرغم من أن الصحف لم تصلها هذه الانباء بعد ، فان دين بين فو قد طوقت منذ أمس .. وكانت هناك بعض الاخبار التى تقول بأنه يمكن الوصول اليها عن طريق البر ولكن هذه الاخبار استبعدت كلية وأصبح ذلك مستحيلا .. ففرقتى ستهبط اليها بالمظلات بعد غد .. ولا بأس اذا أرادت القيادة العليا أن يهبط معنـــا مراقب أجنبى .. ونظـــرا للظروف التى تحيط بدين بين فو ، أظنك تؤثر الانتظار هنا ..

ـ ميجور ، كم مرة قفزت الى الارض حتى الآن ؟

وكان مونيه مشغولا بأوراقه فأجاب من غير أن ينظر الى سائله :

ـ حوالى ٢٤ مرة ..

ـ كم مرة قفزت فوق نيران العدو ؟

ـ ولا مرة .. اذ لم تكن هناك فرصة واحدة ..

ـ ميجور ، لقد قمت بأكثر من مائة قفزة فى المناورات التجريبية وقفزت خمس مرات فوق نيران العدو .. وربما تكون الان فى حاجة الى عون يد مدربة ..

ونظر مونيه من مكتبه الى الجيب العلوى المركب على بذلة تـكس العسكرية يبحث عن علامة المظلات .. ولم تكن على الجيب أى ميداليات أو أوسمة من أى نوع وارتسمت على وجه مونيه تعبيرات فهمها تـكس فى الحال على أنها نظرة تحقير وازدراء . ثم نظر مونيه الى مكتبه وقال

ـ اننى آسف جدا .. لم تكن هناك وسيلة للمعـــرفة .. وانه ليسعدنى أن تقفز معنا . وسأتأكد من اخطار القيادة عن خبر قفـزك وانت فى الهـــواء ..

وامضى تكس ومونيه يومين كاملين فى «هانوى» .. وكان كلاهما على نقيض الاخر ولكنهما اتفقا على شىء واحد ، انهما جنديان ومقاتلان ..

انحدر مونيه من عائلة تخرج أبناؤها من جامعة سان سير .. ففى القرون الثلاثة الماضية لم تدخل فرنسا حربا ضروسا الا وأصبح فى عائلة مونيه جنرالا .. ولكنه كان مهتما وغارقا لاذنيه فى أدب الحرب .. وفى كل مرة كان الاثنان ينتقلان فيهـا باحثين عن زجاجات الهنس ـ خمر ـ او مخزن ذخيرة الى آخر .. كان مونيه يتحدث عن تاريخ الحرب ، وتكس يعجب بغزارة معلوماته ويتناقشان ويتحـاجان حـول نظرية الحروب وكانا مرتعبين مأخوذين من عملية الهبوط او القفـــز على دين بين فو ..

وفى اليوم التالى سحب مونيه صديقه تكس لزيارة الفرقةالاجنبية وكان الجنود مصطفين للتفتيش .. وفهم تكس فى الحال ان هـــذه فرقة محترفة،ولاحظ كذلك أن الرجال يكنون لمونيه كل تقديرواحترام .. وهو ككل ضابط جرىء كان يرى دائما ان يحصل جنوده علىأجود الطعام وينامون فىعنابر نظيفة قبل أن يأكل هو أو ينام او يختارلنفسه أحسن الطعام او الفراش ، وعلم ان هؤلاء الرجال خاضوا مع مونيـــه المعارك الدامية وأنه كان دائما شجاعا وحازما ..

وكان مونيه الفرنسى الوحيد فى الفيلق . وكان بين الجنود ضباط فىجيش هتلر وبعض البولنديين والاوكرانيين والروس والارجنتينيين وبعض الانجليز .. وفى وسط الصفوف وقف زنجى أسود طـــويل القامة رفيع العمود استلفت نظر تكس لاول وهلة . وتوقف تكس ونظر بحدة الى الزنجى ثم التفت الى مونيه وقال :

ـ ميجور مونيه ، لى الشرف بأن أخبرك ان أمريكيا من بين فيلقك .. واحدا على الاقل .. وربما يكون هذا الرجل قد ذكر لك أنه أفريقى أو شىء من هذا القبيل ، ولكنى اقول لك الآن أنه أمريكى حقيقى ..

وابتسم الزنجى الطويل ولكنه ضم شفتيه بقوة وعلم تكس فىالتو واللحظة انه كان مصيبا فيما قال ..

فرد عليه مونيه بسرعة وهو يتحدث بصوت عال أمام الجنود ..

ـ لم أعرف ذلك يا ميجور ولشك .. كل ما اعرفه أن هذا الرجل جندى عظيـــم .. هناك تقليد فى فيلقنا أننا لانبحث عن سيرة جنودنا

فقال تكس ـ حسنا ، ولكن هناك تقليدا بين الامريكيين هو أنهم يتصافحون اذا تقـــابلوا ..

ومد تكس يده الى الزنجى .. ولكن مضت لحظة والاثنان ينظر بعضهما الى بعض ثم ابتسم الزنجى ومد يده آخر الامر بينما وقف بقية رجال الفيلق مشدودى القامة وتحدث الامريكيان بحماســة مدة دقيقتـــين ..

وكان اسم الجندى «جيم دافيس» من لوس انجلوس . ثم انضم الى الجيش .. وأخيرا تحرك الميجور الفرنسى ، وفى الحال عاد دافيس الى صفه والقى بالتحية العسكرية وأصبح وجهه جامدا صارما ..

وواصل تكس ومونيه سيرهما بين الصفوف وقرر تكس أنه قد يكون من الغباء أن يخطر مونيه كيف عرف أن دافيس أمريكى وأنه عرف ذلك من تعبيرات وجهه عندما استمع الى تكس وهو يتكلم بلهجـــة

تكساسية ، وتوقف تكس لحظة عندما بادره مونيه بقوله :

ـ ان دافيس جندى مخلص .. وهو مدهش فى دورياته كما ان المواطنين والاهالى فى فيتنام يحبونه حبا جما رغم كراهيتهم لزنوج فرق شمال افريقية الفرنسيين . ولدينا اثنان من أهالى فيتنام يعملان كمرشدين ويفضلان دائما ان يصحبهما دافيس فى الدوريات الليلية ..

وفى اليوم التالى انتقلت الفرقة بالسيارات واللوريات الى المطار لركوب الطائرات التى سوف تلقى بهم فوق دين بين فو . وفى اللحظة التى مروا فيها على مراكز الحراسة شعر تكس بأن شيئا قد حدث.. فالحراس والضباط فى هرج ومرج والطائرات واقفة فى صفوفها ورجال كثيرون يحيطون بها .. ولم يقل تكس شيئا لمونيه ولكنه فهم من الضابط الفرنسى شم رائحة الخطر ..

وبعد نصف ساعة اكتشف مونيه انه كان مخطئا . فعاد قافلا من مركز القيادة وبرفقته رجل يرتدى سروالا قصيرا ، وكان هذا الرجل أمريكيا مدنيا .. وكان لون وجهه ترابيا . ونظر اليه أفراد الفيلق الذين كانوا يستظلون باللوريات الكبيرة ثم قفزوا على أقدامهم وكادوا ينتظمون فى حركات عسكرية وتقدم مونيه الى رجاله الذين انتصبوا واقفين

وبدأ مونيه الحديث بقوله :

ـ فى الليلة الماضية سقطت دين بين فو . ولم تكن هناك بارقة أمل . وقطعت المواصلات اللاسلكية ، وهذا هو حكم القيادة العليا .. وهو حكم اوافق عليه وهو أننا خسرنا المعركة بأكملها !

وشعر تكس بشعور الفخر والاسى ، وكان مونيه ضابطا شجاعا استطاع أن يعلن الخبر على مسامع جنوده البواسل من غير تردد منفذا أوامر القيادة العليا غير هياب ولا وجل ، وفكر تكس أن الضباط الذين يفصلون انفسهم من قياداتهم العليا يعدون فى الواقع ضباطا ضعاف النفوس ..

وتقدم مونيه نحو تكس وقدم له الرجل الطويل الذى يرافقه ..

ـ ميجور والشك .. هذا هو ماك هوايت السفير الامريكى فى سارخان .. السفير ماك هوايت قدم من سارخان فى مهمة مؤقتة ليرى كيف يعمل الشيوعيون .. وقد استطاع أن يحصل على تصريح خاص من رؤسائنا . وكان فى نيته الذهاب الى دين بين فو ، وهو يريد الان أن تطلعه على آرائنا فيما يختص بالمعركة التى خسرناها ..

ونظر تكس الى السفير نظرة حادة . ثم شعر بومضة غضب ثم أحس بأنها غضبـــة كاذبة أو شعور كاذب وقال :

– ميجور .. لماذا لاتتركنى أتحدث الى السفير بينما تعيـد أنت رجالك ...

وألقى مونيه على تكس نظرة موافقة واستدار على عقبيه وأخذ يصدر الاوامر ، وعاد أفراد الفيلق الى سياراتهم ودارت السيـــارات وعادت أدراجها منسحبة بانتظام ..

وبدأ تـكس الحديث بقوله :

– سيدى السفير .. فهمت أنك مهتم ..

فقاطعه الرجل الطويل بقوله : نادنى بماك هوايت ..

– حسنا يا ماك هوايت .. سأقول لك الحقيقة .. اننا لا نعـــرف لمـاذا يخسر الفرنسيون ، بل أنهم أنفسهم لايعرفون ولكن مونيه ليس هو الرجل الذى يجب ان تتكلم معه .. فهو حاقد ناقم على الفشل والخيبة.

فقال ماك هوايت : حسنا اذن ، فانا أسألك أنت لا مونيه.. ما الخطأ الذى نقترفه ؟ ..

وفى الدقائق التالية فهم تكس أن ماك هوايت يفهم أمور القتال ، سأل أسئلة خشنة كان يتوقع لها ردودا مؤلمة ، وظل الاثنان على جانب الطريق بين سحب التراب والدخان يتحدثان عن الاستراتيجية والتكتيك الحـــربى ..

وقال تكس أخيرا – ليس هناك رد سهل أستطيع أن أجيبك عنه . فنحن هنا نخوض حربا لم أقرأ عنها فى القيادة أو الكلية الحربيـــة . فالاسلحة التقليدية لا تصلح لهذه المعارك اطـــلاقا .. ولا التكتيك التقليـــدى أيضـــا ..

فرد عليه السفير : اذن لماذا لا نجرب استعمال التكتيك غير التقليدى، فالشيوعيون لديهم نظرية أخرى وراء ما يفعلونه ...

وقال تكس : ان الجيوش تتغير ببطء يا ماك هوايت .. فجميـــع طائراتنا ودباباتنا ومدافعنا لا قيمة لها هنا .. ونحن نحتاج الى ان نقاتلهم بالطريقة التى يقاتلوننا بها .. ولكن أحدا لا يعرف على وجـــه التأكيد الطريقـــة التى يقاتلون بهـــا ..

وجاء صوت مونيه من الخلف وهو يقول : ســـوف تعثر على ذلك بسرعة .. فالشيوعيون سيتحركون نحو «هانوى» وستكون أمامنا أكثر من فرصة لنرى كيف يعملون ..

فقال ماك هوايت ـ سأمكث هنا عدة أسابيع اذن ولا تجزع ياميجور مونيه ساحصل على أوامر خاصة لاعفيكم من القلق على سلامتى ..
فسأله مونيه : ولكن لماذا تريد أن تراقب كل هذا ؟

فرد عليه ماك هوايت ببساطة : لانه قد يحدث هذا فى سـارخان أيضا وأريد أن أكون مستعدا على أية حال ..

وظل الرجال الثلاثة واقفين فى مثار النقع والجو المحيط بهم بوحى بالهزيمة ..
وقال مونيه : حسنا اذن فلنذهب .. نكس عليك بالقيادة لنراقب اللوريات فقد صدرت لنا الاوامر لنتخذ مكان الدفاع الليلة ..

وخلال الاسابيع التالية ظهر الشيوعيون وكأنهم ينسـلون من كل حدب وصوب .. وانثالت جموع اللاجئين على « هانوى » بصورة تستدر العطف . واشترك مونيه وزملاؤه البواسل عدة مرات فى الهجوم على قوات الشيوعيين .. فاذا واتتهم الانباء بأن الشيوعيين يتحركون نحو قرية بعيدة ذهب اليها أعضاء الفيلق وحاصروها حصارا شديدا . أما تكس الذى شاهد هذه المعارك أكثر من مائة مرة فلم ينتقـد خطـط الشيوعيين او طـرق تحركاتهم او أسلحتهم او خبرتهم .. وان كانت النتائج دائما لم تكن فى صفهم ، اذ كانت تبوء بالفشل لسبب أولسببين همـا أن الشيوعيين كانوا يعرفون شيئا عن الانتشار الدفاعى الذى كان يعمد اليه أعضاء الفيلق بأحكام تام ثم يصلونهم نارا حامية فى دقة مذهلة ، أو يرسلون مجموعات من رجلين او ثلاثة مسلحين بالخناجر فقط والقنابل اليدوية الى خنادق اعضاء الفيلق المتفرقة هنا وهناك ، او ربما كان الشيوعيون يمطرونهم من الخلف بنيران قنابلهم اليديوية أو غدراتهم السريعة وفى اللحظة التى يستدير فيها أعضاء الفيلق لمواجهته النيران التى تطلق عليهم كانوا يفاجئون بنيران من مراكز أخرى ..

وحارب أعضاء الفيلق بشجاعة نادرة وكان مونيه يوجههم الى مواقعهم بقدرة فذة ومهارة فائقة . ولكنهم فى كل مرة كانوا يفشلون .. وظل تكس عدة اسابيع يعمل مع فريق من الجنود المقاتلين وتحت قيـادة ماهرة ، وان أضاعت عشرين قرية أصبحت فى قبضة العدو .. وفى نهاية الاسابيع الثلاثة اتضحت لهم حقيقة أكبر من حقيقة فشـلهم ، هى أنهم لم يروا العدو مرة واحدة .. لان اطلاق النار كان يحدث دائما فى الليل وينتهى عند الفجر ، وكان العدو يتراجع ويجر معه موتاه .. حتى ظن الرجال أنهم أشتركوا فى معارك وهمية ، ولولا ضـحاياهم ما اعترفوا بخوضهم معارك حقيقية .

وفوق ذلك أصبحت مدينة (هانوى) مدينة عليلة ، سيطر عليهـا

القلق والاضطراب واستبد بها الجوع وملات جوها الاشاعات العجيبة.. وكان أسوأ شيء شعور كل انسان بمرارة الهزيمة بما فى ذلك الفيتناميون والفرنسيون والامريكيون ..

وذات يوم بعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائب الموصول والدوريات المنهمكة والدفاع الفاشل اجتمع تكس بمونيه وماك هوايت . وكأن أعضاء الفيلق قد منحوا يومين أجازة للراحة والاستجمام ، وفى مساء اليوم الثانى كان مونيه قد حل مشكلة التموين والامدادات واستعد ليأخذ قسطه من الراحة وكان تكس على وشك أن يحدث مونيه بحذر شديد عن خطة كان يفكر فيها ، فابتدره بقوله :

ـ مونيه هل وقعت مرة تحت براثن كابوس رهيب وشعرت بأنه سبق لك أن أجتزت نفس الدور ؟ .. فعندما كنت صبيا أذكر أننى وقعت تحت تأثير كابوس غريب حيث تركت البوابة مفتوحة فهرب منا عشرة الاف رأس من الماشية .. وأثناء الكابوس كنت أجلس بغباء وأراقب الماشية وهى تفر من أمامى ولا حول لى ولا قوة ، وشعرت كأن الامر قد دبر تدبيرا من ذى قبل ..

ولكن مونيه وماك هوايت التفتا الى تكس ونظرا اليه بارتباك .. وكان ثلاثتهم جالسين فى بار صغير ، وقد أفرغوا فى جوفهم زجاجتين من الكونياك القوى ..

فرد مونيه ـ كثيرا ما شعرت بهذا الشعور أكثر من مرة.. فمثلا أشعر الان بأننى أعيش تحت وطأة كابوس رهيب ، ولكنى لا أعرف الخطة أو الوسيلة للفكاك منه او التغلب عليه ..

وتشجع تكس بردمونيه وقال : الحقيقة أننا نعيش تحت براثن كابوس رهيب طويل كأننا نحارب جبلا وعيوننا مقفة .. أنظر يا مونيه ، انك تقود الرجال بحكمة وكياسة ، وتعرف متى تطلق نيرانا للارهاب وأخرى حامية تصلى بها العدو فبجميع هذه الوسائل لابد لك أن تنتصر ، ولكنك تفشل وأنا أعرف السبب ..

وكان مونيه ينظر الى تكس والغضب مرتسم على وجهه ..

وعاد تكس يقول ـ المسألة لا دخل لها بنوع القتال الفرنسى أوجنود فيلقك الممتازين وانما المسألة تتلخص فى الطريقة التى يقاتل بها الشيوعيون ، أنهم يقاتلون بطرق أخرى وقوانين مختلفة ، وانا كانسان غبى استغرق هذا الامر منى شهراً بأكمله ، فقد قرأت قوانين الشيوعيين وطرق قتالهم عندما كنت فى كوريا .. فقد وقع فى يدى كتاب لماوتسى ـ تونج ، والان يا مونيه لا تخدع نفسك ، فماو هذا الرجل ذكى ، وأنا أكره وسائله ولكنه رجل عبقرى ..

فقال مونيه ـ اننى لم أقرأ أبدا كتب ماو العسكرية ، وكل ما كتب عن الحرب قد كتب بالفعل منذ عهد طويل .. مثـــال ذلك أن كلوزويتز وجومينى دونا كل صغيرة وكبيرة عن الحروب وطرق القتـــال ، ومن المستحيل أن يضيف انسان شـــيئا الى ماكتباه ! ..

ورد ماك هوايت بهدوء ـ ربما يكون تكس على حق يامونيه ! فمـاو انسان مجتهد ماكر .. فقد قرأت أعماله السياسية ، وهو شـــيوعى من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وهو خبير بطبائع الرجال .. فنوع القتال الذى قام به فى الصين قد يكون نفس القتال الذى يقوم به اليـوم الشيوعيون الاسيويون .. !!

فقال مونيه : انا لا أعنى ان أقلل من قدر ماو يا سادتى ، ولكنى أشك كثيرا فى أنه كتب شيئا جديدا عن الحرب .

وتأوه تكس وفهم أن مونيه لا يرغب فى أن يتعلم شيئا جديدا عن الحرب ، لذلك قال : حسنا اذن فربما تكون على صـــواب فلم أدرس تاريخ الحرب بالطريقة التى درستها أنت .. فاستمع الى بعض الاراء التى كتبها ماو عن الحرب فى كتابه ثم قل لى أين وجدها ..

أولا وقبل كل شىء حدثنا عن سبب وجود العدو دائما فى مؤخـرة صـــفوفك ..

قال ماو فى كتابه : « ارسل عاملين مقدما الى قرية سوف يقـــاتل فيها الشيوعيون ويستحسن أن يكون الرجلان من نفس القرية ويجب أن يستقرا بها وأن يعيشا فيها كأى مواطن اخر فيها ، فيما عدا تزويدهما ببعض أكياس بها قنابل يدوية وبعض البنادق الصـــغيرة التى يجب أن يخفوها عن الانظار . ثم يقومان بتوجيه الرجال الذين ينحازون اليهمـا واذا تردد انسان فى اظهار شعوره فعليهما أن يواجهاه بقولهما اما أن تقاتل معنا أو تموت .. والأمر بسيط جدا وسهل وميسور .. »

وكان مونيه يستمع بانتباه ويهز رأسه موافقا ..

واستمر تكس يقول : أى مونيه .. عندما يذهب بعض أفراد فيلقك الى قرية من القرى يكون بها بالفعل ستة من الاعداء وراءهم .. وهؤلاء الاعداء لا يرتدون الزى العسكرى ولا يشهرون أسلحتهم الا اذا دقت ساعة الخطر ، ولكن هل تستطيع ان تتخيل ان خمسة أو ستة منهم فى مركزهم هذا يستطيعون ان يصلوك نارا حامية ؟ تصور ستة من رجالك فى نفس مراكز الشيوعيين وهم يعملون من وراء الصفوف ؟

فسأل مونيه ـ وما الاشياء الاخرى التى ذكرها ماو ؟

ثم أشعل سيجارة وأخذ ينصت باهتمام ..

وظل الرجال الثلاثة لمدة ثمانية ساعات ونصف وهم يتحدثون عن تكتيك واستراتيجية ماو ، وكان تكس وماك هوايت يشعران بأن مونيه يود لو استخدم تكتيكات ماو وطبقها فى حربه مع الشيوعيين ولكنه كان فى كل مرة يعود الى آراء كلوزويتر حول «مركز الدفاع» واخيرا نظر الى الرجلين وقد اصفر وجهه وقال !

ـ فى هذا الكفاية أيها السادة .. حتى لو كنتما على حق فليس لدينا الوقت لتغيير خططنا فاننا نخسر بسرعة ..

ثم حملق فى قاع كأس الكونياك وعاد يقول : (تصوروا أمة انجبت «نابليون و فوش و ليوتى » قد قهرها عدو بدائى .. »

فرد عليه تكس : ولكن يامونيه .. لا تكن غبيا ..

فقال ماك هوايت أنه على حق يا تكس .. لقد تحدثنا بما فيه الكفاية ..

وتحول تكس الى ماك هوايت وهز رأسه .. وكان وجه ماك هوايت طفح بالنذير ولاحظ تكس ان ماك هوايت كان مصيبا فيما قال لانه حتى هذه اللحظة لم يكن مونيه قد اقتنع بعد ..

وبعد عشر دقائق قدم رسول نحو الرجال الثلاثة وبيده رسالة عاجلة لمونيه .. فقد كانت اخر مناطق الدفاع عن «هانوى» تنهار. فهناك نحو التلال والسهول وراء (هانوى» كان الوف الشيوعيين يزحفون نحو المدينة وحول الصخور ووراء القبور .. وكانت الثلاثة أسابيع التالية جحيما لا يطاق ... وحاول مونيه أن يعيد ماك هوايت الى سفارته بسارخان ، ولكنه رفض واحتاج الفيلق الى ذخيرة وطعام كما احتاج الجنود الى النوم الذى طار من عيونهم فاحمرت أطرافها وأصبحوا تحت رحمة القدر ..

لقد قاتلوا قتالا عنيفا فى الوحل حول مزارع الارز فاذا أصيب انسان كان يلقى بنفسه ورآء أعواد الارز فيختفى عن الاعين .. وأساء الوحل اساءة بالغة الى البنادق وعطلها عن العمل ، ولم تكن هناك قاعدة يمكن تركيز مدفع رشاش عليها ..

وكان الجنود قد أصيبوا بالدسنطاريا واصيب اخرون بالحمى والبعض الثالث بالانكلستوما أو بأمراض جلدية خطيرة .. ولم يكن هناك طعام كاف أو ماء نقى .. وكانوا يشربون أى ماء يصادفهم .. ويقبلون الامور على علاتها ..

وأصيب مونيه وتكس فى هذه المعارك .. كانت اصابة مونيه فى

مرفقه الايسر وبعد ان جبر كسره عاد يقود للفيلق مرة أخرى . وكانت اصابة تكس من شظايا قنبلة يدوية فى عجزه أى أنه أصيب للمـــرة الثالثة فى ثلاثة حروب متتابعة وكان يتوقع ذلك كله ..

وذات يوم غير مونيه خططه وقرر ان يستخدم خطط الشيوعيين .. والسبب فى تغيير رأيه جاء مباشرة عقب أن لعب عليه شيوعيو فيتنـام لعبة بارعة .. لم تكن هذه هى الخدعة الوحيدة بل قد حدث مثلها من قبل ، ولكن هذه الخدعة بالذات لم يلجأ اليها الفرنسيون وحدثت لرجال مونيـــه نفســـه ..

ذهب جيم دافيس ـ الزنجى ـ واحد رجال فيتنام أسماه رجال الفيلق باسم آبا شى ـ فى دورية استطلاعية الى منطقة أمام قرية صغيرة كان يدافع عنها رجال الفيلق . ذهب الاثنان مساء على أن يعودوا فى الفجر ، وكانا يحملان معهما بنادق صغيرة واشارة نارية تصدر عن بندقية خاصـــة ..

وعاد الاثنان عند الفجر من غير بندقيتهما وهما يزحفان على بطنيهما .. ورآهما كل من مونيه وماك هوايت وتكس وهما يقفان فجأة ويسيران نحو القرية وكان الوحل يتساقط من ملابسهما وكانت مشيتهما غريبـة توحى بأن حدثا قد وقع ..

وسار الرجال الثلاثة ليقابلوهما ..

وكان دافيس يجر أباشى وعلى بعد خمسين قدما رأوا الدم يسيل من وجه دافيس ، وعلى بعد خمسة وعشرين قدما رأوا عينه اليسرى وقد خرجت من مقرها واستقرت على وجهه ، وكانت العين الميته تنظر الى الارض اما عينه اليمنى فكانت لا تزال قوية على حالها ، وكان دافيس يغلى من الغضب ..

وسأله مونيه : ماذا حدث يا دافيس ؟

فأجابه الزنجى : لقد قبضوا علينا يا ميجور .. ثم تركونا نذهب ولكن كان عليهم أولا أن يلعبوا لعبة .. أول جزء من هذه اللعبة هـو سحل عينى اليسرى .

وسأل مونيه آباشى باللغة الفيتنامية ـ وماذا فعلوا بك يا اباشى ؟

وكانت عينا آباشى جامدتين من قسوة الالم ثم فتح فاه وبل شفتيه بلسانه وصدر عنه صوت كأنه الحشرجة ..

وصرخ دافيس ـ أصمت يا اباشى !

وأسرع دافيس وابعد ذراع آباشى عن حنجرته . ففى رقبتـــه

عند حنجرته رأوا ثقبا كبيرا وكان الدم يسيل من هذا الثقب بغزارة..
وقال مونيه ـ لقد قطعوا حبال حنجرته الصوتية ، انها قسوة ما بعدها قسوة ودرس للفيتناميين الذين يساعدون الفرنسيين ..

وقال دافيس ـ لقد تركوا عينى اليمنى حتى تستطيع العودة ونكون دوروسا للاخرين ..

وعادت عين دافيس الصحيحة الى مكانها ومال الى الامام ثم سقط مغشيا عليه ، فأسرع اليه مونيه وأسنده على ذراعه ثم هبط به الى الارض .. وقال مونيه لتكس :

ـ ارسل فى طلب الطبيب ثم اتبعنى انت .وماك هوايت الى المعسكر ، قررت استخدام تكتيكات ماو هذه الليلة ضد قومه أنفسهم ..
اقنعت ..

الفصل الثانى عشر

دروس الحـــرب

فى اليوم التالى ذهب ماك هوايت الى « هانوى » ليحصل على نسخة من كتيب ماوتسى تونج عن الحرب ، بينما أمر مونيه جنوده أن يخلدوا الى الراحة ، فما كادت تصدر اليهم هذه الاوامر حتى هرعوا الى خيامهم القذرة وسقطوا فى ظلالها وراحوا فى سبات عميق كأنهم لن يستيقظوا أبدا ...

وفى أمسية هذا اليوم عاد ماك هوايت ومعه كتيب « ماو » وكانت الطريقة التى حصل بها على الكتاب سهلة بسيطة . فقد توقف عند أول بائع صحف وطلب اليه أن يبيعه نسخة من الكتيب ، وتنبه البـــائع الى الخطر وقال انه لا يعرف كتبا كتبها ماو .. ولم يناقشه ماك هوايت بل قال انه لو حصل على هذا الكتاب فى مدى ساعتين فســـوف يدفع له ثمانمائة قرش ، ولم يعلق البائع على ما قال ، وبعد ساعة كان قد حصل على الكتاب !

واجتمع الرجال الثلاثة فى خيمة مونيه وراح ماك هوايت يقرأ كتاب ماو بصوت عال لمدة ساعة ونصف . ولم ينظر تكس أو ماك هوايت الى مونيه فى أثناء القراءة فقد قوضت كلمات الكتاب الطريق الذى رسمه لنفسه فى الحياة والتقاليد العسكرية التى كان يؤمن بها ايمانا عميقا..

ولم يهتز مونيه فى أثناء القراءة بل جلس ويداه مشـــتبكتان ينصت باهتمام زائد الى الطرق الحربية الجديدة التى لم يكتب عنها خبراء الحرب فيما مضى ..

وما أن انتهى ماك هوايت من قراءته حتى خيم على المكان صمت مطبق وقال مونيه فى صوت جهورى : على العموم لقد كان ماو محقا وكنا نحن على خطأ جسيم .. وأرجو ألا نتحدث ثانية عن تقاليدنا .. بل دعونا نتحدث عن أى جزء من كلام ماو نستطيع نحن ان نطبقه عمليا فى صالحنا.

فأجاب ماك هوايت : ان ما يقترحه « ماو » هو سلسلة طويلة يجب أن نتتبعها حلقة حلقة ، انه شوط طويل المدى لا يمكننا بلوغه الا بمضى سنوات طويلة .. فهو مثلا عندما يقترح ارسال سياسيين مدربين قبل أن يتحرك الجيش فهو يعرف ان ذلك يتطلب وقتا طويلا وهؤلاء المدربون أو السياسيون لن يعلنوا أبدا انهم شيوعيون وانما يضعون باستمرار

آراء الشيوعيين ويثبتونها فى أذهان الفلاحين . وعندما يبدأ القتال . فان هؤلاء يقومون بتنظيم أعمال المقاومة خلف خطوط العدو ويشيعون فى صفوفه الفوضى بقدر ما يستطيعون ..

فقال تكس : وهذا يفسر لنا لماذا يمطرنا العدو دائما بنيرانه من الامام ومن الخلف فى كل ليلة حاربنا فيها ..

وأضاف مونيه : وهذا أيضا يوضح لنا لماذا يحتفظون بقلم مخابرات ممتاز فى كل قرية كنا نحاول الدفاع عنها .

وقال ماك هوايت : اسمحا لى أن أدلى برأيى عن هذه المنطقة أيها السادة .. فانى أقترح أن ننسى من الان ما سوف يحدث خلال عام . انه ليس أمامنا غير أيام قليلة فربما يمكننا استخدام أساليب ماو الحربية فى بلد آخر أما الان فعلينا أن نركز جهودنا على خططه .

واستمر الثلاثة يتناقشون عدة ساعات فى موضوعات الكتيب حتى احتواهم الليل آخر الامر فأكلوا طعاما باردا ثم دلفوا الى فراشهم المغطى بالناموسيات ، واستمر نقاشهم حتى مطلع الفجر .. ومن بين عشرات الآراء التى ذكرها ماو فى كتابه استقر رأى الثلاثة على انفاذ رأيين منها . ففى المناطق الخشنة الوعرة قال ماو .. « تراجع ثم عاود الظهور حتى يتعب العدو من المتابعة أو المراقبة .. ثم ركز جهودك على نقطة ضعف واحدة .. فان الوقت والمكان والتقهقر تعد أسلحة النصر المؤزر ..وعند نزال عدو لديه معدات ممتازة وأسلحة كثيرة فان النجاح يعتمد على خفة الحركة واستخدام الظلام » ..

أما الرأى الثانى فيتركز فى استخدام حرب العصابات ، وقد ذكر ماو فى كتابه « انه فى حالة استخدام حرب العصابات قد تنجح المجموعة فى مهمتها اذا كانت قيادتها قوية مركزة .. ويجب الابتعد مراكز القيادة التى تشن حرب العصابات عن منطقة القتال بالقدر الذى يستغرقه أحد أفراد العصابة فى العودة الى مركز القيادة بنصف ساعة » ..

فقال مونيه : هذا بديهى وان كنا لم نستخدم ذلك أبدا ..

وألقى ماك هوايت بالكتاب جانبا ونظر الى مونيه وتكس وأخذوا ينظرون الى خريطة كبيرة مفصلة لسهل « هانوى » .

أما القرية التى اختاروها للقيام بحركتهم فكانت تقع وسط المستنقعات وعلى بعد ميلين منها منطقة من الارض نبتت عليها أشجار البامبو . وهز مونيه رأسه لتكس عندما وقع بصرهم عليها ، فأى قائد حربى يختار منطقة أخرى لا توجد بها أشجار البامبو يكون مجنونا أو كأنه يلقى برجاله الى الجحيم . وكان هناك طريق يصل اليها مباشرة وفى غير انحناء تحف به الاشجار ، ويكتنفها جبل يستطيع الجنود الاختفاء فيه ..

وقال مونيه وقد قطع برأى : حسنا يا سادة ان هذه القرية هى التى

وقع عليها الاختيار ، وفى خلال ثلاثة أيام من الان نستطيع أن نشفى أمراضنا ونضمد جراحنا ٠٠ »

واقترح تكس استخدام عنصر المفاجأة ٠٠ فقد رآه يستخدم فى كوريا بنجاح باهر ٠٠ وكان الامر بسيطا جدا ٠٠ لقد أحضروا سيارة كبيرة مصفحة ركبت عليها مدافع خاصة سعة فوهاتها خمس بوصات تطلق صواريخ بحيث تقع فى دائرة قطرها مائة ياردة ، وأكد تكس لصاحبيه أنه يتعذر على أى انسان يكون فى حيز هذه الدائرة النجاة من الموت ٠

وفى اليوم الرابع تحركت القافلة نحو القرية ٠ ولاول مرة منذ عدة أسابيع كان جنود الفيلق يضحكون ويمرحون ٠ وكان مونيه قد تقدم القافلة فى حراسة لوريين مملوءين بالرجال ، وبعد نصف ساعة قادماك هوايت وتكس الفرقة الاساسية للقافلة وكانت سيارة الصواريخ على اتصال لاسلكى دائم بمونيه ٠٠ وكان ماك هوايت يركب سيارة جيب وراء سيارة الصواريخ مباشرة ٠

وأظلم الليل فانتقل المركز القيادى للفرقة المهاجمة من الطريق الرئيسى الى طريق آخر قصير حول حقول الارز ٠٠ واتصل تكس بصديقه مونيه بالراديو وأخبره انه وصل الى مركزه ٠٠ وجاء صوت مونيه واضحا كل الوضوح وهو يقول : اننا ننتشر ونوزع مراكزنا جنوبى القرية ٠ وقد غادر فيتناميان القرية منذ نصف ساعة بعد أن أخذنا مراكزنا ٠٠ وكانا يتجهان نحو الشمال وأظن أنهما يدوران وسوف يتجهان نحو شجر البامبو ٠٠ وسوف تمضى ساعة قبل أن يبدأ أى شىء ٠٠

وتحركت كتل اللوريات بهدوء وقام تكس بتوزيعها فى خط طويل خلف التل الذى يفصلهم عن القرية وجلسوا ينتظرون ٠٠

وبعد ساعة واحدة سمعوا أصواتا نارية ضعيفة تبعتها طلقات سريعة من مدفع رشاش وسمع صوت مونيه مرة أخرى فى الاجهزة اللاسلكيه : أعتقد انهم وقعوا فى المصيدة ٠٠ وهم يظنون أننا قوة ضعيفة ٠ وقد بدت طلائع الدوريات الاولى ولم يستخدموا بعد مدافعهم الرشاشة ٠٠ خذ سيارة أسلحة وركب عليها المدافع الرشاشة ذات الخمسين طلقة فى الدقيقة الواحدة واخترق صفوف هذه الدوريات على الطريق ٠٠ ثم عد سريعا الى مركز القيادة ٠٠

فرد تكس بعد أن أمر السيارة المسلحة بالاتجاه نحو رأس العامود وخلفه مباشرة سيارة محملة بالقناصة من الرجال وبعد ذلك سيارة الصواريخ ٠

وأمر تكس جنوده : أطفئوا أنوارسياراتكم حتى تبدأ المدافع الرشاشة فى اطلاق النار ثم أطلقوا كل شىء لديكم وما أن تطلق الصواريخ حتى تديروا سيارة المدافع الى الخلف وعودوا بها الى الطريق ، واذا كان علينا أن نترك سيارة فسنترك سيارة الصواريخ ولا أريد رجلا واحدا يظل بها بعد أن تفرغ حمولتها ٠٠

والتفت الفرقة حول التل فى هدوء وكان رجال مونيه يحددون معالم الطريق « ببطاريات يدوية » لا ترى ، ولم تقلل الفرقة سرعتها عندما وصلت الى القرية بل مروا خلالها فى منتهى الهدوء ، وفجأة وصلوا الى السهل . وكان تكس يجلس بجوار سائق سيارة المدافع الرشاشة وهو يحملق فيما أمامه فرأى حركة فجائية فى أعلى الطريق ، فمال بهدوء وأمر جنوده أن يطلقوا مدافعهم الرشاشة على مقدمة الطريق ..

وانطلقت طلقات المدافع الرشاشة كالسيل العارم فى اتجاهات أربعة ، وفى اللحظة نفسها أدار تكس أنوار السيارة فرأى أمامه على بعد خمسين ياردة جماعة من الفيتناميين يزيد عددهم على خمسين رجلا قد خطفت الاضواء أبصارهم فجمدوا فى أماكنهم ثم ما لبثوا أن اندفعوا الى يمين الطريق فاتجهت نحوهم فى الحال المدافع الرشاشة وأصابتهم اصابات مباشرة وتطايرت أجسامهم وأشلاؤهم وبنادقهم المحطمة فى الهواء ثم هوت الى الارض على طول الطريق . ورغم ان السيارة كانت مندفعة بسرعة جنونية فلم تمض ثوان حتى كان كل شىء قد انتهى وكانت المعركة ككابوس رهيب من قسوة الحركة وكأنها الصاعقة .. ثم ارتطمت عجلات السيارة بأجسام ثلاثة رجال وقعوا على الطريق وبعد لحظة واحدة سمع تكس أصوات البنادق وهى تنطلق من اللورى ..

وهدأ المدفع الرشاش المركب فوق رأسه وترك تكس الانوار كماهى ثم مال الى الطريق الضيق وكان يشغله أمران ، أولهما دعاؤه الى الله أن يتحمل الطريق ضغط السيارة وثقلها ، وثانيهما قياسه بالدقة المسافة التى يجب أن تقف عندها سيارة الصواريخ أى على بعد خمسمائة ياردة من أشجار البامبو ، وقد قاسها فى الليلة السابقة فى غلس الليل على ضوء مصباح يدوى وكانت المسافة حوالى ٦٠٠ ياردة ، فاذا انطلق بالسيارة بسرعة عشرين ميلا فى الساعة لمدة خمسة عشرة ثانية قبل ان تصطدم الانوار الكشافة بأشجار البامبو فان سيارة الصواريخ تكون على بعد خمسمائة ياردة من الدغل . وفى هذه اللحظة رأى الانوار تلمس الاشجار المبيضة والمخضرة . فأخذ يعد بصوت عال : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. وعند رقم عشرة قام من مقعده وعند خمسة عشر أعطى الاشارة الى رجال الصواريخ وحدث شيئان فى الحال .. توقفت العربة بعنف وانطلقت منها الصواريخ كأن أبواب الجحيم قد فتحت على مصاريعها وكانت الاصوات الصادرة عنها مرعبة قاسية ثم صدرت أصوات أخرى والصواريخ تشق طريقها نحو الفضاء .. وبعد لحظتين أصابت الصواريخ الاهداف وومضت الانوار خلال أشجار البامبو ثم استحالت هذه الاضواء الى كتلة نارية صفراء ثم انفجر الدغل بما فيه، ولعدة لحظات أخرى ظلت النيران معلقة فى سماء الدغل وقد تناثرت معها أجسام ستة رجال كالدمى .. ثم اختفى الضوء وسمع دوى ارتطام الاشياء وهى تهوى الى الارض .

وصرخ تكس : فلندر هذه السيارة بأقصى سرعة ممكنة ..

وتراجع السائق بالسيارة ، وفى أقل من دقيقة واحدة حول سيارة الصواريخ ثم خرج الى الطريق العام ..

وقال تكس لسائق سيارة الصواريخ وهو يستدير بسيارته : لا داعى لترك هذه السيارة بل عد بها الى الطريق بعد أن تطفىء أنوارها .. فسوف نرى بوضوح من الاضواء الخلفية التى تحمى مقدمتنا .. وعندما تصل الى القرية أضىء الانوار وانطلق بأقصى سرعة ..

وعادت الفرقة الى الطريق العام بعد أن توقف القتال بالبنادق حول القرية . وأخبر مونيه تكس فيما بعد انه عندما انفجر الدغل توقف الفيتناميون عن اطلاق النار وفروا فى كل اتجاه .

وتوقفوا فى القريه بعض الوقت ليلتقطوا دورياتهم الاستطلاعية ثم قفلوا راجعين جميعا الى « هانوى » .

***

قال جنرال أمريكى بصوت خشن لتكس :

« لم أسمع عن هذه المهزلة فى تاريخ حياتى كلها .. أولا : لقد خالفت قوانين الحرب والتحمت مع العدو فى معركة وكان المفروض أن تكون مراقبا محايدا .. ثم تبلغ بك الصفاقة أن تأتى الى هنا لتخبر مجموعة من الضباط المجربين كيف يديرون الحرب والمعارك » ..

وكان تكس ومونيه وماك هوايت جالسين فى قاعة اجتماعات كبيرة بالدور الثالث فى قلعة هانوى ، وفى نهاية المائدة الطويلة كان يجلس ضابطان فرنسيان برتبة أميرالاى وأربعة جنرالات والامريكى الذى تحدث منذ قليل ..

فأجاب تكس بكل هدوء : جنرال ! لم التحم شخصيا فى معركة من المعارك ان كل ما فعلته اننى جلست بجوار السائق ولم ألمس سلاحا واحدا ولم أطلق رصاصة واحدة . وهذا كله مسموح به طبقا للوائح والقوانين التى تمنح للمراقبين المحايدين ..

فرد عليه الجنرال : استمع الى ياولشك لا تحاول أن تخدعنى .. ولا تقل لى أن فرنسيا اخترع فكرة سيارة الصواريخ .. لقدكنت هنا..

وقاطعه الجنرال الكبير بصوت أجش :

ـ يا جنرال ! اننا لا يهمنا فى كثير أو قليل حياد مراقبيك .. وكل ما يهمنا الفكرة المدهشة التى اشترك فيها ميجور مونيه والسفير ماك هوايت والتى غير بموجبها الجيش الفرنسى خططه طبقا لخططالعصابات الشيوعية ..

فقال جلبرت ماك هوايت بهدوء : سيدى الجنرال .. أنا الذى طلبت ذلك ، فمنذ شهر ديسمبر عام ١٩٤٦ والفرنسيون يقاتلون فى حرب ضروس طبق فيها الشيوعيون بكل دقة تعليمات ماو التى وردت فى كتيبه ، وأنت رجل عسكرى ـ فاسمح لى أن أقول ـ انك اقترفت خطأ أراد « ماو » أن تقترفه . لقد تجاهلت كل دروسه التى ألقاها عليك فى

فتالك مع الشيوعيين فى هذه المناطق ·· لقد أهملت الحصول على المعونة السياسية والاقتصادية من الفيتناميين أنفسهم رغم أن « ماو » ذكر بل أثبت بالدليل القاطع منذ زمن طويل ان الاسيويين لن يقاتلوا بأية طريقة أخرى ·· أيها السادة عندى سؤال واحد محرج : هل قرأ واحد منكم كتابات ماوتسى تونج ؟··

ومرت لحظة سكون ، احمر بعدها وجه الجنرال الفرنسى العجوز الحكيم ، بينما ابيضت وجوه الجنرالات الاخرين ومال ماك هوايت الى الامام فى انتظار الرد على سؤله ··

وأجابه الجنرال الفرنسى العجوز بقوله :

« اذا كنت تقترح أيها السفير ماك هوايت أن على الامة التى أنجبت نابليون أن ترجع الى تعليمات بدائية صينية فى التعليمات العسكرية ، فدعنى أقل لك انك لا تقترف خطأ جسيما فحسب ، بل انك تسبنا سبا علنيا ·· »

فأجابه ماك هوايت : لم يكن هذا ما قلته ··لقد سألت اذا كان أحدكم قد قرأ لماو ؟

فرد الامريكى : بالطبع لا ·· لم نقرأ له ·· ولا أنا

وعض الامريكى شفته وكأنه يمنع نفسه من الكلام ·· وكان ماك هوايت يعلم جيدا أن ثروته الشخصية وعلاقاته الدبلوماسية كانت تمنع الجنرال من طرده خارج هانوى تحت حراسة مسلحة

ثم هز ماك هوايت كتفيه وقال : الواقع أيها السادة انكم ترفضون أن تروا أو تسمعوا ··

وهب مونيه واقفا وكان مربد الوجه ويداه ترتعشان وقال :

ـ أيها السادة · اننى أنا وحدى المسئول عن هذه العملية التى وصفناها لكم منذ قليل ·· انها تختلف عما تعلمتم فى « سان سير » أو كل ما تعلمه الجنرال الامريكى فى وست بوينت ولكنها نجحت ··أقول لكم انها نجحت نجاحا مذهلا ·· ولو أتيحت لى الفرصة فسوف أكرر هذه العملية أكثر من ألف مرة ·· فطوال شهور الحرب التى قضيتها فى فيتنام كانت هذه العملية هى الاولى التى ذقت فيها حلاوة النصر ·· فاذا طبقت هذه النظرية فانها سوف تحيل الهزيمة الى نصر محقق بدلا من نصر تكتيكى لا أهمية له ·· واذا كان هناك انسان يجب أن تعاقبوه فأنا هو ذلك الانسان وحده ·· ولكنى أرجوكم ألا تسألونى أن أغير رأيى فى شىء رأته عيناى لان خبرتى تعلمنى ما يجب على عمله فى مثل هذه الظروف والملابسات ··

ولم يكن هناك ما يقال بعد ذلك وبحركة من الجنرال الفرنسى غادر الثلاثة المكان واتجهوا مباشرة الى أقرب « بار » وأخذوا يجرعون كؤوس الشراب فى هدوء وصمت ·· وما أن أفرغوا أول زجاجة حتى تناولها

هوايت بين يديه ثم انهال بها على حافة المائدة فتحطمت وتناثرت قطعها فى الهواء ثم قال : لقد شعرت بحاجة تدعونى الى فعل ذلك٠٠فلا تهتموا أيها السادة بالعقوبة المنتظرة فلن يحدث لكم شيء ٠٠ ففى جانبنا رجال أغبياء كما فى جانبنا أيضا رجال ممتازون ولن يستطيعوا أن يعاقبوكم على شيء يقال عنه ببساطة « اننا نستطيع أن نتعلم من أعدائنا » ٠٠

***

بعد أن تم جلاء القوات الفرنسية عن « هانوى » بعد شهور مريرة من المعارك والقتال المستمر وبعد أن فقدت فى تلك المعارك الارواح الكثيرة اضطر الفرنسيون الى الدخول مع الفيتناميين فى هدنة ٠٠ واتفقوا على تسليم مدينة « هانوى » الى الجيش الشيوعى المنتصر ٠٠

وشاهد ماك هوايت وتكس ومونيه هذا الجلاء ٠ وغادر الفرنسيون المدينة وكأنهم فى مهرجان ملون دقت فيه الطبول ونفخت الابواق وكانت ملابس الجنود مزركشة ، جميلة ، نظيفة ، وأحذيتهم تلمع فى الضوء٠ وكانوا يسيرون فى صفوف منتظمة خلال شوارع هانوى المقفرة ٠وكان سكان هانوى ينظرون الى الاستعراض فى عجب ودهشة ٠٠ وكذلك مونيه وماك هوايت وتكس ٠٠ وكأن هذا الاستعراض لجيش منتصر !

وخلف جنود الاستعراض كانت هناك خطوط طويلة لدبابات سريعة الحركة ومدافع أوتوماتيكية وعربات لا عدد لها بها مجموعات من الرجال يحملون فوق ظهورهم أحدث أنواع البنادق الامريكية ٠ وعلى البعد كانت صفوف أخرى من الطائرات الفرنسية على وشك الرحيل ٠

وقال تكس : انه مشهد جميل ٠٠

فرد مونيه : مشهد جميل ولكن لا معنى له ٠٠ فلم يهتم انسان أن يقول لسائقى الدبابات انها لا تستطيع أن تعمل فى مخاضات الوحل ، أو لهذه البنادق انها لم تجد عدوا تصيبه !

وعندما انتهى الاستعراض الجميل نزعت الاعلام الفرنسية من واجهات البيوت والاماكن العامة فى المدينة ٠ وانحرفت آخر سيارة نحو ركن من الاركان وكان الرجال الثلاثة يقفون فى الميدان صـــامتين . ولم يكن فى الشارع أحد وقد أغلقت جميع النوافذ والشرفات ٠

وظهرت طلائع القوات الشيوعية فى ملابسها الجميلة فى ســيارات روسية فرأوا أول جندى شيوعى يصل وكان ضابطا يركب دراجة ويرتدى بذلة مخططة وحذاء تنس وقبعة صغيرة ٠٠ وكانت تتدلى على كتفه بندقية ٠٠ ووراءه فرقة من الجنود ترتدى زيا عسكريا مختلفا كأنه من مخلفات الجنود الفرنسية ٠ وكان أغلبهم عراة الاقدام ونصفهم يحمل بنـــادق ويتمنطقون بأحزمة بها قنابل يدوية ٠٠ وكان كل واحد منهم يحمل فوق ظهره أيضا كيس أرز ٠٠

فقال مونيه : أنظر جيدا يا تكس وقل لى : هل ترى ما أراه .. ان ثلاثة من هؤلاء الرجال يحملون بنادق مصنوعة من الانابيب ..

وكان هذا صحيحا .. لان ثلاثة منهم كانوا يحملون بنادق مصنوعة فى بيوتهم .. وكان تكس يفكر ، فى هذه اللحظة ، فى هؤلاء الجنود الذين كانوا يحاربون فى معارك لابد أن يكون قد مضى عليها ثلاثة قرون. وكان هؤلاء الجنود يقطعون المسافات الطويلة على أقدامهم ويحملون على ظهورهم احمالا ثقيلة وكانوا يبدون فى براءة وطهر رغم منظرهم الهزلى . ولكن كان هؤلاء هم الذين حاربوه هو ومونيه عدة أشهر والذين لم يقهروا غير مرة واحدة ..

ورفع الضابط يده وهو على دراجته فتوقف صف الرجال وفى غمضة عين اختفى هؤلاء جميعا فى البيوت وخلف الاسوار وبدا الشارع فارغا الا من الضابط ونادى مونيه الضابط باللغة الفيتنامية وأخبره بأنهم حراس المؤخرة وسوف يرحلون فى الحال .. وابتسم الضابط وأشار اليهم بيده ثم صرخ يقول شيئا وفى الحال ظهر رجاله من الشقوق ..

وكان تكس يعلم ان هؤلاء الرجال قد جاءوا الى المدينة من التلال والضواحى ليروا المدينة التى قهروها .. ولم تكن هناك ضرورة أخرى للانتظار وعلى البعد كانوا يسمعون موت الجيش الفرنسى المتقهقر .

وقال تكس يخشونه

والان فلنذهب .. لقد انتهت هذه الجولة .. وقد خسرنا مرة أخرى

الفصل الثالث عشر

ما الذى تفعله لو كنت رئيسا ؟

لعل « يو مونج سو » من أشهر الصحفيين فى بورما ان لم يكن فى جميع مناطق جنوب شرقى آسيا .. ويتردد اسمه دائما حيثما كانت الصحافة العالمية مادة للمناقشة .

و « يو مونج سو » هذا خريج احدى الجامعات ، قضى وقتا طويلا فى الولايات المتحدة الامريكية ، ويتكلم اللهجة الامريكية ويجيدها وهو كاثوليكى رومانى ، حارب بجانب الامريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية فى شمالى بورما وجنوبى الصين ، وهو يكره الشيوعيين وبمقتهم ..

وفى عام ١٩٥٤ فى احدى حفلات الغداء التى أقيمت فى « رانجون » تكريما للسفير « ماك هوايت » وجه أحدهم الحديث الى « يو مونج سو » قائلا « لقد قلت هيبة الانجليز فى جنوب شرقى آسيا ، فماذا ترى فيما وصلت اليه هيبة أمريكا ؟ »

فأجاب يو مونج سو :

« يا لامريكا المسكينة .. لقد فقد الانجليز هيبتهم فى آسيا بعد مائة عام .. أما أمريكا فقد فقدت هيبتها فى عشر سنوات .. وليس من شك فى أنها تستطيع رد هيبتها فى عامين لو أرادت ذلك ..

وفى اثناء المناقشة التى تلت ذلك رد يو مونج سو على الاسئلة التالية :

ما الاسباب العامة التى ادت الى ان تفقد امريكا هيبتها ؟

ـ ان الامريكيين فيما اعلم اصدقاء متحابون فى بلادهم ويقبلون على الحياة وما من احد زار أمريكا وعرف البلاد على حقيقتها والا واكن لاهلها كل احترام وتقدير ، ولغير ما سبب ظاهر فان الامريكيين الذين قابلتهم فى بلادى غير هؤلاء الذين عرفتهم فى الولايات المتحدة الامريكية . ان تغييرا خفيا يطرأ على الامريكيين الذين يذهبون الى بلاد أجنبية .. فيعزلون انفسهم اجتماعيا ويعيشون عيشة تميل الى الادعاء ، فربما تعتريهم حالة خوف او ربما تنقصهم الدربة فيرتكبون حماقات لجهلهم .. لقد زرت روسيا أيضا . ورغم انى اكن للروس بعض التقدير لاكله .. الا أن الفرد الروسى الذى اقابله فى بورما يترك فى نفسى اثر لاينسى ، ولا يكاد المرء يلقاهم فى الطرقات الا قليلا .. فقد فهموا شعورنا واحساسنا ويحاولون

دائما عدم مضايقتنا .. وهم فوق ذلك يتكلمون ويقراون لفتنا وليسوا فى حاجة أى مترجمين او خدم بورميين .. لذلك لانعرف الكثير عن امورهم الخاصة او الشخصية ..

« هل تستطيع ان تذكر بالتفصيل الاشياء التى يرتكبها الامريكيون فيغضت لها البورميون ؟

ـ نعم .. اقول بصراحة انه قبل ان نرفض نهائيا اى عون اخرمنكم لم نستسغ الحياة اليومية التى كان يحياها رجالكم الاقتصاديون فى بورما .. فالفردمنهم يحضر الى بلادنا وهو يظن انه فى درجة سفير ، أو على حد تعبيركم « اجميع رؤساء ولا من هنود » حتى الكتبة يتصرفون كانهم رؤساء بعثات . فاجور الخدم وايجارات المساكن ترتفع الى ارقام خيالية ويعيش افرادكم احسن مما يعيش قوادنا وهذا يجرح شعورنا وكبرياءنا

ان كل ما رأيناه بهرجة واسراف .. منذ سنوات مضت سمعنا الكثير عن الطريقة التى ستساعد بها امريكا بلادنا . وهرع الى رانجون عدد كبير من مندوبى الصحافة الامريكية ـ كلهم مدرج فى كشوف مرتبات الدولة ـ واخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم من فوق المنازل عن المنحة الامريكية والمعونة التى سوف تقدمها حكومة الولايات المتحدة الامريكية الى بورما .. حقيقة ربما كانت هناك منح كثيرة ولكن الناس لم يروها ولم تحس بها الصحافة اطلاقا ..

هل تذكر بعض الامثلة ؟

ـ اذكر انه منذ سنوات قليلة مضت كانت هناك دعاية كبيرة حول توريد الة ضخمة لاستخراج الاصداف من قاع البحر تتكلف ثلاثة ارباع مليون دولار ، ستقدمها الولايات المتحدة الامريكية منحة الى بورما . . وهللت الصحف الامريكية لهذه المنحة العظيمة التى فوق قيامها باستخراج الاصداف سوف تنظف الانهار وتجعل طرق المواصلات النهرية سهلة ميسورة فتزدهر بذلك التجارة فى المناطق الداخلية البعيدة التى لم تعرف الاسواق التجارية من قبل .. وكانت البلاد فى حاجة الى شىء من هذا القبيل .. وسر الشعب لهذا الخبر .. وبدأت الطبقة الوسطى من الفلاحين تعلق الامال على تصريف محاصيلها فى المستقبل بفضل هذا الاختراع كما انه صدرت التعليمات الى بناة المراكب بوضع خطط لتصميم مراكب كبيرة تحمل اوزانا ثقيلة ..

واخيرا جاء اليوم الذى سوف تسلم فيه الالة .. حتى ان الامريكيين افترحوا على رئيس الوزراء الحضور ليشهد وصول الالة الضخمة ، وارسلت الصحف المحلية محرريها ومصوريها وجاء مكتب الاستعلامات الامريكى ومعه اجهزة التسجيل ليتسنى اذاعة الحفل على موجات الاثير .. وعندما انزلت الآلة الى الميناء اتضح ان عمرها خمسة وعشرون عاما وانها شحنت بعد ان تم ترميمها واصلاحها ، واتضح كذلك انها صناعة انجليزية اكل عليها الدهر وشرب فى اليابان وتركت فى العراء لعوامل الصدأ والتاكل .. وكان هذا مخيبا للامال ، ولكى نتم القصة نقول : ان الخبراء الامريكيين الذين جاءوا مع الالة لم يستطيعوا تشغيلها او ادارتها

فاحضروا بالطائرة بعض الخبراء اليابانيين وكانت مهزلة واية مهزلة .. ان أحداثا كهذه جعلت كثيرين من البورميين يشكون فى صلاحية المعونة الامريكية !! ..

وفى عام ١٩٥٣ كانت بورما فى حاجة ماسة الى المال والى المساعدات الفنية ومع ذلك رفضنا معونة الولايات المتحدة الامريكية !!

فلم كان ذلك ؟

أولا : لان الامريكيين قد أساءوا الينا فى دعاياتهم الجوفاء وجرحوا شعورنا من المن علينا بهذه المنح او المساعدات .

ثانيا : وجود عدة حوادث كالحادثة التى سبق ان ذكرتها ، ورغم المال الأمريكى انهال على بورما فلم نحس بأثره ..

ثالثا : لقد غضبنا أشد الغضب من حادث « ك. م. ت. » .. فاذا أضفنا هذه الاحداث بعضها الى بعض ، فان بورما لن تصبح فى حال تيسر لها التغاضى عن هذه الامور من اجل الدولارات ! ! .

فما هذا الحادث الذى أطلق عليه « ك. م. ت. » ؟ ..

عند ما هزم الصينيون الشيوعيون القوات الوطنية الصينية عام ١٩٤٧ فان عشرة آلاف من قوات شانج كاى تشيك فرت من الصين الى بورما وعاشت فى الجزء الشمالى الغربى من بلادنا .. وكنا فى ذلك الوقت أمة جديدة ، لدينا الكثير من المشاكل فلم نستطع عمل شىء تجاه هذا العدد الكبير من اللاجئين فى مناطقنا . وبدأ هؤلاء الصينيون الوطنيون يستصلحون الاراضى وكان عليهم ان يجمعوا المال اللازم لذلك الاصلاح فبدأ هؤلاء الرجال فى تجارة الأفيون أو عمدوا الى النهب والسطو . وفى عام ١٩٥٢ بدأ شيانج كاى تشيك بمدهم بطريق الجو .. وكان هدفه من ذلك محاربة الصينيين الشيوعيين وعلى كل حال لم يكن لجنوده الحق فى دخولهم الى بلادنا .. ثم علمنا أنهم كانوا يرتدون الملابس الامريكية العسكرية ويستخدمون المعدات الامريكية وكنت أعلم أن الولايات المتحدة الامريكية لم تمدهم بشىء انما الذى كان يمدهم بالمعونة هو شيانج كاى تشيك ..

وأرادت بورما أن تعرض الامر على الامم المتحدة ، ووافقت أمريكا بشرط أن يطلق على هذه الفرق اسم « الوطنيين الصينيين » ولا يذكر شىء عن الملابس الامريكية العسكرية .. ومع ذلك فكل انسان فى جنوب شرق آسيا كان يعلم كل شىء عن ذلك . كل انسان كان يعلم حقيقة الامر ما عدا الامريكيين أنفسهم . فلم يطلعهم انسان على هذا الامر ..

ولما قلنا اننا لانفهم لماذا لا نذكر أسماء البلاد التى لها ضلع

فى الموضوع قيل لنا اننا اذا ذكرناها فربما تقطع المعونة الامريكية . وكان هذا هو كل ما سمعناه رغم أننا كنا فى حال ضنك مالى وفى أشد الحاجة الى معونة اقتصـادية وفنية ، فقلنـا للامريكيين ان يأخذوا معونتهم ويرحلوا ..

لقد كانت المسألة مسألة كرامة كما نسميها نحن الاسيويون ... فكرامتنا عامل من عوامل حياتنا وروسيا تفهم ذلك وتقدره ..

ـ هل ترحبون الآن بالمعونة الامريكية الاقتصادية والفنية ؟ ..

ـ نعم .. أقترح أن تكون المساعدة الفنيـة بنفس الطريقة التى قدمتها شركة فورد الى أندونيسيا . فقد لاحظ المسئولون فى شركة فورد أن جميع سياراتهم التى يرسلونها تذهب الى جراج هولنـدى لاصلاحها واعادة ترميم محركاتها .. لان الاندونيسيين لم يعرفوا كيف يصلحون سياراتهم . وعند ما أرسلت شركة فورد مجموعة من الافراد الاندونيسيين الى الولايات المتحدة فيما بعد بدلا من أن تجعلهم يتدربون على صيانة هذه السيارات فى اندونيسيا ، قالوا لهؤلاء الاندونيسيين أن يبحثوا الأمر جيدا ويذكروا بالتفصيل كل شىء يحتاجون اليـه ، فأشار الفريق الاول من الاندونيسيين الى جراج كبير وقالوا هذا هو ما نريد مثله فى بلادنا . وفى الحال وضعت التصميمات اللازمة لبناء مصنع كبير وعملت الآلات الامريكية جنبا الى جنب مع الآلات الاندونيسية حتى استطاع الأندونيسيون آخر الامر أن يديروا مصـنعهم الـكبير ويرمموا ويصلحوا السيارات ، ثم عاد الخبراء الامريكيون الى بلادهم . وهـذا نوع المعونة التى نحتاج اليها ..

ـ لو كنت رئيسا للولايات المتحدة الامريكية فما الذى كنت تفعله لرفع هيبة الولايات المتحدة فى جنوب شرقى آسيا ؟ ..

ـ دعونى أقص عليكم قصة .. منذ سنوات مضت حضر امريكيان الى بورما ، ـ زوجان اسمهما مارتن ـ كمستشارين لمدة قصيرة .. وكانا يعيشان فى هدوء لدرجة أن أحدا لم يعرف عنهما الـكثير .. ثم انتقـلا الى الشمال الى ولاية شان وهى منطقة برية موحشة .. ولم يحضرا معهما كتبا أو افلاما سينمائية أو شيئا من الاجهزة التى يحضرها عادة مراسلو الجرائد والتى تسىء الينا كثيرا ويعتمد عليها الامريكيون اعتمادا كبيرا .. ولم يكن لهما سيارة أو خدم ، فاستقرا فى قرية ، وسكنا فى بيت متواضع وبدءا يعيشان هناك ..

ولمـا تعلما اللغة البورمية بدأ البورميون يزورونهمـا فى منزلهما ويتحدثون اليهما فى مختلف الامور .. وكان الزائرون يدهشـون ، بل يعجبون بشيئين اثنين : الأول كثرة الخضروات التى زرعهـا الزوجان فى

الحديقة ، والشيء الثانى مساحة الحديقة نفسها · وكان الزائرون يحبون أن يعرفوا ما يفعله الزوجان بكميات الطعـــام الـكبيرة والخضروات التى تنتجها حديقتهما ·· وبالطبع لم يأكل الزوجان هذه الكميات الكبيرة ·· وأخذتهم السيدة الى مطبخها حيث أرتهم عدة آلات لحفظ الخضروات ولم ير البورميون شيئا من هذا من قبل ولم يعـرفوا كنهه ·· وكانوا يتوافدون يوما بعد يوم ليشاهدوا تعبئة الخضروات والفواكه فى علب خاصة ·· ثم مضت الشهور ورأى البورميون لأول مرة أنهم اذا فتحوا علب الفواكه أو الخضروات المحفوظة وجدوها مازالت طازجة وفى حالة جيـــدة ·· ووزع الامريكيان على الاهالى أجود أنزاع البذور وساعدوهم فى تكوين مجتمـع ينتج أطعمة محفوظة · وبدأ الناس يزرعون الخضروات فى مـــزارعهم ، ويحفظونها فى علب خاصة فى بيوتهم ·· ثم اتسعت الفـــكرة وأصبحت القرية الصغيرة تمد بورما بأكملها بالمـأكولات المحفوظة كالخضروات واللحوم والفواكه وأشهى الاطعمة البورمية ··

لذلك فان أهل ولاية «شان» يحبون الامريكيين من أجل عائلة مارتن ، فقد جاء الى بورما وهدفهما معاونة أهلها ورفع مستوى المعيشة فيها ·

أنكم أيها السادة لستم فى حاجة الى دعاية اذا كانت نتائج ما تقومون به من أعمال منظورة ذات قيمة للناس ·· فبخار الحساء الجيد هو خـــير اعلان عن جودته ··

لقد سألتمونى ماذا أفعل لو كنت رئيسا للولايات المتحدة الامريكية · هذا ما أفعله : أرسل أشخاصا عديدين مثل مارتن الى بورما ، فهذا هو كل ما نحتاج اليه ·· تستطيعون أن تنسوا حشود المسئولين ومخازن الحكومة وفرق الحراسة التى لاتفعل شيئا غير حراسة الامريكيين فى الخارج وبذلك توفرون ملايين الدولارات التى يظن الامريكيون أنها ضرورية لأى برنامج معونة أو مساعـــدة ·

قلت فى بدء حديثك أن الروس الذين يسافرون الى البـــلاد الاجنبية يعملون بنشاط ·· فهل تستطيع أن تشرح لنا الاسباب ؟ ··

ان الروس عمليون محترفون ·· فهم يتركون رجالهم فى بورما لخمس سنوات وكلهم يتكلمون لغة البلاد·· ويدرسون الاشياء صامتين ويعيشون هادئين ·· ولا يستخدمون خدما بورميين ، لذلك فليس هناك من يستطيع أن ينشر عنهم الاقاويل فخدمهم جميعا من الروس ··

ان السفير الروسى يعتبر أسدهم الاجتماعى ، ان صح هذا التعبير ، فهو الذى يدعو الى حفلات الكوكتيل وهذا هو كل ما يفعله ·· أما الجالية الروسية فلها خبير متخصص لا فى الاحاطة بالمنطقـــة التى يعيش فيها بأسرها بل فى قدرته على التنفيذ ·· ففى بورما كان ذلك الخبـير يدعى فيكتور لاسيوفسكى ، وكان السكرتير الثانى فى السفارة · وكان دائما يفتح الباب للسفير ويسير وراءه ، ولم يضيع وقتـه فى الحفلات · وكان قائدا محنكا فى فن التكتيك وقد نقل أخيرا الى تايلاند ·· لذلك أعتقد أن أمريكا سوف تواجه بعض المشاكل هناك عما قريب ··

هل المعونة الروسية الاقتصادية أحسن من نظيرتها الامريكية ؟ ··

ـ لا .. ليست باحسن حالا .. ولكنها اوقع من الناحية الدعائية .. مثال ذلك أن رئيس وزرائنا لايطير إلا فى طائرات روسية أهديت الينا من ستالين .. فهذه الهدية تركت أثرا بالغا لافى نفوس البورميين فحسب بل فى جميع سكان جنوب شرقى آسيا ..

لقد وعدنا الروس ببناء «أستاد» رياضى ـ وتعلمون أننا نحب الرياضة ـ وكذلك وعدونا ببناء مستشفى ومدرسة تخرج مهندسين وأطباء . ولم تحصل على هذه الوعود بعد .. ولكن هذه مشروعات يفهمها الناس ويأملون فى الحصول عليها .. ورغم أننا نشك فى صدق نية الروس والشيوعيين الصينيين فان رجل الشارع والطلبة الصغار يتناقشون دائما فيما تفعله روسيا ..

كما أن الشيوعيين مهرة فى مشروعاتهم الثقافية .. لقد احتفلنا احتفالا عظيما بمناسبة مرور عشر سنوات على استقلالنا .. حتى أنكم تستطيعون مقارنة هذا الاحتفال بنظيره عندكم من أعيادكم كالكريسماس رأس السنة أو عيد الفصح أو غير ذلك . وقدمنا استعراضات كثيرة وساهمت الامم الشيوعية فى هذه الاستعراضات بفرق راقصة ولاعبى أكروبات وحملوا لافتات كبيرة يهنئوننا فيها باستقلالنا وتحررنا من الاستعمار ولم تكن هناك لافتة واحدة من الولايات الامريكية ..

لو ذهب أى أمريكى منكم الى قرانا لرأى بعينيه كثيرا من السيرك الروسى أو الحفلات الصينية فى كل مكان. حقيقة أنكم ترسلون بعض نجوم الشاشة مثل بنى جودمان وبعض مغنى الاوبرا ، ولكن هؤلاء يظهرون فقط فى رانجون وقليل منا يذهب لرؤيتهم .. نعم .. لقد نسيت ، لقد أرسلتم لنا معرضا للصناعات الزجاجية ! اننا أمة نقاتل فى سبيل بقائنا ، ومع ذلك فانتم ترسلون الينا معرضا زجاجيا !

أرجو أن أكون قد وفقت فى الرد على أسئلتكم ، وسأنهى حديثى بقولى ان ما تحتاج اليه امريكا فى اسيا هو بعض الامريكيين المدربين الصالحين المخلصين .. يجب على الامريكيين أن يتمرنوا ويتدربوا ويخلصوا ..

على المرؤوسين أن يكونوا معتدلين وعلى القواد أن يكونوا متواضعين مع المقدرة على وضع المرءوسين فى الاماكن التى تناسب الثقافة البورمية والمجتمع بعاداته وحاجاته ..

لقد عرفت تقريباكل سفير أمريكى وقائد حربى ومستشاراقتصادى أرسلته الولايات المتحدة الامريكية خلال العشر سنوات الماضية .. بما

فى ذلك موظفى الحكومة والهواة .. وأستطيع أن أتذكر سفيرين وقائدا أمريكيا وضابطا واحدا برتبة أميرالاى كانوا بحق من أمهر من قابلت .. أن ٩٠ ٪ من المسئولين الروس محترفون .. وقد تخسرون خسارة كبيرة فى المنافسة حتى تتعلموا منهم ..

ومع ذلك فانى على يقين من أن الامريكيين يستطيعون طرد الشيوعيين من اسيا خلال سنوات قليلة لو حاولوا أن يعيشوا فى بلادنا بمثل مستوياتنا. .أرجو أن تكون لكم سياسة مرسومة وان تتصرفوا كأمريكيين حقيقيين ، لاننا نحب الامريكيين من ذلك النوع الذى نقابله فى أمريكا.

وعند ما انتهت حفلة التكريم سار « يو مونج سو » وماك هوايت فى نزهة قصيرة .. انها كانت ليلة من الليالى الناعمة يعطرها شذى الزهور وهو يهب من طريق الغابة ..

وسأل ماك هوايت : وما رأيك فى ساراخان يا مونج ؟ ما الذى يجب أن أفعله ؟..

ـ بخصوص أى شىء ؟ ..

بخصوص كل شىء .. كبر أم صغر ..

وتوقف مونج لحظة وقد ترامت الى مسامعه أصوات من بعد ثم قال :

ـ جلبرت .. أسمعت مرة أن أمريكيا كان يعمل فى معمل ألبان بسارخان ، لقد حاول هذا الرجل أن يعمم استعمال اللبن فى سارخان، ثم يجلب بعض الماشية ويقيم تجارته على أسس سليمة .. فلا قيود للاجانب هناك .. وكان الامر سهلا وبسيطا ..

فقال ماك هوايت : لقد قرأت عنه بعض التقارير .. لقد قبض عليه فى فضيحة اغتصاب احدى بنات سارخان أو ما يشبه ذلك ..

ـ جلبرت ! لقد كانت هذه كلها أكاذيب رغم أنى لم اقابل الرجل مطلقا ولكنى تحريت الامر وخرجت بالقصة الحقيقية .. لقد ضايقه الشيوعيون ، كان يتحدث السارخانية ، وكان مخلصا فى عمله وكان الناس يحبونه وكانت فكرته ممتازة .. ان اسمه كولفن ، وأظن لو استطعت أن تعيده الى سارخان لافادك كثيرا ..

فقال ماك هوايت : سأفعل ذلك ، ويمكننى تبرئة ساحته ..

فرد مونج : انها أشياء صغيرة ولكن الافكار الكبيرة كفكرة كولفن لها أثرها .. فاذا استطعنا حل المسائل الاساسية تطلعنا الى ماهو أكبر .. وعلينا أن نبدأ بالاشياء الصغيرة كالسارخانيين أنفسهم .

وظل الاثنان يتحدثان عن هذه الاشياء الصغيرة ثلاث ساعات !..

الفصل الرابع عشر

كيف تشترى أمريكيا ذا ثقافة محدودة

توماس المر نوكس ـ ولد أول ابريل عام ١٩٢٠ فى شلدون من أعمال ايوا ابنا للمستر هنرى نوكس . غير متزوج

تخرج فى مدرسة شلدون العالية ثم التحق بجامعة ايوا وحصل على بكالوريوس فى العلوم فى اقتصاديات الحيوان والطيور عام١٩٤١. إلتحق بالجيش الامريكى برتبة نفر ثم رقى الى وظيفة جاويش عند خروجه من الجيش عام ١٩٤٦ . ساهم فى غزو الحلفاء لاوروبا ثم خدم احدى شركات الدبابات وحصل على وسام القلب القرمزى وميدالية برونزية ..

وصفوه فى احدى صفحات الكتاب السنوى لشلدون بما يأتى : رجل حازم ، قدمه كبيرة «ويكره أن يسمى بالمر» كتب عن كرة القدم .. اشتهر بكراهيته للمرأة ولكن تسأل اميلى شستر عن معاكسات الدراسة! ها .. ها .. كانت عجوله وكذلك دجاجه تربح دائما فى المسابقات لمدة ثلاث سنوات ويقول توم انه يكره اللحم والبيض ..

طموحه : أن تضع الدجاجة ٣٦٥ بيضة فى العام ..

تنبؤاته : سيحققها .. ها .. ها .. أدار ضيعة نوكس من عام ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وفى عام ١٩٥٣ قبل دعوة لزيارة كمبوديا كخبير فى شئون الطيور للهيئة الاقتصادية العامة .

أعماله : « سيطرة الكالسيوم التجارى على انتاج البيض لدجاج رود ايلاند الاحمر » وخبير ايوا فى اقتصاديات الطيور عام ١٩٥٥ .

***

ثلاثة أشياء ميزت توم نوكس عن غيره .. الشىء الاول انه كان الامريكى الوحيد فى كمبوديا الذى صرف كل مرتبه أثناء وجوده هناك . والشىء الثانى أنه عرف كمبوديين أكثر من أى غربى فى طول البلاد

وعرضها .. والشيء الثالث أن مقدرته وحماسته للطعام الكمبودى كانت لا توصـــــف ..

وما كاد عام واحد يمر على وجود توم فى كمبوديا حتى غدا اشهر أمريكى عرفته هذه البلاد ، ليست هناك قرية واحـدة لم تعرفه أو تسمع ضحكاته العالية أو تعرف عنه شهيته فى تناول الطعام أو تستفيـد من خبرته ومعرفته لجميع أنواع الدجاج . كان توم يقود سيارته يوما بعد يوم ويزور القرى والبلاد ، فاذا تعطلت سيارته أو تعذر عليه مواصلة السفر لوعورة الطريق كان يترك سيارته ويسير على قدميه .. ويقول توم لأول رجل يقع عليه بصره : مرحى أيها الصديق .. من هو الرجـل الاول أو الرئيس لهذا المكان ؟ اسمى توم نوكس من شـــلدن بايوا .. وبسرعة يضع توم يده الكبيرة فى يد الكمبودى الصغيرة ويهـــزها بعنف محييـــا ..

وفى عشر دقائق يتجمع حوله كل انسان يستطيع السير أو الزحف وكان يحدثهم بخليط من الكمبودية والفرنسية والانجليزية . ولم يفشل انسان فى فهمه واحبه الجميع واخلصوا له لانه كان صادقا فى مقاله.

ويقول توم : استمعوا الى أيها الناس .. لابد أن هذه القرية تعانى من مشكلات الدجاج .. أن لديكم بضع دجاجات صغيرة .. وانا أراهنكم انكم لن تحصلوا على خمسين بيضة من كل دجاجة فى العام الواحد .. فأنا متخصص فى تربية الدجاج فى ايوا بأمريكا .. وقد تعلمنـــا بعض الحيل لزيادة انتاج الدجاج سأعلمها لـــكم .. ولـكن قبل أن نفعل ذلك أريد بعض الطعام ..

وما أن يتحرك الرجال نحو بيت الرئيس لتناول الطعام مع توم حتى يبدو توم على حقيقته ويعمل جاهدا لكى يلاحظ الفلاحون أنه رجل ريفى مثلهـــم ..

وفى مكان اخر تراه وقد راح يراقب الكمبوديين وهم يأخذون شراب قصب السكر المغلى ويصبونه فى قوالب خاصة . ولاحظ أنهم عنـــدما يطرقون هذه القوالب لاخراج أشكال السكر المتبلورة ، فان جزءا من السكر يضيع أو يتكسر . وجلس توم وصمم لهم قالبـــا خشبيا وركب أسفله مفصلات بحيث يمكن فتحـــه بسهولة وتخرج قوالب الســـكر صحيحة .. وفى قرية أو مدينة أخرى راقب الكمبوديين وهم يضعون الطيور فى أقفاص صغيرة من البوص ويأخذونها الى الســـوق . وكثيرا ماكانت هذه الطيور تضع رؤوسها بين عيدان البوص وتفلت قبل أن تصل الى السوق .. وعلم توم الفلاحين كيف يربطون هذه الطيور بخيوط حول صدورها الى بوص القفص بحيث لايمكنها أن تهرب .

ولم يكن يضيع وقته سدى حتى يأتى الطعام بل يستهويهم بحركاته

ونكاته وبعد وقت قليل اصبح خبيرا فى الطعام الكمبودى حتى بلغت به المقدرة أنه كان يستطيع أن يذكر اسم الاقليم الذى جاء منه الطعام الذى أمامه كما استطاع أن يضيف أكثر من نوع من البهار على الأرز فيحيل طعمه لذيذا . وكان الكمبوديون يجدون لذة كبيرة وهم يراقبونه وهو يطهو الطعام طهوا يعجز عنه أمهر الطهاة وعلى الاخص طهوه لانواع السمك التى كان يتفنن فى تصنيفها وتشكيلها .. وتعمد توم أن يحضر معه طعاما كافيا حتى أنه بالرغم من الكميات الهائلة التى أكلها فان مضيفه التهم كل ما تركه توم بعد رحيله ..

وبعد تناول الطعام ينتقل توم الى العمل .. فكان يخطف دجاجة من الارض ويفحصها جيدا ثم يقلب ريشها وينظر الى عينيها ثم يشد مخالبها ويشعر فى الحال بما ينقص الدجاجة من عناية ويقول :

ـ والآن .. فهذه الدجاجة تحتاج الى مزيد من الكالسيوم فى غذائها والكالسيوم كما تعرفون هو مادة بيضاء تستخرجونها من الارض وقد رأيت عرقا من الكالسيوم فى التل على بعد ميل واحد الى الوراء.. فخذوا خمسة أو ستة أرطال من الكالسيوم وامزجوها بمائة رطل من طعام الدجاج وسوف تحصلون على طعام ممتاز لدجاجكم أو على الاقل لهذه الدجاجة بالذات ..

وعندما مرض الدجاج كان توم يعفره بمسحوق أحضره معه أو يحقنه بحقن خاصة ، وترك كتبا فى كمبوديا عن «كيفية رعاية الدجاج»

وكان نجاح توم فى هذه المسائل الصغيرة أقوى بكثير مما تركته المعونة الاقتصادية الامريكية فى نفوس المواطنين .. وانتشرت الاخبار من قرية الى قرية عن توم وما فعله للدجاج حتى اذا ظهر توم فى قرية صغيرة كان المواطنون يخفون لاستقباله استقبالا حارا وكأنهم يعدون العدة لمهرجان كبير .. وبدأ الفلاحون يتبارون فى الاحتفاظ بأجود انواع الفاكهة أو يطهون له أجود أنواع الاسماك أو الأرز عندما يعرفون قرب زيارته لهم ..

وطارت شهرة توم واصبح كالساحر المتخصص فى علاج الدجاج .. فدجاجة على وشك الموت قد تحيا من جديد اذا لمسها توم بأنامله السحرية ..

وما أن يمضى على وجوده فى أية قرية أكثر من خمس دقائق حتى يستطيع أن يذكر لاهلها بالتفصيل عيوب الطعام الذى يقدمونه الى دجاجهم فيعاونهم ويرشدهم الى الطرق الصحيحة .. لقد كان توم دائرة

معارف متنقلة فيما يختص بالدجاج الكمبودى او الامريكى وكذلك فيما يختص بجميع أنواع الزراعة والفلاحة ..

وذات مساء كان توم جالسا أمام بيت أحد رؤساء القرى التي تقع على جانب تل من التـــلال وكان قد أمضى حوالى اثنتى عشرة ســاعة فى عمل متواصل مع فلاحى هــذه القرية وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ ولكن البشر والسعادة كانت تغمره وهو يراقب القمر متنقلا فى قبـــة السماء ويختفى وراء الغمام افتغرق الغابة فى بحر من الظلمات .. وكان ضوء القمر يختفى من وقت لآخر عندما تمر تحته قافلة من الطيور السابحة فى الفضـــاء .. وجاء رئيس القـــرية وجلس القرفصـــاء بجوار توم وسأله الرئيس :

ـ لماذا يترك رجل قوى امثلك بلده ويتحمل مشاق السفر ويترك اهله ويأتى الينا ليساعدنا ؟

وكان السؤال مجرد حب استطلاع وكان توم يعلم انه ليس مجبرا على الرد ولكنه استعرض بسرعة المحاضرات التى ســـمعها عن المعونة الاقتصادية واغراض هذه المعونة ، ولكنه شعر بأن هذه أمور مخـزية غير مجدية فنفضها من ذاكرته ..

ورد توم فى نعومة ـ اوه .. كراب !
فسأله الزعيم بنفس النعومة أيضا : وما معنى هذه الكلمة ؟ ..

فقال توم : لا شىء .. انها تعبر عن الغضب .. أســـتطيع أن أرد عليك ردودا مصطنعة ولكن الحقيقة البسيطة هى أننى أحب النـــاس والدجاج ، وبجانب ذلك رغبت فى أن أبتعد عن مزرعتى سنة أو أكثر..

لقد كان الرد غير واضح ولكنه كان حقيقيا .. فلسنوات طويلة وتوم تراوده أحلام عجيبة ، ومن أجل هذه الاحلام لم يشأ أن يقرر الزواج ، ومن أجل أحلامه هذه جاء الى كمبوديا ..

عند ما كان توم صبيا اكتشف أن كلمات كثيرة تطن فى أذنيه كأنها الموسيقى كلمات مثل « القرفة Cinnamon » أو «الزعفران Saffron » ونبات ملقا أو زامبوآنجا Zamboanga كان لهـــا فعل الســـحر فى نفسه وكانت هذه الكلمات توحى اليه ببلاد غريبة غامضة بها مياه خضراء لها رائحة خاصة ، وبها اقوام مختلفون لم يرهم فى حياته مطلقا،وعندما شب عن الطوق وفهم ما تعنيه هذه الكلمات اراد ان يرى العالم الذى شاهده فى أحلامه . ولمـا كبر وتقادمت به السن حفظ كلمات أخرى ، اودعها ركنا من أركان ذاكرته .. « النهر الاصفر » و « غابات خشب

الماجونى » وغيرهما من مئات أسماء الاماكن والاشياء فى الشرق الأقصى .. حتى جاء وقت تعلم فيه معانى الاشياء أو الكلمات الممعنة فى الغرابة مثل «باريانكا» ، بمعنى احدى الجلسات الخاصة فى العقيدة البوذية.. وكان وهو يتحدث الى الزعيم الذى جلس القرفصاء يعلم أنه بوذى ممتاز

وقال توم : انظر يا سيدى .. انه من الصعب أن أتحدث اليك عن هذه الاشياء فأنا لا أجيد استعمال الكلمات ، ولكن منذ سنوات وأنا أطمع أن أرى بلدا عظيما كهذا .. حتى تحقق حلمى ورأيته .

فقال الزعيم : وهل يعجبك ؟

فأجاب توم : نعم .. يعجبنى كثيرا .. فأنا أحب الناس فى القرى ولكنى لا أحب المسئولين من رجال الحكومة فى «فنوم بنه» ولا أحب الطريقة التى يعمل بها الامريكيون فى البعثات أو فى سفارتنا ..

فرد عليه الزعيم مؤكدا فى خجل : أنا لا أعرف هؤلاء الناس وأعتقد اننى وقومى نحب رجلا مثلك .

لقد عاش توم طويلا فى كمبوديا وكان موضع احترام الناس وتقديرهم أينما حل .. لقد كانت لياليه فى كمبوديا أسعد أيام عمره .

وبعد أسبوعين ظهر توم فى «فنوم بنه» ليحضر اجتماعا سنويا عن نتائج المعونة الامريكية فى كمبوديا .. ولم يكن توم سعيدا .. فقد قضى ثمانية عشر شهرا وهو يجوب القرى والدساكر والغابات استطاع فيها أن يتعرف على ما يحتاج اليه الفلاحون فى هذه البلاد . وكان يرسل تقاريره بصفة مستمرة الى مكتب البعثات الرئيسى ولكنها كانت تلقى جانبا ولا ينظر اليها بعين الالتفات .. وكان توم يرغب فى استيراد عدة الاف من دجاج رود ايلاند الاحمر وبعض انواع أخرى لتحسين وتهجين أنواع كمبوديا .. ولم يضع توم وقته .. بل وافق فى أحد الاجتماعات على أن الطريق من «فنوم بنه» الى مدينة كمبونجا الساحلية الجديدة سوف يصبح من أهم الطرق فى الدولة ، كما وافق أيضا على أن شق القنوات والترع والمصارف سوف يعود على البلاد بالخير العميم ... ولم يعارض الخطط العسكرية التى تحدثت عنها البعثة .. وكان يصر على أن أى عمل تقوم به البعثة لتحسين أحوال ملايين الناس فى كمبوديا الذين يعيشون فى القرى والارياف ، وان يكن بزيادة الانتاج اليومى لبعض الدجاج لهو أجدى بكثير من المناقشات البيزنطية التى لا تأتى بفائدة .

وفى اليوم السابق للاجتماع قابل توم جميع الخبراء الامريكيين فى الشئون الزراعية وكذلك الخبراء الكمبوديين وأربعة خبراء فرنسيين لمراجعة أعمال السنة وللتفاهم على أنجع الوسائل لعقد الاجتماع ... وأنصت توم باهتمام الى اقتراح شق قناتين تتكلفان مليونيين ونصف

مليون من الدولارات ، والى اقتراح آخر لردم ثمانية عشر ميلا مربعا من مياه المستنقعات واقامة مزارع عليها ثم استمع الى خبير أمريكى وهو يقترح استيراد مائتى الف طن من السماد لمدة أربع سنوات لتنشيط التربه واصلاحها .. ثم أشار رئيس اللجنة الى توم الذى هب واقفا وقال :

«ان اقتراحاتى لن تتكلف شيئا بالنسبة الى الاموال التى سوف تتكلفها مشروعاتكم ، فانا أريد أن أقوم بعدة اعمال لا تتكلف شيئابالقياس الى ما ذكرتم .. ولكن هذه الاعمال الصغيرة سوف تساعد على زياده انتاج الدجاج للبيض فى كمبوديا ..

أولا ـ أريد أن أحضر بضعة آلاف من الدجاج والديوك الامريكية لتحسين النتاج الاهلى فى هذه البلاد .

ثانيا ـ أريد الفين من الدولارات لتصميم آلة تسحق أطراف قصب السكر آليا لاستخدامها كطعام للدجاج والماشية .

فرد الرئيس مقاطعا : توم ! لقد سبق أن ذكرت ذلك فى العام الماضى. ان كل ما تريده حكومتنا هو عمل شىء كبير يساعد الناس فى الحال .

فأجاب توم بغضب : أنظر يا سيدى .. ان ثلاثة مليون كمبودى يعيشون فى القرى وأن ما يأكلونه يعتمد على ما يربونه . فهناك مصدر كبير للبروتين واللحم فى الدجاج والبيض .. نعم يمكن شراء كميات كبيرة من الاسماك ولكن لا يعيش كل انسان باقرب من ..

فقاطعه الرئيس ـ حسنا .. حسنا يا توم .. لقد سمعنا ذلك من قبل وأرسلنا بتوصياتنا ولم تحرك الرئاسة ساكنا حتى الآن .. وعلينا أن ننسى اقتراحاتك ونركز اهتمامنا على ما هو أهم ..

واحمر وجه توم وشعر بألم فى ظهره .. ففى مخيلته تتزاحم صور الوف الفلاحين الذين تحدث اليهم وعرفهم عن قرب .. وتذكر صداقتهم وحبهم له .. وجهلهم وبساطتهم ورغبتهم الاكيدة فى التعليم .. وحالة الدجاج التى يرثى لها .. وندرة البيض ، وفجأة شعر بتأنيب الضمير وأنه لا يمثل هؤلاء الناس الطيبين كما ينبغى .. فضرب توم المنضدة بيده القوية فجأة ، فنظر اليه أعضاء المؤتمر بدهشة واستغراب .

ـ والآن أنصتوا بحق السماء .. انكم أيها الناس لم تغادروا مكانكم مطلقا لتروا بأعينكم حقيقة الحال .. فأنا أقول لكم باصرار اننا اذا عملنا على زيادة انتاج البيض فى هذه البلاد بنسبة مائتين فى المائة فسوف يعم الرخاء بالقدر الذى يجلبه تعبيد طريق طويل عبر البلاد أو شق القنوات الباهظة التكاليف . وأنا لن أسألكم أنتم أيها الفدائيون والضباط العظام

عما يجب علينا عمله ... ولكنى أسأل من يتفقون معى فى الراى .. واشار توم بأصبعه الى الزعيم الكمبودى الذى يرأس لجنة المعونة .. فنظر الكمبودى الى توم ثم أرخى بصره سريعا نحو المائدة ونظر الى يديه وظل صامتا بعض الوقت ..

وقال توم بغضب ـ هيا .. قل لنا ما رأيك .. فأنت تعرف كيف يعيش الناس فى القرى .. وأنت تعلم كم من الوقت يجب أن يمر أولا قبل أن يعود بناء الطرق أو القنوات على مواطنيك بالمنفعة .. ما رأيك فى الدجاج ؟

فرد الكمبودى بكل حرص ـ اننى أعتبر الدجاج وانتاج البيض من الاهمية بمكان ..

ودار توم حول نفسه منتشيا مزهوا قائلا :

ـ تماما كما قلت لكم !

فرد الرئيس ـ والآن لا تنفعل يا توم .. فانا أريد أن أستطلع راى أصدقائنا أى الاشياء أهم ، وأى المشروعات يفضلون .. المزارع الميكانيكية أم برنامج الدجاج ؟

وعرف توم أن توجيه السؤال لم يكن عادلا لان الحكومة الكمبودية كانت تفضل اقامة مزارع ميكانيكية وأن الخبير لن يبدى رأيه بصراحة والا خالف أوامر الحكومة .. لذلك فعندما تكلم الكمبودى لم ينظر الى يديه بل قال بكل هدوء :

ـ اننى أفضل المزارع الميكانيكية .

واستدار الرئيس الى توم وهز كتفيه ..

وعلم توم أن عليه أن يهدأ ويصمت ولكنه لم يستطع لانه كان يشعر بحاجة الفلاحين الحقيقية ، وانه ان لم يتكلم من أجلهم ، فقد خان ثقتهم فيه ..

فاحتج قائلا : سأقول لكم شيئا واحدا .. مرة واحدة ، وأنتهى .
فاشرأب اليه عنق الرئيس وهو يقول : اذا سحب مشروع الدجاج هذا من المؤتمر فسأستقيل وأعود الى واشنطن وأشعلها نارا حامية .. فهناك عدد كبير من رجال الكونجرس يعرفون الكثير عن الدجاج والزراعة وسوف أقنعهم بأنكم أقدمتم على خطأ جسيم ..

وكان التهديد واضحا تنبه له الجميع ..
وحملق الرئيس فى توم وهو يحسب بالضبط مدى رد الفعل عند

أعضاء الكونجرس والطبقة الحاكمة اذا ما أثار توم هذا الموضوع لديهم. لقد أدرك أنهم لا شك سيقفون فى صفه فابتسم :

ـ حسنا يا توم .. اذا كانت هذه ارادتك ففى هذه اللحظة قبلت استقالتك الا اذا أردت أن تعيد النظر فيها ..

وصمت كل انسان فى الحجرة .. ولم يكن الكمبوديون صامتين فحسب بل محرجين .. وظل الامريكيون يراقبون المعركة بشغف فقد رأوا مثل هذه الامور تحدث أكثر من مرة .

وقام توم ونظر حول المائدة ثم غادر الحجرة ..

وبعد أسبوعين استعد توم للعودة الى بلاده .. وكان قد أرسل رسائل كثيرة الى رجال الكونجرس الامريكى يشرح فيها شكواه ، ولكنه لم يتلق أى رد بعد ، لان ذلك يستغرق وقتا طويلا فقر رأيه على السفر الى واشنطن ليضع قضيته أمامهم بنفسه .

وقبل أن يغادر توم كمبوديا بيوم واحد زاره زائر .. وكان هذا الزائر أحد الدبلوماسيين الفرنسيين . وشرح الفرنسى الزائر أنه تتبع أعمال توم وسمع اطراء له من القرى التى زارها .. وأسف لاختلاف توم مع الرئيس الامريكى ، وكان توم ينصت باهتمام للرجل الفرنسى وهو يقول :

«كاعتراف منا بجميلك» هل تسمح لنا أن نغير طريق سفرك بحيث تزور أولا بقية بلاد الشرق الاقصى كالهند والشرق الاوسط ، وفرنسا وانجلترا ؟

لقد فهمت أنك ستطير فوق الباسفيكى وبذلك تحلق حول العالم قبل أن تعود الى وطنك .. وكما تعلم فان كمبوديا ستدفع تكاليف الرحلة ويسرنا كثيرا أن تقبل هذا العرض .. ونحن محرجون لألحاحك ويسعدنا كثيرا أن توافق على طلبنا ..

وتضايق توم وداخله الشك .. لقد كان يريد أن يعود الى بلاده بأقصى سرعة ممكنة ، وكان يعلم جيدا أن أى عرض من دبلوماسى ، لا بد أن يكون له ثمنه أو أهدافه .. وفى الوقت الذى كان توم يحاول أن يستقر على قرار ذكر الدبلوماسى الفرنسى أنه يفهم جيدا الشخصية الامريكية ، لذلك قال :

«لقد شعرت يا سيدى أنك تحب البلاد الآسيوية واهلها حبا جما .. وهذه الرحلة التى سوف نقدمها لك سوف تتيح لك رؤية معابد بانكوك التاريخية العظيمة . ويمكنك أن تزور اندونيسيا وأنا على يقين أن رجالنا الدبلوماسيين فى الهند سيمهدون لك رؤية معالمها وهذه فرصة

نادرة ، وأقول لك انه ليس فى الدنيا أجمل من «تاج محل» فى ضـــوء القمر المكتمل» ..

وكان العرض سخيا حتى أن توم بدا مترددا وبعد خمس دقائق وافق على قبول الرحلة واجريت الترتيبات اللازمة لزيارة توم لباريس عـلى طائرات «ايرفرانس» .

وبدأت الرحلة الى الوطن . وركب توم طائرة من طائرات «ايرفرانس» لم يكن بها ركاب كثيرون لكى يتمتع توم بخدمة ممتازة .. وكانت الوجبة الاولى التى تناولها توم فى الطائرة تتكون من قطع صـــغيرة من الخبز الفرنسى وزجاجة من الشمبانيا وطبق كبير من الزبد الطازج كتب عليها اسمه ، وكانت هذه هى البداية فقط .. ثم بعد ذلك أحضروا له طبقا به قطعة لحم هائلة مع صلصة «برنيز» أفرغ عليها توم نصف زجاجة من عصير الزبد والثوم . ثم بضع قطع من الحلوى النادرة .

وفى جاركارتا باندونيسيا قوبل توم مقابلة رسمية بمندوب خاص من السفارة الفرنسية وتاجر فرنسى .. وعملت الترتيبات اللازمة ليقضى توم بعض أيام فى مبنى السفارة ورسموا له برنامجا خاصا أثناء وجـوده وافق عليه توم بكل شغف وسرعة .. وبعد الظهر أخذوه الى قـــرية صغيرة فى ضواحى جاكارتا لا تقل جمالا وروعة عن كمبوديا .. وكانت القرية كجوهرة من الجواهر النادرة المثال .. الزهور المختلفة الالوان والاشكال تتدلى من الاسوار أو الاشجار أو تتســـــلق حوائط بيوت الوطنيين .. وبداخل احدى العشش الكبيرة كانت فتاتان ترقصان .. وكانتا نحيفتين عاريتين حتى الوسط وخلف آذانهما زهور كبيرة كأنهـا قطع الجمر مفروسة فى شعرهما الاسود الفاحم .. وجلس توم ثلاث ساعات ينظر باعجاب وذهول الى الفتاتين وهما ترقصان على نغمـــات الموسيقى الاندونيسية وكادت الدموع تذرف من عينى توم عندما غادر المكان ، ولاول مرة لم يفكر فى كمبوديا واختفت منه دواعى الغضب .

وفى المساء أقيمت له وليمة كبيرة على طراز الولائم الاندونيسية فى القرن التاسع عشر والتى يطلق عليها «ريجستافل» ودعى الى الوليمة اثنا عشر رجلا وكان توم والسفير الرجلين الابيضيين فى المجموعة كلها .. وأحضر غلام أندونيسى لكل ضيف قصعة من الارز المغلى ثم جاءت زمرة من الخدم ووضعوا بعض البهار على الارز ولما حان وقت الاكل واجه توم طبقا من الارز لم ير مثله فى حياته .. ودأب خادم معين على ملء كأسه بالبيرة القوية كلما رأى الكأس فارغة .. وفى اللحظة نفسها ظهرت فتاتان أمام المائدة .. لم ترقصا بل لعبتا على آلة موسيقية وكان الطعـــام والموسيقى من عالم آخر وكان توم يهز رأسه باستمرار كأن الحلم الذى

كان يراوده طيلة صباه قد تحقق أمامه وأصبح يراه رؤيا العين لا رؤيا الاحـــلام .

ولم تخل مدة بقائه فى جاكارتا من مفاجآت ، فعندما دلف الى طائرة أخرى من طائرات «ايرفرانس» الفخمة رحب بفكرة النوم واستيقظ بعد ثمانى ساعات من بدء الرحلة فاكتشف أن التاجر الفرنسى وضع صندوقا من البيرة المستوردة داخل الطائرة وأوصى المضيفة أن تقدم لتوم زجاجة مثلجة من هذه البيرة بمجرد أن يستيقظ من نومه .. وما ان أتى على الزجاجة الخامسة حتى كانت الطائرة تحلق فوق ســـماء نيودلهى وتستعد للهبوط فى شمال الهند .. لقد كانت اندونيسيا فى نظره بلدا غنيا فاخرا .. أما الهند فكانت متربة ، حارة ، قاسية ... لكنها أعجبت توم .

ومرة أخرى قابله فرنسيان فى المطار وعملا الترتيبات اللازمة لنزوله فى احدى الدور الفرنسية .. وفى الوقت نفسه رسما له برنامجا حافلا، وزار توم جميع الاماكن الاثرية الهامة وشاهد الرقص الهندى ورقص حيات الكوبرا وشاهد جنازة على حافة النهر وظل عدة أشهر وهو يشم رائحة الزهور التى رآها والعطور الغريبة التى استنشقها .

وأكل توم ما فيه الكفاية أثناء اقامته فى نيودلهى .. وعندما غادرها وركب طائرة فاخرة للمرة الثالثة أهدت اليه السفارة الفرنسية فى الهند مجموعة نادرة من انحلى الفضية المزخرفة ، وفى أثناء وجوده هنـــاك كان كثيرون يثنون على أعماله فى كمبوديا .

وفى أثناء الرحلة الطويلة من نيودلهى الى نيس حاول توم عدة مرات أن يكتب تقريره وتقده عن مشروع المعونة الزراعية لكمبوديا .. وبطريقة ما لم يجد الكلمات المناسبة أو لم تسعفه الذاكرة باختيار الالفاظ ليدون ملاحظاته فأخذ يطمئن نفسه ويقول عندما أعود الى الولايات المتحـدة الامريكية فسوف أقوم بكتابة شكواى بدقة وأمانة وصمم على أن يذهب الى واشنطن بمجرد وصوله الى أمريكا .

وعندما هبطت الطائرة فى نيس قابله فرنسيون آخرون ورحبوا به، وتركوا له حرية الاقامة فى الفندق أو خارج «كاب دانتيب» .

وعلى الصخور تحت الفندق كانت ست غيد حسان يرتدين لبـاس البحر المثير ويمرحن على رمال الشاطىء بطريقة أسالت لعاب توم .

ومكث توم فى الفندق سبعة أيام ، وعندما غادره اكتشف انه ليس هناك قائمة حساب فى انتظاره .. وأكدت له ادارة الفندق أنها كانت سعيدة به كزائر ممتاز ودبلوماسى أمريكى له مكانته . وأهدى الـــه

الفرنسى فى نيس عند مغادرته البلاد حقيبة صنعت من الجلد المراكشى الفاخر وكانت تعد بحق أجمل هدية تلقاها توم فى حياته .

وفى باريس كان فى شرف استقباله كمبودى ثرى يمتلك مساحات واسعة من الاراضى فى كمبوديا .. وعمل الكمبودى على أن ينزل توم فى فندق صغير واعتذر له بلباقة أن الفندق ليست له شهرة عالمية ولكن أكد لتوم أن الطعام والخدمة ممتازان .. واكتشف توم أن الفندق ليست له أسعار محددة .. وكان الزائر يطلب ما يريده ثم تقدم له فى نهاية المدة قوائم حساب مستقلة .. فطلب توم زجاجة من الويسكى من بارالفندق فأحضر له الساقى زجاجتين فاخرتين ، وعدة زجاجات ماء فوار وتركه .. لقد كانت قائمة الطعام فى هذا الفندق الصغير غير معقولة لانه كان يطلب أشياء مرتفعة الثمن لا توجد الا فى أعظم الفنادق فلا يمضى وقت طويل حتى تكون الاشياء التى طلبها طوع بنانه .

وفى الوقت نفسه تعمد الكمبودى الثرى أن يشغل وقت توم بزيارة متاحف الفن فى باريس ، فليلة فى الاوبرا ، وأخرى فى الاقبية القديمة يجرع فيها النبيذ الفرنسى المعتق أو فى حفلات الكوكتيل الصغيرة أو فى نزهة حول الغابات ثم ابتاع له هدايا وتحفا لم يدفع فيها توم مليما واحدا .

وفى ذات ليلة حاول توم أن يناقش مسألة المعونة الزراعية فى كمبوديا وأنصت الكمبودى جيدا وتوم يحدثه عن خططه لزيادة انتاج الدجاج والبيض فى كمبوديا وشعر توم أن الكمبودى يعرف خطته بالتفصيل ولم يستطع الكمبودى آخر الامر أن يكون أكثر أمانة أو دبلوماسية عندما قال :

مستر توكس .. انى أختلف واياك فى هذه الفكرة .. فهناك مبلغ معين من المال مرصود للمعونة ، وقبل أن تمتنع الاوزة الذهبية عن وضع البيض فأظن أنه من الاصلح لكمبوديا أن تحصل على أقساط ثابتة أو دائمة مثل بناء الطرق وشق القنوات واقامة المبانى والمطارات .. صحيح أن فكرتك عظيمة هامة .. ولكنى أشعر أن هذا ليس الوقت المناسب لتنفيذها .

وبدأ توم يحتج ، ولكن أدب مضيفه وكرمه منعاه من المضى فى الاحتجاج ، وبعد يومين أخبر الكمبودى توم أنهم استطاعوا بمحض المصادفة السعيدة أن يحجزوا له جناحا على الباخرة «الحرية» التى ستبحر الى نيويورك .. وأن الرحلة لن تكلفه شيئا ، لاسباب لم تكن واضحة لتوم .

وعندما غادر توم الفندق تكررت الحركة معه كما فى الريفييرا ، فقد

كان الفندق الذى نزل فيه سعيدا بتشريفه ، لذلك لم يأخذوا منه تكاليف الاقامة .. وأوضح له مدير الفندق أنه أحد هؤلاء الرجال الافذاذ الذين لا يصح أن يدفعوا أجر اقامتهم لاهميتهم القصـــــوى للمجتمع الذى يعيشون فيه .

وكان الجناح الخاص الذى نزل فيه توم على الباخرة «الحرية» رائعا فاخرا .. وفى كل صباح كانت الزهور الجميلة توضع فى حجرته مع بطاقة تنوه بعرفان الحكومة الكومبودية لمـا أسداه اليها من خدمات لا تنسى .. وتخللت اقامته عدة زيارات من أحد الدبلوماسيين الكمبوديين وكان مسافرا على الباخرة نفسها الى الولايات المتحدة الامريكية ، وأهدى هذا الزائر الى توم عدة زجاجات من النبيذ الفرنسى الفاخر وكذلك أحســـر انواع الحرير الفرنسى ..

وقبل ان تصل الباخرة الى نيويورك بيومين حاول توم ان يكتب ملاحظاته لتقديمها الى لجان الكونجرس او الجرائد الامريكية .. ولدهشته لم يستطع كتابة حرف واحد وبدت له كمبوديا بعيـدة .. بعيدة جـــدا ولم يبق منها فى ذاكرته غير أطياف براقة .. وفترت غيرته وحماسته وهو قابع فى جناحه الخاص على الباخرة « الحرية » وبعد ان أمضى ثلاث ساعات لم يكتب غير نصف صفحة على الورق فاستقر رأيه على يتريث حتى يصل الى بلاده ومن ثم يقدم اقتراحاته وشكواه ..

وبعد ثمانية شهور من عودة توكس الى مزرعته بشلدون ، بايوا ، عثر على النصف صفحة من الورق التى كتبها على الباخرة .. فلمـــا قرأها شعر لأول وهلة ان شخصا آخر قد كتبهـــا .. صحيح ان الخط خطه ولكن الكلمات ليست كلماته ! فالغضب الذى شعر به فى كمبوديا بدا له الآن عملا صبيانيا .. فطوى توم الورقة وألقى بها بعيدا ..

***

طرق زائر باب السفير « ماك هوايت » فى « هايد هو » وكان هذا الزائر فلاحا من جمعية هواة الطيور فى وسط غرب أمريكا ، يقوم برحلة حول العالم هو وزوجته وجاء الى السفارة وفى رأسه شىء يود الافصاح عنه ..

وقال الزائر موجها الحديث الى السفير : استمع الى يا مستر « ماك هوايت » اننى أسعى وراء شىء هام .. فأنصت الى لحظة ولا تحكم على بالجنون ..

وقدم السفير علبة السجائر الى الزائر فأخذ منها أربعا اشعل واحدة

وألقى بالسجائر الثلاثة الاخرى فى جيب قميصه ثم قال وهو ينفث دخان سيجارته :

« ان ما تحتاج اليه هذه الدولة يا سيدى هو وجود دجاج من النوع الجيد » .. فأجاب ماك هوايت أعتقد أن فيها الكثير ..

فقال الزائر بعصبية ظاهرة : حقا ان فيها الكثير لكنها مريضة ، وقد وجدت أنها تضع ثلاثين بيضة فى العام .. وماذا يحدث لو استطعنا زيادة الانتاج الى مائتى بيضة للدجاجة فى العام .. ونزيد وزنها عشرين فى المائة لنوفر بذلك مليونين من الدولارات من الطعام المستورد كل عام .. انظر لقد أحضرت أحصائياتى ..

وسلم الرجل المتحمس السفير ورقة بها أرقام كثيرة وفى اسفلها كتب الرقم ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ورسمت حوله دائرة ..

وقدم السفير هذه الورقة الى خبرائه لفحصـــها وكانت الارقام صحيحة ..

ثم كتب خطابا الى بعثة المعونة الامريكية فى فينوم بنـــه بكمبوديا التى كان بها أكبر عدد من الخبراء الامريكيين فى شئون الزراعة وسألهم عمـــا اذا كان لديهم خبير فى الدجاج يستطيعون اعارته الى حـكومة سارخان ..

وتسلم السفير الرد من « فنوم بنه » وكان مخيبـا للآمال ، اذ أدى الى ان اقترف السفير خطأه الجوهرى الثانى ، الذى لم يكتشفه أبدا وكان الرد كالاتى :

«عزيزى السفير ماك هوايت (هكذا كتب رئيس البعثة فى «فنوم بنه») لست أدرى ما الذى تفعله هناك .. ولـكن الامر يبدو كأنك تحاول الحصول على كميات من البيض لأجازة الكريسماس .

فمهما كانت مقاصدك فعنـــدنا خبير فى البيض هنا يدعى « توماس المرنوكس » ويبدو أن شيئا فى هـــذه المهنة يجعل هؤلاء الخبراء غـريبى الاطوار .. فهو لم يقم بأى عمـل على الاطلاق غير القيام برحلات فى طول البلاد وعرضها ، ثم يتدخل فى أمور لا يعـــرف عنها شـيئا ويهدد دائما بالشكوى الى الكونجرس اذا لم نستورد بعض دجاج الرود ايلاند الاحمر .

وأخيرا رحل هذا الخبير عن البلاد ـ لسبب لم أفهمه ـ وكان المسئولون الفرنسيون والكمبوديون منزعجين أول الامر ، لأنهم كرهوا أن يروا أحـد الامريكيين يترك البلاد غاضبا .. ولكننى أراهم الآن مرتاحى الخاطر وهم لا يريدون أى خبير آخر فى البيض ، وكذلك أنت .. ويستحسن أن نترك هذا الامر .. »

المخلص

راو هندى

ولم يهتم السفير ماك هوايت بهذا الامر وكانت هذه هى غلطته الكبرى الثـــانية ..!

الفصل الخامس عشر

السيد الامريكى الفارع ألطول

كان الكولونيل « ادوين ب· هيلانديل » من السلاح الجوى الامريكى ومن سافانا بجورجيا يسير فى شـــارع « التمساح الابيض » بهايدهو ، وهو يعزف أنغاما شجية على آلة الهارمونيكا ، ويحاول أن يتعلم النشيـد الوطنى لسارخان المعروف باسم (جنح غو ريجنوستينا)· وكان الكولونيل يستوقف أحد السارخانيين من وقت لآخر ويعـزف أمامه لحنا من ألحـــان النشيد الوطنى ثم باشارة من يديه وبابتسامة رقيقة يوحى الى السارخانى أن يشترك معه فى عزف النشيد الوطنى ·

ولم يكن تعلم النشيد الوطنى هو الشىء الوحيد الذى يعلمه الكولونيل بل كان على حد تعبيره « يمهد الطريق قبل أن يعود ماك هوايت من رحلته» فقد استعاره السفير ماك هوايت من مانيلا لمدة شهرين· ولاحظ الكولونيل أن بالمدينة مكاتب كثيرة للرهون ، ومعنى هذا أن أهل المدينة يعانون أزمات اقتصادية حادة · ولاحظ أيضا المحلات التى تبيع البتل ـ ورق نبـــات يمضغ فى هذه البلاد ـ والدخان والادوية المحلية أو البلدية · كمـا لاحظ أحد البائعين وهو يعطى زبونا من الزبائن لفافة من تحت المـــائدة فعرف أو ظن أن الافيون يباع هناك ·· ثم مر على محال بهـا فاكهة مكومة من رمان وموز وتفاح أخضر ·· ثم مر كذلك بأشخاص يبيعون الزهـور فى سلال كبيرة تفوح منها رائحة ذكيـــة · أما الشىء الذى استرعى انتباه الـــكولونيل بنوع خاص ، فهو كثرة اللافتـات التى تعلن عن قراء الكف والمنجمين · وكانت هذه الأمكنة نظيفـة أنيقة مغرية كأنها عيادات أشهر الاطباء فى أمريكا ·· أما اللافتات التى علقها هؤلاء المنجمون وقراء الكف خارج أماكنهم فكانت تقول بأن أصحابها حصـلوا على شهادات ودبلومات ودرجات طبية جامعية ·

وفكر الكولونيل هيلانديل ثم قال لنفسه : « وأخيرا عثرت على المكان الذى سوف يرحبون فيـه بهوايتى ·· وانى لسعيـــد لأنى أحضرت معى التقويم الفلكى ، وبعض السجلات والمسطرة الحاسبة ·· يا حبذا لو عثرت على دبلوم مدرسة شانج كنج فى علوم الفلك ، اذن لأثريت ثراء فاحشا ·

ثم عزف الكولونيل مقطوعة « صـــفير الخنزير الصغير » عـــلى آلته الموسيقية ، وهو لحن كان يحتفظ به للمناسبات الخاصة كما حدث فى اليوم الذى وضع فيه الحمار فى جنـــاح الجنرال ، أو فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس المـاضى عند ما رقى الى رتبة الكولونيل ··

وبعد أن استعرض « هايدهو » ورأى أهم الاماكن التى يجب أن يراها قبل أن يبدأ عمله عاد الى السفارة الامريكية وبدأ يقرأ ·· قرأ أولا قصص حياة جميع السارخانيين السياسيين ثم تحليلات مختلفة عن الموقف السياسى الراهن ، وعكف على دراسة هذه التفاصيل عدة أيام ، وكان على وشك أن يظل رهين محبسه عدة أيام أخرى لولا أن قطع عليه خلوته ضابط البروتوكول فى السفارة قائلا :

– سيدى الكولونيل ·· هل اسمك المدلل « الفتى العازف » ؟··
– هذا ما كانوا يسمونى به فى مانيلا ··

– اذن فأنت الشخص المطلوب ·· فسفير الفلبين سيقيم وليمة غدا ويطلب أن تحضرها ، وقد قبلت الدعوة نيابة عنك ·· فان السفير «رودريجوز» يبدو متلهفا ··

– اذن فقد حصل دون فيليب على الوظيفة آخر الامر ·· بالطبع سأكون هناك ·· أرجو ان يكون قد اشترى صندوقين من « التوبا » وسيارة مملوءة ببيرة سان ميجل ، وهاتان الفتاتان الجميلتان اللتان كان يحتفظ بهما فى مانيلا ··

فقال ضابط البروتوكول بسرعة : فى تمام الساعة الثامنة ·· البذلة الرسمية ·· والحضور قبل الميعاد بقليل ، فان رئيس الوزراء ووزير الخارجية وبعض الشخصيات السارخانية ستكون هناك » ··

– هل لديك قائمة بأسماء الضيوف ؟ ··
– سأحصل لك على واحدة ··

***

كانت وليمة سفير الفيلبين كاملة العدد لأن دون فيليب كان قد اكتسب شهرة كمضيف ممتاز لا يجارى ، وكانت الاشاعات تقول انه يدفع لرئيس طهاته ثلاثين ألف بزوسا فى العام ، وانه حصل عليه من فندق والدورف آستوريا – أشهر فنادق نيويورك – وبغض النظر عما يدفعه السفير لرئيس الطهاة ، أو المكان الذى استقدم منه الطاهى ، فانه – أى الطاهى – جعل موائد دون فيليب من أشهر الموائد فى الشرق ··

وبعد ساعة من مد الوليمة وشرب الخمر وأكل اللحوم الباردة جاء خادم وهمس فى أذن دون فيليب بشىء ما · وبدت على وجه السفير بعض معالم خيبة الأمل وتجهم وجهه ، وفكر دون فيليب لحظة ثم اتجه نحو الكولونيل هيلانديل وانتحى به جانبا وقال :

– يا فتى ·· ان نكبة خطيرة قد حلت ·· ان أول طبق يقدم فى الحفلة هو سمك «الاسكابيش» وقد أمرت بصيده من يختى بعد الظهر وأخبرنى هنرى منذ لحظة أنه ليس لديه أية « صلصة » وقد يستغرق احضارها نصف ساعة ·· فيجب أن أضيع الوقت ·· هل تذكر قارىء الكف الذى أحضرته أنت مرة الى منزلى فى « باجيو » ؟ هل تظن أن ··

وبدأت أنشودة « صفير الخنزير الصغير » تخطر على بال الفتى العازف الذى قال :

ـ لماذا يا دون فيليب ؟ .. انى أحب أن أقرأ الكف هذه الليلة .. فدرجة الرطوبة جيدة ويحدث الآن بالفعل أن الزهرة على اتصال بالقمر .

فقال دون فيليب : اذن فتعال .. لا يهمنى أى كذب تقوله لهـــؤلاء الرجال .. فعليك أن تدخل عليهم السرور لمدة نصف ساعة ..

فأجاب الكولونيل : كذب يا دون فيليب .. انك تجرح شعورى ..

وقرع سفير الفيلبين بملعقة عـــلى لوح زجاجى ، فلما انتبه اليه كل انسان فى القاعة قدم اليهم الكولونيل هيلانديل قائلا :

« سيداتى وسادتى .. معنا هذه الليلة قارىء كف ممتـاز وعالم من علماء التنجيم ، ثم توقف ..

وأثناء توقفه قهقه الامريكيون الحاضرون وقال بعضهم بما فى ذلك جورج سويفت أحد المسئولين فى السفارة عن العلاقات الخارجية « كذب وهراء » .. بينما مال السارخانيون الى الامام ليسمعوا بقية التقديم وقد تضايقوا من ملاحظات الامريكيين وتعليقاتهم .

واستمر دون فيليب يقول :

« وهذا الرجل الممتاز هو صديقى القديم وزميلى الكولونيل أدوين هيلانديل من السلاح الجوى الامريكى .. وهو القوقازى الوحيد الحى الذى تخرج فى مدرسة شنج كنج للعلوم الســحرية . لقد تحققت نبوءاته أكثر من مرة والاشياء التى سمعتها كانت مذهــلة ، بل كادت تكون من قبيل المعجزات . أنى لاذكر يوم أن قرأ كف سكرتير الدفاع فى بلادنا ، رامون ماجساى ساى ، وتنبأ له بمستقبل باهر .. ان الفتى العازف ، كما نسميه ، قال لرامون أن اليوم السادس عشر من الشهر سيكون أسعد أيامه لو قدر له أن يـكون حاضرا فى جوار « بارانج » وذهب رامون الى « بارانج » مدفوعا بحب الاستطلاع . وبارانج هــذه مدينة صغيرة فى اليكوس احدى مقاطعات الشمال .. وفى هذا اليوم ، وفى هذه المدينــة بالذات ، حاصر رامون قواد الهكس المرعبين وأسرهم بحركة قصمت ظهر الهكس وشلت حركتهم وأبادتهم من الوجود ..

وهز رئيس وزراء سمارخان ووزير خارجيته رأسيهما موافقين ، أما جورج سويفت فأغرق فى الضحك وضرب ركبته بيده ..

واستمر دون فيليب يقول :

« لقد سألت الفتى أن يقرأ الكف لبعضكم بعد العشاء ولكنه ذكر لى أن ظروف النجوم وأحوالها مكتملة فى هذه اللحظات التى يتصل فيهـا كوكب الزهرة بالقمر .. واعتقد أن نصف الساعة القادمة هى أنســب

وقت لقراءة الكف ، ويقول رئيس الطهاة أنه يستطيع أن يؤخر العشاء هذا القدر من الوقت ، وعليه أترك لكم الكولونيل هيلانديل .. » .
فهتف رئيس الوزراء وهو يصفق بيديه : مرحى .. مرحى ..

ومال سويفت على زوجته وهمس فى أذنيها « انى لأعجب لماذا اختار بماك هوايت هذا الممثل الهاوى .. أتتصورين حدوث ألاعيب صبيانية فى حفلة رسمية ! ! ؟ .

ووقف الكولونيل هيلانديل ورفع يده وقال :
« والآن سيداتى وسادتى .. بصراحة لا احب أن افعل ذلك فى مكان عام .. فعندما أقرأ الكف فعلى أن أقول بالضبط ما أراه .. وأحيانا فان المعلومات التى أقولها قد لا تحبون أن يسمعها الآخرون .. وعلى أن أقول لكم ذلك أولا .. » .

فقال سوبفت بتهكم وهو يمد يده الى الامام : ابدأ بى يا كولونيل .. فليس لدى ما أخفيه .. فتعال .. اننى أتحداك ..

وجلس الاثنان تحت أحد المصابيح ونشر الكولونيل كف سويفت على ركبته وتزاحم الجميع حولهما ..
قال الكولونيل ـ أين ولدت ؟

ـ عليك أنت أن تقول لى أيها السيد النبى ...

ونظر الكولونيل بدقة فى يد سويفت وقال بهدوء ورقة : أعرف أنك ولدت فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ابريل عام ١٩٣١ فى سنتا كلارا بكاليفورنيا ، وكنت آمل أن أذكر لك الساعة والدقيقة بالضبط .. ولكن لا عليك ..

ولم يقل المسئول عن العلاقات الخارجية شيئا ..
وعاد الكولونيل يقول : انحدرت من عائلة فقيرة وكان أبوك يدير صالونا .. ولكنى لست متأكدا ، ولكن هناك علامات تدل على أنه أفلس وهجر أمك ..

وشهقت زوجة سويفت ، بينما استمر الكولونيل يقول :
«كنت تطمع أن تكون طبيبا ولكنك لم تنجح فى امتحانات القبول لكلية الطب .. وتركت الكلية بعد السنة الثالثة لانك ..

ورفع الكولونيل يده ونظر الى مسز سويفت ، فرأى علامات الضيق والالم وقد بدت واضحة على وجهها ثم انتقل الى الموضوع التالى .

« وحصلت على وظيفة مدير مكتب لشركة من شركات بيع المنازل ومكثت بها حتى عام ١٩٤٤ عند ما حصل احد عملائكم على وظيفة كبيرة

فى واشنطن فاخذك مديرا لمكتبه وقمت أنت ببعض أعمال ضباط الاتصال مع الكونجرس .. ثم انتقلت الى وزارة الخارجية بنفس الوظيفة ، وهذه هى أولى تعييناتك لما وراء البحار وأرى فى كفك انك لا تقرأ كثيرا ، لا تقرأ الكتب أو المجلات أو الجرائد بل لك مقدرة عجيبة على صياغة التقـــارير واعادة كتابتها مرتبة . وهذه هى موهبتك العظمى ولا تحب أن ينتقدك أو يوبخك انسان .. وعند ما يحدث لك ذلك ، تعنف زوجتك لتشفى غليلك ــ وهذا طبقا لما يقوله كفك ــ ومن السهل أن أقول ما سوف يحدث لك فى المستقبل ولكن ما دمت لا تريد أن تطلعنى على يوم ميلادك بالضبط .. حســنا .. » .

وفى الوقت الذى بدأ فيه سوبفت يتحـدث عن يوم مولـده ترك الكولونيل هيلانديل يده وتحرك نحو شخص آخر.. وقال رئيس الوزراء « أود أن تقرأ كفى ، على أن يكون ذلك فى جلسة خاصة » ..

فقال سفير الفلبين وهو يأخذبذراع رئيس الوزراء ــ بالطبع ياصاحب السعادة ، ثم قاده الى حجرة المكتب وتبعهما الفتى العازف ..

وأغلق رئيس الوزراء باب الغـرفة ، واختلى بالكولونيل زهاء نصف ساعة . أما الذى دار داخل الحجرة فلم يعرفه انسان ، ولكن عند ما فتح الباب خرج الرجلان وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ، وكان رئيس الوزراء ينظر باعجاب الى الفتى العازف ..

وأعلن عن العشاء وذهب الحاضرون الى حجرة الطعـام ليتناولوا أشهى الاطعمة التى صنعها أشهر طاه فى العالم . وكان العشـاء بحق ممتازا وكان الحديث يدور بمهارة وحذق .. وكان موضوع الحديث علم الكف وعلم التنجيم ، وقال السـفير فيليب أنه يدين للفتى العـازف بالـكثير ، ويرجو أن يرد له جميله فى يوم من الايام أو يوفيه حقه من التقدير ..

***

وبعد ثلاثة أيام عاد السفير ماك هوايت الى « هايدهو » . وأطل السفير من الطائرة فرأى رئيس البعثة فى انتظاره ، فوضع يده على كتف جورج سويفت وقال :

ــ كل شىء على مايرام يا بنى .. ما هذه العلامة السوداء فى عينيك ؟ انك لتبدو وكأنك مغلوب على أمرك .. ماذا حدث ؟ ..

وامتلأ وجه سوبفت بالغضب وقال ــ من هذا الكولونيل الدعى الذى احضرته من مانيـلا .. ؟ .

ــ هيـلانديل ؟

ـ نعم يا سيدى .. لقد كتبت له خطاب تقريع ينتظر توقيعك ..
ـ قل لى ماذا حدث ؟ ..
وذكر له سوبفت القصة بأكملها ..

وكان أول شيء فعله ماك هوايت عند عودته الى السفارة أن أرسل فى طلب الكولونيل هيلانديل وعندما حضر الكولونيل كان ماك هوايت صارما فى حديثه معه ثم أمره بابداء رأيه فى العراك الذى نشب بينه وبين رئيس البعثة ..

فرد عليه الكولونيل قائلا : لقد ابتدأت هكذا يا سيدى .. هل تسمح لى بالجلوس والتدخين ؟

ـ نعم ولكن دعنى أقل لك من الآن اننى أشعر بأنك مشكلة ومجلبة للمتاعب ..

وشرح الكولونيل هيلانديل وجهة نظره الى السفير ماك هوايت وابتدأ يقول :

ـ حسنا يا سيدى .. أولا يجب أن أذكر لك التفاصيل .. ان لكل شخص ولكل أمة من الامم مفتاحا يفتح القلوب فاذا استخدمت المفتاح الصحيح أمكنك توجيه أى شخص أو أية أمة بالطريقة التى تشاءها ..

« ومفتاح سارخان ومعظم بلاد جنوب شرقى آسيا هو علم قراءة الكف ، وعلم قراءة الطالع أو التنجيم .. وكل ما يجب عليك أن تفعله أن تسير فى الطرقات وتبحث عن مؤسسات قراءة الكف والتنجيم والذين يديرون هذه المؤسسات يسمون بالدكاترة ويحترمهم الناس احتراما كبيرا

وهناك مقاعد خاصة لعلم قراءة الكف وكذلك علم التنجيم فى كل جامعة من جامعات سارخان .. حتى أن رئيس الوزراء نفسه حاصل على دكتوراه فى علوم التنجيم ..

ان هناك أشياء كثيرة لا تعرف عنها شيئا فى الولايات المتحدة الامريكية ينظر اليها الاسيويون نظرة رفيعة ويقدرونها تقديرا عظيما . بل وأجادوها اجادة مذهلة .. من بين هذه الاشياء علم قراءة الكف وعلم التنجيم أو معرفة الغيب ..

كما أن المسئولين والحكام السارخانيين لا يقدمون على عمل أو أمر الا اذا استشاروا دكتوراً فى علم التنجيم . فبعد أن وصلت بقليل الى بسارخان أعلن أحد هؤلاء المنجمين بأن شخصية عظيمة ستموت فى اليوم الثامن عشر .. ،وفى اليوم السابع عشر يا سيدى طار كل زعيم ومسئول الى رانجون ليكونوا خارج بلدهم فى اليوم المشئوم ، حتى ان الملك ورئيس الوزراء غادرا البلاد أيضا ..

وحدث أيضا أن قراءة الكف والتنجيم من هواياتى المفضلة ، درست أصولها وأنا فى الصين ، ووضح لى أننى أستطيع استغلال هذه الهواية فيما يعود على الولايات المتحدة الامريكيه بالخـــير والنفع العميم ، وعندما طلب الى أن أقرأ الـكف فى حفلة عشاء سفير الفلبين ، سنحت لى فرصة ذهبية رأيت ألا أضيعها .. فكان هناك كل المسئولين السارخانيين ماعدا الملك ، ثم مساعدك الأرعن الغرير وبدلا من أن يساعدنى أو يعاوننى أخذ يضحك ويسخر منى .. ولو كان عنـــده ذرة من عقـــل للاحظ كم كان السارخانيون جادين .. ولو كان هؤلاء الاغبيـــاء فى وزارة الخارجيـــة أحاطوه علما بهذه الامور لفهم كل شىء عن قراءة الكف والتنجيم وأهميتها قبل أن يحضر الى هذا المكان .. » .

وقاطعه السفير ماك هوايت قائلا : ولكن جورج سوبفت ذكر لى أنك أهنتـــه .

ـ « لقد تحدانى أن أقرأ كفه فقرأته .. وكل ما قلته له كان صحيحا وحقيقيا .. وهو يعلم ذلك تمام العلم ..

سيدى السفير .. عند ما أذهب لاى مجتمع من المجتمعات فاننى أدرس طبيعة كل انسان أتعامل معه .. فأسأل اسئلة كثيرة ، وأقرأ جميع الملفات وأقوم بأبحاث خاصة عن هؤلاء الذين سوف أقابلهم .. مثـــال ذلك أعرف انك عند ما كنت طالبا فى الكلية وقعت فى حب فتاة ماجنـــة وأردت أن تتزوجها .. فهددك أبوك بالطرد ..

فقال السفير ماك هوايت : أليك عنى واستمر فى توضيح ما حدث لعين سويفت المسودة ..

ـ « حسنا .. سألنى رئيس الوزراء أن اقرأ له كفه .. وبالطبع كنت ملما بحياته الأولى ووصفتهـــا له أحسن وصف .. فـــكل انسان يعجب اذا ذكرت له دقائق وحقائق عن أيام صباه .. ثم ذكرت لصـــاحب السعادة انه ينوى أن يقوم برحلة تستغرق ستة اشهر حول العالم .. فما أن قلت له ذلك حتى كاد يسقط من مقعده ..

بالطبع أنت لم تسمع بهذا الخبر قبل ذلك يا سيدى .. فلا أحد فى سفارتك يعرف شيئا عنه أو عن أى شىء الا اذا انتشرت الاخبـــار واستميحنى عذرا اذا كنت صريحا لهذه الدرجة .. فمنـــذ أسبوع مضى مررت على مسكن رئيس الوزراء فرأيت الخدم ينقلون الاثاث الى غرفة خلفية ويغطونه بمفارش قطنية .. وكل ما فعلته أن سألت عن السبب فقيل لى ان ســعادته ينوى القيام برحلة حول العـــالم .. ثم بحثت فى شركات الطيران عن ميعاد سفره ومن الذى سيرافقه وكانت هذه المعلومات سرية للغاية .. » .

فسأله السفير : ماذا قال لك سعادته عند ما أطلعته على خبر سفره ؟

– فوجىء بالخبر ثم سألنى لماذا يقوم بالرحلة .. حسنا .. كنت أعلم دقائق الحال السياسية هنا .. فقلت له ان رجلين ، وهما صديقان قديمان له ، يعملان تحت اشرافه ، يتصارعان للحصول على الرئاسة ولم يعرف بالضبط أى الرجلين يصحبه ، لذلك أخر اصدار قراره فيما يختص بالرحلة حول العالم ..

– ثم ماذا قلت له ؟ .

– أخذ سعادته يذرع الحجرة جيئة وذهابا بضع دقائق والعرق يتصبب من جبينه ثم سألنى عن اسم الرجلين .. فقلت : لا أستطيع معرفة اسميهما من قراءة كفه .. لاسيما وأنا جديد هنا فى سارخان .. ولا أعرف أسماء المسئولين ، ولكن أستطيع أن أصف له الرجل من النظر كفه .. وفعلت .. قلت له ان أحدهما قمىء نحيل يشكو من كبده ..

أما الآخر فضخم ولون وجهه أحمر .. وقام الرئيس وتصبب العرق منه مرة أخرى ثم جلس وسألنى أى الرجلين كان يجب عليه أن يقتله ..

وقفز السفير ماك هوايت من مقعده وهو يقول – يا الهى .. كنت تتكلم عن الجنرال سوغ والجنرال باكال ..

فجاءه الرد : « نعم يا سيدى » ..

– وماذا قلت له ؟ ..

– « لم أكن أعرف ماذا كانت عليه سياستنا فقلت له من الخطأ قتل أحدهما .. فرجل بوذى مثله شديد الاستقامة متعصب لمذهبه ما كان يجب عليه أن يوجه هذا السؤال .. ثم اقترحت عليه آخر الامر اقتراحا وجيها ، هو أن يرسلهما خارج البلاد لمدة ستة أشهر ويبقى هو فى البلاد .. » .

– أنت قلت هذا ؟ .. يا للسماء .. لقد أذاعوا منذ ساعة واحدة أن سوغ سيسافر الى الولايات المتحدة الامريكية كسفير خاص مطلق السلطة كما أن باكال سيسافر روسيا بنفس الوظيفة . وسيغادران البلد فى الاسبوع القادم ..

واستمر الكولونيل هيلانديل يقول :

« حسنا يا سيدى .. قبل أن ينتهى حفل العشاء طلب الى رئيس الوزراء ووزير الخارجية أن أقرأ كف الملك وطالعه .. فقلت لهما أن ذلك سوف يكون أعظم حدث لى ، بل شرفا عظيما .. وغير هذا .. وسوف ظهر فى معية صاحب الجلالة ذات يوم أو ذات ليلة » ..

ثم قال الكولونيل هيلانديل ، وقد بدت عليه الحماسة :

– « انت ترى يا سيدى أن الجيوش الصينية الشيوعية تتحرك

نحو الحدود الشمالية .. فاذا استطعت ان اذهب الى الملك فسوف أقول ان النجوم تأمره بأن يرسل جيش سارخان الملكى لاجراء مناورات فى الشمال فاذا تمت هذه الخطوة فسيترجمها الشيوعيون على أن سارخان يبلد مع الامريكيين وضد الشيوعيين .. ومعنى هذا أنها هزيمة منكرة للشيوعيين ، وسوف تكون دعاية عظيمة ونصرا لنا فى جميع بلاد آسيا .. وأنا متأكد يا سيدى بأن الملك سيفعل ما تأمره به النجوم ! !

فسأله مك هوايت : وماذا حدث ؟

ـ « عند ما غادرت مبنى سفارة الفلبين نادى رئيس الوزراء على جورج سوبفت ، وقال له : أيها السيد السفير أن صديقى هنا سيقرأ كف صاحب الجلالة .. ونحن فى سارخان نفعل هذه الامور بعد بروتوكول عنيف ويجب أن تكون على مستوى الحكومات .. ويجب عليك أيها السيد السفير أن تتصل تليفونيا بوزير البروتوكول السارخانى وهو الامير « مويانج » وتقول له أن الكولونيل هيلانديل يقبل شرف دعوة صاحب الجلالة لكى يقرأ طالع جلالته ويقرأ كف جلالته أيضا .. » .

« فرد جورج : اننى أفهم .. اننى افهم هذه الامور جيدا يا سيدى ..

« فرد عليه رئيس الوزراء : والآن بعد أن تتصل بالأمير « مويانج » سيحدد لك الوقت والمكان والحلة الرسمية وكل التفاصيل الاخرى التى يجب أن يعرفها الكولونيل قبل أن يأتى الى القصر الملكى .

فأجاب جورج : اننى أفهم كل ذلك بوضوح .. سأتصل شخصيا بالامير مويانج فى تمام الساعة التاسعة غدا صباحا اذا كان هذا الوقت مناسبا » .

« فرد الأمير مويانج : لا بأس .. سأكون منتظرا مكالمتك التليفونية فى هذا الميعاد ..

« وكانت هذه هى ذروة الحفل .. الذى انتهى بعد ذلك بقليل ، وعند مغادرتنا السفارة التفت سويفت الى وقال : « والآن .. فلتبق فى حجرتك فى الصباح .. ففى اللحظة التى أقوم بها بالاتصال التليفونى سأخبرك .. لأننى أريد أن أناقش هذا الموضوع مع بقية الموظفين قبل أن أطلعك على التفاصيل .. وعليك بعدم مبارحة حجرتك .. وسأتصل بك بعد التاسعة بقليل » ..

فقلت : حسنا يا سيدى .. وغادرت المكان .

وذهبت الى منزلى وأنا أشعر شعورا فياضا .. وأعتقد أن المسألة أصبحت طوع بنانى .. وكنت قد حفظت كل المعلومات الخاصة بزعماء

سارخان بما فيهم الملك وأخذت أعيد حفظ ما قرأت وأنا أرتدى ملابسى ..
ـ كنت أعلم أننى سأذهب الى قصر الملك وقد أقابله أكثر من مرة ..

ففى القراءة الاولى قررت أن أقص عـــلى الملك طرفا من حيـــاته الخاصة المـــاضية .. فقد وقفت على أمر قصة عظيمـــة حدثت له عند ما حاول أغتصاب ابنة اخت ملك ســيام عام ١٩٢٨ وكادت تنشـــب حرب بين البلدين ، لقد عرفتها من حارسه الخاص .. فالمحـاولة الاولى ستمنحنى الفرصة الكافية لدراسة شخصية الملك عن كثب . وهذا أمر ضرورى لقارىء الـكف أو الطالع أن يتعرف على الشخصية التى أمامه من الداخل والخـارج ..

« ثم قررت بعـد ذلك أن أنفـذ بالتدريج الى الحالتين الحربيـة والسياسية ، وأدير الحديث بطريقة تجعل الملك يسألنى عما يجب عمله الحال الراهنة أو على الاقل ما تقوله النجوم وتنصح به ..

« فاذا سارت الامور بسهولة فقـد أستطيع أن أنتهى من المسألة برمتها من الجولة الاولى أو فى الليلة الاولى ..

« وفى الصباح استيقظت مبكراً وكنت على أهبة الاستعداد .. وجهزت كل أنواع الملابس اذا دعت الحالة أن أهرع الى قصر الملك فى الحال .. ولم أتنـاول طعام الفطور حتى لا تضيع منى مكالمة سوبفت التليفونية .. وكل ما تناولته كان عبارة عن زجاجتين من البيرة وبعض شرائح اللحم .. وكنت كالمجنون وأنا أنتظر رنين آلة التليفون .. ولكن بعد التاسعة بعشر دقائق لم يتصل بى انسان .. وحتى العاشرة لم أسمع شيئا فاحتسيت علبتين أخريين من البيرة . وفى الحادية عشرة لم أسمع صوتا فعلمت وتأكدت أن شيئا لا بد أن يكون قد حدث .. ولم أطق صبرا فأسرعت الى مكتب جورج سوبفت بالســفارة .. ولم يكن هنـــاك .. ونظرت الى سكرتيرته وتدعى ما كينتوش وقالت : أوه .. الكولونيل هيلانديل .. لقد كنا نبحث عنك طوال الساعة الماضية ..

فقلت لها : اننى كنت فى مكتبى طوال الصباح طبقا للتعليمات ..
فقالت الفتاة : بحق السماء .. لقد اتصلت بكل مكان فى المدينة ولم أجرب رقم حجرتك ..

فسألتها : .. هل اتصل المستر سوبفت بالامير مويانج ؟

فأجابت : أوه .. لقد اضطر المستر سوبفت وزوجته أن يذهبا الى مخازن الحكومة لان وكيل وزارة الخارجية سيحضر للغذاء وسيقيمان حفل تكريم هذا المساء وقرر المستر سوبفت أن يذهب بنفسه لان محال الخمور مغلقة اليوم ..

فقلت أ اذن ألم يتصل بالامير فى تمام التاسعة ؟

فأجابت : لا يا سيدى .. ولكنه اتصل بى من المخزن الحكومى وطلب الى أن أتصل بالامير مويانج ..

– وهل اتصلت ؟ ..

– نعم يا سيدى .. لقد اتصلت به بعد العاشرة بعشر دقائق ..

– وماذا قال الامير ؟ ..

– لقد كان الامير فى غاية الارتباك يا سيدى .. فلم أفهم من المستر سوبفت الموضوع ، فما أن جاء الامير على الخط حتى قلت له انك أنت ، أى الكولونيل هيلانديل يسرك أن تحضر مقابلة الملك لوكيل الوزارة ..

– وماذا قال الامير مويانج ؟

– قال من المتحدث ؟

– و . . ؟ .

– وقلت له اننى سكرتيرة مستر سوبفت .

– وبعد ذلك ماذا قال الامير ؟

فقالت الآنسة : لم يقل شيئا ثم تركنى على الخط ..

« حسنا يا سيدى .. لقد أهنا السارخانيين اهانة بالغة .. اننا لم نستعمل المفتاح بحرارة فحسب . ولكننا القينا بالعقبات فى طريقنا .. وفكرت أننى أستطيع عمل شىء ، فأسرعت الى مكتب الامير مويانج لاعتذر شخصيا ولكن سكرتيرة الامير أخبرتنى فى أدب أن سعادة الامير خارج المدينة .

« وبعد الظهر قابلت جورج سوبفت ، وقبل أن أفجر قنبلتى ، أخذ يعتذر لاهماله الاتصال بالامير مويانج فى التاسعة ، وقال أنت تعلم الموضوع .. فان وكيل الوزارة سيحضر وهو هنا ليفتش علينا .. وكنت أعمل الترتيبات اللازمة لحضوره ثم أضاف : أوه .. على فكرة لقد أسعدنا الحظ .. فقد اتصل بى رئيس الوزراء ووزير الخارجية والامير مويانج وذكروا لى أنهم أكلوا شيئا لم تستسغه معدتهم ، وعلى ذلك لن يحضروا حفل وكيل الوزارة .. فترى أيهما الكولونيل كيف يكون الموقف اذا حضروا وليس لدينا أى شراب نقدمه لهم .. لا تنظر الى هكذا كالمجنون ..

فقلت : بحق السماء .. لقد أطلعتك ليلة أمس على خطتى لكى يحرك الملك قواته نحو الشمال فى مناورات ..

فقال سوبفت : دعك من هذا يا كولونيل .. هـذه خدعة صغيرة تستطيع أن تلعبها فى حفلات الكوكتيل أما أن تدخل فى السياسة والدبلوماسية وتزج نفسك فيهما ..

وكانت هذه هى اللحظة التى لكمت فيها مساعدك فى عينه ! !

***

وعند ما غادر الكولونيل هيلانديل مكتبه جلس ماك هوايت بهدوء . كان يشعر بالضحك والغضب وكلما فكر فى الامر اشتد غضبه وأخيرا ضغط على أحدالازرار وطلب ان يحضر جورج سوبفت فى الحال ... وجاء رئيس البعثات وهو يقول : نعم يا سيدى ..

فسأله السفير : جورج .. هل ذهبت مرة الى « هايدهو » ؟ .

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل لاحظت عدد محل قراءة الكف وقارئى الطالع ؟

ـ أنظر يا سيدى .. عندنا الكثير من هذه العيادات فى أمريكا .. ولكننا لا نقيم سياستنا الخارجية على ما يقوله المنجمون ..

ـ هل قرأ لك انسان كفك ؟ بالطبع لا .. وهل تعرف أى نوع من الرجال يقومون بهذا العمل ؟

ـ انظر ياسيدى ! .. ان هذا النوع من العمل كذب وخداع وهراء ..

ـ جورج ليس هنا هراء اذا كانت الناس تعتقد فيه ، أن عملك لا يخول لك أن تحكم على الاشياء أهى خرافة أو هراء أو غير ذلك .. ولكن فى الذين يعتقدون فيها .

ولم يصدق جورج سويفت أذنيه ، واحمر وجهه ، فبطريقة ما وبخه السفير وهو يقول :

ـ جورج ، سابرق الى وزارة الخارجية واطلب نقلك ..

ـ لاننى لم أتعاون مع قارىء كف ؟!

ـ لا .. بل ساقول لهم ان عامين هنا وقت طويل بالنسبة لاى دبلوماسى وانك تستحق تغييرا . .

وضاقت عينا جورج وكان يعلم أنه لن يستطيع تغيير رأى السفير ، ولكنه كان يعلم أيضا أن الكلمة الاخيرة لم تكن له . .

***

الفصل السادس عشر

الـكابتن بوننج ..

من البحرية الامريـكية

جلس « سولومون آش » على رأس مائدة المؤتمر . وكان هادئامرتاحا لان الوقت لم يكن وقت مشاحنات ، وكان يعلم بفضل خبرته السـابقـة ان الفرباء حول المائدة يعمدون عادة الى التشابك بالايدى قبل ان يبدأوا المناقشة أو الجدال .. وفى الخارج كان ينبعث ضجيج « هونج كونج » الذى يدخل السرور على نفس آش ، وان لم يمكث فى هونج كونج غـير أسـبوعين ..

وكان آش يعرف أنه جاف الطبع ولكنه حاذق ماهر .. وفوق ذلك فهو يهودى قضى أيام شبابه فى الجانب الشرقى لمدينة نيويورك .. وكـان يعمل كمفوض نقابى وتدرج به حذقه وامانته الى أعلى مركز فى مهنته .. وسر آش عندما طلب اليه رئيس الولايات المتحدة الامريكية أن يخـدم فى الحكومة لمدة ستة أشهر كرئيس للمفاوضين الامريكيين فى قسـم التسليح الخـاص بالمؤتمـر الاسيـوى ..

دلف آش الى مقعده ونظر الى الامريكيين الذين سيكونون الهيئـة العاملة معه وحدد بعض الذين يستطيع الاعتماد عليهم والبعض الاخرالذى يجب ان يهمليم .. فلا بأس بماك هوايت السفير الامريكى فى سـارخان ..أما ندرسون الضابط السياسى المتخصص فىشئون شرقى الباسفيكى .. فلم يكن يساوى شيئا ، فقد سأله آش مرة كم عدد الشيوعيين فى نقابات هونج كونج فلم يعرف الغبى العدد .. أما دولنج فقد يمـكن الاستفادة منه فى الاوقات الحرجة ، وكان مرشحا لمنصب سفير ولكنـه كان يخاف ارسال التقارير الجافة الى واشنطن ، انه يتملق رؤسـاءه ولكن لديه معلومات . وقد يستطيع آش الافادة من هذه المعلومات ولكنـه لن يسمح لدولنج أن يقـوم باية مسـاومة ..

أما بقية الامريكيين فى الحجرة فكانوا دون المتوسط ولم تتح الفرصة لآش بعد أن يدرس فيها ضابط البحرية بوننج . وكان بوننج هذا رجـلا قصير القامة ، وقد لاحظ آش انه يلبس حذاء ذا كعب عال ليزيد من قامته وكثيرا ما كان آش يفكر أيضا « كثيرا ما يكون الرجل القصـير مفيـدا جـدا » ..

وابتدأ آش حديثه قائلا ـ حسنا ياسادة سيبدأ الاجتماع بانتظام .. فانتم تعرفون لماذا انعقد هذا المؤتمر .. فنحن اعضاء وفد المفاوضات الامريكى فى المؤتمر سنقرر أى نوع من الاسلحة ستوزعها الولايات المتحدة الامريكية على حلفائها فى آسيا .. ولست فى حاجة الى أن أذكركم بأهمية هذه المسألة .. كما أننى لست فى حاجة ايضا الى أن أطلعكم على الصعوبات التى سوف تواجهنا .. فالمندوبون الهنود والبورميون والتايبون سوف يعترضون على توزيع أسلحة خاصة فى بلادهم .. وقد يكونون محقين ولكن حكومتنا لاتعتقد ذلك .. وفى هذه اللحظة بالذات ليس لدينا تشريع من الكونجرس ليسمح لنا بتبادل معلوماتنا مع اصدقائنا ، وأعتقد اننا سنحصل على هذا الاذن قريبا جدا ..

وتجهم وجه آش وعرف الاعضاء معنى ذلك .. لان الترتيبات الجديدة جعلت أمريكا تقرر انه أصبح من اللزم الضروريات تبادل المعلومات والاسلحة مع حلفائها .

وعاد آش يقول : « والان أيها السادة .. لقد قرأتم فى الوثائق المصنفة مركز الولايات المتحدة الرسمى ولن اضيع وقتكم هذا الصباح انما الذى أريد أن تفهموه كيف ادير دفة الاجتماع ..

أولا ـ تذكروا جيدا أننى رئيس وفد المفاوضات . واذا ساوركم الشك فى أى تصريح أدلى به فتباحثوا معى بشانه على انفراد لا فى الاجتماعات . فلن أقول شيئا من غير سبب .. وقد يكون التصريح احيانا غير معقول ولكن لاتقاطعونى او تنتقدونى .

ثانيا : ايها السادة ألقوا نظرة على برنامج هذا الاجتماع ..

وتناول الرجال المتحلقون حول المائدة البرنامج الثقيل المعد لثلاثة أسابيع وأخذوا يقلبون صفحاته فى كسل وتراخ ..

وقال : « اعلموا أن حفلتين أو ثلاثا من حفلات الكوكتيل ستقام كل مساء . وكذلك حفلة عشاء غير رسمية .

ثم احتقن وجهه وقال : « لااريد ان يذهب احد منكم الى حفلات الكوكتيل ، ولكن اريدكم أن تذهبوا الى حفلات العشاء الرسمية مرتين فى الاسبوع .. وساكتب بطاقات اعتذار وسنذهب جميعا الى الحفلة الاخيرة لان العمل او المفاوضات تكون قد انتهت .. »

فقال السفير دولنج : مستر آش .. هل تعتقد ان ذلك يكون من الحكمة .. ؟ فالاسيويون حساسون فى هذه الناحية وقد يشعرون بالضيق ..

وقال آندرسون الضابط السياسى : وأيضا يامستر آش .. أعتقد أنه لايجب ان نتهاون فى التقاط بعض الاخبار الهامة من هذه المجتمعات .

فاجاب آش بخشونة ـ هراء .. دعونا نركز انفسنا على الشىء الذى سيحدث أولا .. فالاسيويون سيحترموننا اذا ساومنا مساومة عنيفة معهم على مائدة المؤتمر وسوف يكلفنا ذلك مجهودا كبيرا . فالنجاح على مائدة المؤتمر مسالة توازن حساسة .. فلو كان بعضكم متاثرا من حفلات الكوكتيل التى حضرها ليلة الامس مثلا او أخطأ فى اصابة الهدف

فسوف نفقد جزءا من مساومتنا .. واذا تكرر حدوث ذلك فاننا نخسر المساومة باكملها .. ودعني أقول لك بصراحة يامستر دولنج ، رغم انني جديد هنا ، فان هيبة امريكا سوف ترتفع فى نظر الاسيويين اذا تجنبتم حضور بعض حفلات الكوكتيل .. »

ثم التفت آش الى اندرسون وكان الاخير قد ارتد فى كرسيه الى الوراء ولم يكن قد سمع ديبلوماسيا يستعمل هذه اللغة المباشرة . لذلك شعر باساءة بالغة . .

وقال آش : والان يامستر اندرسون .. فيما يختص بجمع معلومات من حفلات الكوكتيل لاأحب أن يلعب احدكم لعبة « ماتا هارى » فى أى مؤتمر أدير دفته .. لقد حضرت آلاف المجتمعات طول عمرى، ولم أرفى حياتى أجنبيا يعطى بعض معلومات هامة فى حفلة كوكتيل .. »

وتطلع آش الى الاعضاء ثم أشار براسه ، للدلالة على أن الاجتماع قد انفض .. وأدرك كيف أثرت كلماته فى نفوس الاعضاء . أما مالك هوايت والكابتن بوننج فكانا الوحيدين اللذين وافقاه على كل كلمة قالها .. أما الاخرون فقد شعروا بالاساءة والضيق على درجات متفاوتة . فدولنج سوف يكتب تقريرا خبيثا مريرا الى واشنطن .. ولكن آش لم يكن ليهتم بهذه الاسفاسف ..

وما بدأ الرجال يغادرون القاعة حتى نادى آش بصوت حاد « كابتن بوننج .. أريد أن اتحدث اليك لحظة ..

واستدار الكابتن بوننج راجعا .. فلاحظ آش أن قوام الكابتن معتدل مستقيم ..

ورد الكابتن بوننج : نعم ياسيدى .

فقال آش : « بوننج .. دعنى أقل لك من الان انك ستكون أهم شخصية فى هذه المفاوضات .. فانت الوحيد هنا الذى تفهم استعمال الاسلحة الخاصة . أما بقيتنا فستعتمد على معلوماتك وخبرتك . فاذا ناديتك لتبدى ملاحظاتك فعليك ان ترد على السؤال الذى سأوجهه اليك .. لاشىء أكثر .. ولا شىء أقل .. مفهوم ؟

ـ نعم ياسيدى .. ولكن ماذا يكون موقفى اذا كانت المعلومات مصنفة .. ؟

ـ نقطة لاباس بها .. قل فقط انها مصنفة وعليك ان تذكر الجزء الذى لم يصنف منها .. ولا تعتذر عن التصنيف أفهمت ؟

فاجاب كابتن بوننج : نعم ياسيدى ..

واستدار على عقبيه وغادر القاعة .

***

وبدأت الاجتماعات العامة فى صبيحة اليوم التالى فى قاعة كبيرة مزركشة بنيت عندما كانت قوة انجلترا فى ذروتها فى « هونج كونج » ..

كان بالقاعة أكثر من مائة رجل وقد دارت فوق رءوسهم ببطء «مراوح» عتيقة .. وفى حجرة بجوار قاعة المؤتمر جلس عدد كبير من المترجمين يذيعون أنباء المؤتمر خلال مكبرات صوت خاصة . وكان لكل عضو سماعة خاصة يديرها فيستمع اى الخطاب وهو يترجم الى اللغة الفرنسية أو الانجليزية أو الى لغته الاسيوية .. أما فكرة استماع كل عضو الى الخطيب بلغته الوطنية فكانت من بنات أفكار آش ، لانه أصر أمام سكرتيرى الاجتماع، بانه ليس هناك من سبب لكى يستمع الاسيويون الى الخطباء وهم يتكلمون باللغة الانجليزية او الفرنسية ، وذكر أن الولايات المتحدة على استعداد لدفع تكاليف الترجمة حتى يستطيع كل مندوب أن يسمع كل خطبة بلغة بلاده . .

وافتتح الاجتماع بقراءة مطولة لمحاضر الاجتماع السابقة ثم دارت مناقشة حادة عن المكان الذى سوف يعقد فيه الاجتماع القادم . كان آش يريد ان يعقد الاجتماع القادم فى الهند لان المندوبين الهنود كانوا أكثر الاعضاء ترددا فى استخدام الاسلحة الجديدة . وفكر آش جيدا لو عقد الاجتماع القادم فى الهند فقد يجبر الهنود على مواجهة مشكلة استخدام الاسلحة الذرية وكان يعلم أيضا ان الهنود سيرفضون عقد المؤتمر فى بلادهم لانه سمع بطريق « برق الغابة » أن الهنود كانوا يعارضون جمع المال اللازم لانعقاد المؤتمر . .

ودارت المناقشة حول اختيار المكان المناسب للاجتماع التالى لمدة ست ساعات ومع ذلك لم يصل المجتمعون فيها الى حل فبدأ آش تحركاته ، وارسل على الفور ورقة صغيرة الى رئيس المندوبين الهنود يقول فيها ان الحكومة الامريكية على استعداد لتمويل المشروع ، بصفة سرية ، والصرف على اقامة الاجتماع التالى . وبعد ذلك مباشرة حلت المشكلة . .

وفى اليوم التالى بدأ المؤتمر اعماله الحقيقية ببطء ولكن بدقة تامة . ووجه آش كل الاسئلة السياسية الى السفير ماك هوايت ، والاسئلة العسكرية الى الكابتن يونتج . وعالج كل منهما الاسئلة علاجا موفقا فردا على كل سؤال بحذق ومهارة وبدون أدنى ارتباك أو خطأ .

وعلم آش أن هذه الردود المحكمة اثارت المندوبين الفرنسيين والبريطانيين لانهم لم يعتادوا فى حياتهم السياسية على ان يتحدثوا الى الاسيويين عن الاسلحة واستراتيجية الحرب بصراحة وأمانة كما كانوا يتلطفون مع أميرالات وجنرالات البلاد الاسيوية وفى نفس المساء ذهب المندوب الفرنسى وزميله البريطانى لمقابلة آش فى فندقه . .

قال الرئيس الانجليزى ، وكان كالطائر النحيل فى صورة انسان ملما بالتاريخ الاسيوى فى القرن التاسع عشر ، الذى فقد قيمته فى هذا القرن . .

– مستر آش ! اننى وزملائى قد اقلقتنا الطريقة التى تباشر بها الاجتماعات فهؤلاء الناس قد حصلوا على استقلالهم اخيرا وهم ليسوا على استعداد للتفاوض فى مشكلات التسليح الدقيقة الا فيما يخصهم من الناحية المحلية .

ونحن نعتقد أن أحسن استراتيجية يمكن للولايات المتحدة الامريكية أن تتبعها هى أن تضع الحد الادنى لطلبات التسليح أمام المجتمعين وستعضد دولتانا المشروع .

فرد آش ـ أيها السادة .. أعتقد أن خبرتكم فى هذه الامور اكثر من خبرتنا بكثير كما أن خبرتكم مع الاسيويين لايمكن انكارها ..
فهز المندوبان راسيهما بتواضع ، واستمر آش يقول :

« ثم سيطرتكم على الموقف لمدة جيلين .. اعلما علم اليقين ان احدا من اعضاء مفاوضاتنا لن يضع أمام اللجنة أية حدود لنيالمشروع التسليح .. !

فاذا حصل هؤلاء الناس على اسلحة ذرية فسوف يقاسون من النتائج فى يوم من الايام .. انهم الان قد بلغوا سن الرشد ويجب عليهم ان يعلموا خطورة العمل الذى يقدمون عليه .. فلا تخدعا انفسكما ياسادة اللهم الا اذا شعرتما انهم فى مثل كفاءتكما فعاملوهما على نفس المستوى والافلن يلتفتوا اليكما لقد رايت ذلك يحدث مئات المرات .. اذا شعر انسان منهم انكم تقللون من شانه فى أية مفاوضات فسوف يكون ذلك الانسان أقسى مخلوق حول المائدة ..

ايها السادة .. هذا هو مكانى وهذه هى الطريقة التى اباشر بها مفاوضاتى ..
وغادر المندوبان المكان بدون ان يعلقا على الموضوع بكلمة واحدة .
وقال آش لنفسه .. « وهذان تقريران اخران فى طريقهما الى واشنطون ضد تصرفاتى فلتذهب هذه التقارير الى الجحيم مادمنا متقدمين فى المفاوضات . »

.. وفى منتصف الاسبوع الثانى بدأت الامور تضطرب . فقد لاحظ آش وهو الخبير بطبيعة الاجتماعات أن المندوبين الاسيويين قد أثارهم شىء أو أشياء ، لذلك كانوا متضايقين ، وفى نهاية الاسبوع وضع آش اصبعه على دوافع الثورة والمضايقة .

كان سبب الاثارة هو الكابتن بوننج ، فقد اقترف خطأين اثنين صغيرين أولهما أنه كان ينام على مائدة الاجتماع بعد تناول الطعام مباشرة .. وثانيهما أنه كان يتردد قبل أن يجيب عن السؤال وكانه يحاول أن يخفى بعض المعلومات أو يعيد صياغة الكلمات .. وكانت هذه اشياء صغيرة لم يلحظها الا نفر قليل من أعضاء المؤتمر ولكنها كانت ، رغم تفاهتها ، محرجة للمشتركين فى المؤتمر . وما أن انتهى اجتماع مساء الجمعة حتى تعمد آش أن يسير بجوار بوننج وهو يقول بلهجة صارمة حازمة :

« بوننج .. من الافضل أن تاخذ قسطا اوفر من النوم حتى لايغلبك النعاس بعد الغداء مباشرة كما أريد أن تجيب عن الاسئلة فور توجيهها اليك ، فأى تلعثم او تردد يجعل الناس يصرون على اسنانهم ..

فاجاب الكابتن بوننج ـ ان أكثر هذه الاسئلة الفنية عن التسليح

دقيقة وصعبة وليس من السهل ان يتذكر الانسان كل الردود أو يفصل المعلومات المصنفة عن المعلومات العامة ..

فرد عليه آش : حسنا اذن ، اذا كنت لاتستطيع القيام بمهمتك فسوف نكل الامر الى غيرك .. لقد كانت اجابتك فى الاسبوع الاول رائعة وكانت ذاكرتك قوية .. فما الذى حدث هذا الاسبوع . ؟

فاجابه الكابتن بوننج ـ لاشىء .. غير أنى اريد ان اكون دقيقا فى كل شىء اقوله ..

فساله آش ـ هل انت متاكد انك لاتقضى لياليك فى عربدة أو مجون ؟

لقد واجه آش هذه المسائل مرات متعددة وكان يلاحظ أن رجلا ما يبدأ حديثه فى أول الامر باجادة تامة ثم يقضى هذا الرجل لياليه فى أنوادى الليلية فتنقلب ردوده فيما بعد الى اجابات مهلهلة وتسير الامور من سىء الى أسوأ ..

فأجاب الكابتن بوننج ، وكان صوته حادا فيه نبرة احتجاج : لا ياسيدى .. فانا لاقضى ليالى كما تقول ..

ولم يكن رد الكابتن بوننج صحيحا باكمله .. فهو لم يحتس الخمر أو يضيع لياليه فى مجون وخلاعة ولكنه بطريقة ما كان يستمتع بليال خيالية غريبة » ..

وبدأت القصة عن طريق اندرسون الضابط السياسى من وزارة الخارجية الامريكية فقد كان يعرف كل انسان فى « هونج كونج » له مكانة رفيعة فى السلك السياسى او الدبلوماسى.. ففى يوم ما قدم بوننج الى سيدة صينية تدعى الدكتورة دوبى تسونج . وكانت أستاذة فى جامعة هونج كونج ، وتلقت تعليمها فى الولايات المتحدة الامريكية . ولم يعرف اندرسون ان الدكتورة تسونج تلقت تعليما خاصا فى مدرسة خاصة فى ضواحى موسكو ..

واقترح اندرسون ان تساعد الدكتورة تسونج الكابتن بوننج فى شراء بعض الهدايا من هونج كونج لياخذها معه الى الولايات المتحدة الامريكية . وأضاف أيضا أن الدكتورة تسونج تستطيع أن تختار له الالوان وان توقفه على المشارب المحلية .

ولكن بوننج تذكر انذار آش فتردد اول الامر ولكن فى اللحظة التى رأى فيها الدكتورة تسونج تبددت شكوكه وزايله تردده ..

وكانت الدكتورة تسونج تبدو كزوجة شرقية لرجل انجليزى تلبس ثيابا انجليزية محافظة وجوارب سميكة وحذاء مصنوعا فى انجلترا بكعب منخفض صمم للسير الطويل وكانت تبدو من عويناتها السميكة أشبه بمدرسة . وكانت لغتها قوية بليغة ، وكانت من نوع النساء اللاتى يحببن أن يقضى الرجل معهن أطول فترة ممكنة .

ففى الاسبوع الاول بدأ الكابتن بوننج يجوب المدينة فى صحبة الدكتورة تسونج ، فزارا مصنع الادوية ورأى بوننج بنفسه كيف تستخدم الاعشاب فى أدوية يستعملها الاوروبيون بكثرة . ثم اخذته الى شارع عتيق لايباع فيه شيء غير الاطعمة المحفوظة ثم الى أمكنة تخصصت فى بيع البقول والعطور وبعض حيوانات واسماك البحر المجففة واخرى لاتبيع غير عصير خاص يوضع على الاسماك ويتكلف الحصول عليه ثمنا باهظا ..

وفى احدى الامسيات اخذته الى بناء منخفض لمشاهدة اللوحات الخاصة باسرة منج وقد اعيد رسمها بدقة متناهية حتى ليعجز امهر الفنانين عن مقارنتها بالصورة الاصلية . .

وظن بوننج ايضا ان الدكتورة تسونج قد سرها مرافقته اراحة لاعصابها المرهقة بعد العمل فى الجامعة طول اليوم .. وشعر ايضا انها لو ارتدت ملابس النساء وزينت نفسها بعض الشيء لبدت آية للناظرين

وبعد انتهاء اجتماع الجمعة دعا الكابتن بوننج الدكتورة تسونج لتناول طعام العشاء فى مطعم باريسى. وقد تعمد أن يعيد مراجعة تقاريره وملاحظاته فى هذا المساء وكذلك فى عطلة نهاية الاسبوع السبت والاحد على التحديد . وكانت هذه التقارير قد أودعت خزانة السفارة الامريكية .. وما ان ودع الدكتورة تسونج على عتبة فندقه حتى لاحظ لاول مرة انها كانت امرأة صغيرة جدا وسره ذلك الكشف كثيرا ..

وفى نفس اللحظة تذكر زوجته لورا التى كانت الابنة الوحيدة لاحد أثرياء « بالتيمور » وكانت ثروتها الضخمة سببا فى نجاح بوننج فى أعماله وان كان تفوقه وترقياته فى الاعمال التى كلف بها كانت بمجهوده الخاص ولا فضل فيها لزوجته . وكانت لورا امرأة طويلة القامة فارعة العود ارستقراطية . ولكن بوقوفه الى جانب الدكتورة تسونج أخذ يفكر فى الاسباب التى أدت الى اقترانه بلورا .. أكانت هذه الاسباب راجعة الى قصر قامته وطول قامتها .. وقال بوننج فجأة : دعينى ارافقك الى منزلك يادكتورة تسونج .. فنظرت اليه الدكتورة فى استغراب ، ففى كل مرة سابقة كان يتركها تذهب وحدها الى منزلها بعد ان يدفع اجرة السيارة ، فاجابته :

ـ بالطبع ياكابتن انه ليسرنى ذلك كثيرا .. ولكنى لااريد ان اتدخل فى عملك .

فاجاب بوننج ـ لن يستغرق الامر طويلا فساعود بنفس السيارة فلدى عمل لابد من انجازه .

وانتظرت سيارة الاجرة خارج مسكن الدكتورة ثمانى ساعات وعندما غادر الكابتن بوننج مسكنها فى الساعات الاولى من الصباح كان بوننج قد الم بدقائق جسدها الصغير الماما تاما ، وتاكد من سلامة قواه الجسمانية .. وفى الايام التى تبعت ذلك أصبحت تسونج لازمة لبوننج وقضى معها أغلب الليالى . .

***

فى مساء يوم الخميس من الاسبوع الثالث لانعقاد المؤتمر كان كل انسان يعرف ان المؤتمر بلغ ذروته ، تبودلت فيه الآراء ونوقشت مناقشة حادة واستعرضت فيه كل القوى البشرية واحتمال بناء قواعد بحرية واستخدام الاسلحة الذرية فى كل فرع من فروع القوات المسلحة ومناقشات لانهاية لها عن طرق المراقبة والسيطرة على هذه الاسلحة .

وفى أثناء هذه المناقشات ظل آش هادئا كل الهدوء .. وكان يرد على الاسئلة اذا وجهت اليه وترك الاعضاء الاسيويين يكونون لانفسهم جوا خاصا من المنطق والسيطرة على الموقف .. وفى مساء الخميس تقدم بتحليلاته الطويلة عن الموقف ، وفى نهاية الحديث كان صوته قوى النبرات عندما قال :

« لقد كنت صريحا معكم ايها السادة .. كما قدرت لكم صراحتكم معنا .. لقد ذكرت لكم بالتفصيل قوة اسلحتنا وذكرتم انتم كم ستعود عليكم هذه الاسلحة بالنفع .. ولكن هذه مشاكلكم انتم .. لامشاكلنا نحن وأود أن أحمل معى بعض وعود منكم الى قوادنا العسكريين والسياسيين أنكم ستحتفظون بهذه القنابل الذرية فى بلادكم .. »

فرد عليه أحد القواد العسكريين الهنود بقوله :

« عندى سؤال واحد أحب أن اساله .. عن سلامة هذه القنابل فى أزمة الحرب .. فلا بد لنا من التدريب على استخدامها وصيانتها لأن القوة الهائلة التى تنبعث من هذه القنابل قد تؤدى الى كارثة اذا أسىء استعمالها فى احدى المناورات .. »

وحول آش نظره فى الحال من الكولونيل الهندى الى بوننج . وكان الاخير جالسا جلسة مستقيمة ولكن عينيه مفتوحتان بصعوبة .. ولم يتأكد آش ان كان بوننج قد سمع السؤال جيدا ام لا .. ولكنه كان متاكدا أنه لو استطاع اجابة الكولونيل الهندى اجابة صحيحة لتمت المساومة ونجحت الصفقة فاذا تمت الصفقة مع الهند فسوف تتم كذلك مع البلاد الاخرى .

فأجاب آش بهدوء وبطريقة تعيد السؤال الى ذهن بوننج قائلا :

« سيدى .. ان هذا سؤال وجيه .. ساطلب الى الكابتن بوننج أن يعطيك ردا صريحا فى كيفية حفظ هذه الاسلحة النووية فى أوقات السلم .. »

وفتحت فى الحال عينا بوننج ولعن آشي نفسه لانه عرف بان بوننج لم يسمع السؤال مطلقا .. وعمد آش الى محاولة اخرى فقرر صياغة السؤال فى قالب آخر فنظر مباشرة الى بوننج وقال :

« ان الهند بلد مزدحم وكذلك الولايات المتحدة الامريكية ونحن مهتمون جدا بسلامة مواطنينا تماما كما تهدفون انتم فى الهند وأعتقد أن الكابتن بوننج يستطيع أن يؤكد لك ذلك ..

وتململ الكابتن بوننج ثم قال بصوت متردد :
ـ أيها السـادة ان هذه مشكلة معقـدة ..
فرد عليه أميرال بورمى :
ـ أن جميع المشـاكل معقدة ! ..
وضجت القاعة بالضحك مما جعل الامـر يختلط على بوننج فاسرع يقـول :
« على العموم نستطيع أن نقول ان القوة اللازمة لتفجير قنبلة ذريـة عظيمة جدا لدرجة ان انفجار العادية او الكوارث الجسـيمة او حتى انفجار طائرة من الطائرات لايمكنها أن تحقق القوة اللازمة للتفجـير الـذرى ..

فسأله أحد الجنـرالات الهنود :
ـ هل تحمل القنابل النووية بطريقة معينة بحيث تكون اجزاؤهـا المهمة فى وضع يسهل تفجيرها منها ؟ ..
فتجهم وجه بوننج وبدأ عرق خفيف يتصـبب على جبهتـه وبدا المندوبون يتململون فى مقاعدهم ، ولعن آش بوننج مرة اخرى فهذا هـو الوقت الذى يسرع فيه بالاجابة كالبرق الخـاطف ..
فاسرع آش يقول ـ سؤال بسيط يابوننج .. فاعطنا الرد البسيط فنظر بوننج الى آش وقال والبؤس يبدو على ملامحه :
« أعتقد ياسيدى ان الاجزاء الرئيسية للمادة مهيأة لكنى لااستطيع الكشف عنها فى هذا المجال .

فاجاب كولونيل هندى بدين بغضـب :
« هذه هى الطريقة التى تنتهى بها دائما المؤتمرات ففى الوقت الذى نكاد نصل الى اتفاقية نكتشف اننا لانحصل على جميع البيانات اللازمـة .. فاذا كانت القوى الغربية تنتظر منا أن نتعاون معها فى مسـائل حياة أو موت فيجب ان يعاملونا بروح التكافؤ والمسـاواة . ومن الواضح أن حكومة الكابتن بوننج لاتعتقد اننا فى وضع نقدر فيه هذه الامور ..
فقال آش بهدوء ـ أيها السادة .. أود أن اقترح أن يستريح المؤتمر قليلا حتى أتحدث مع الكابتن بوننج .. وكان يعلم علم اليقين أن الطريقة الوحيدة لانقاذ المؤتمر هى أن يطمئنهم عن سلامة القنبلة .
وبعد نصف ساعة من قراءة التفاصيل الخاصة قرر آش وبوننج أن الرد على السؤال بسيط ويمكن اعطاء المؤتمر التفاصيل الخاصة بهولكنهما عندما عادا الى المؤتمر كان الجو قد تغير .. ومن الواضح أن حديثا دار وقت الاستراحة بين المندوبين الاسيويين وقر قرارهم على عدم ادخال الاسلحة الذرية أو النووية الى بلادهم ..

وانتهى الاجتماع وعاد آش الى مكتبه وأبرق الى واشنطن برقيـة مطولة ذكر فيها الاسباب الرئيسية التى ادت الى فشـل المؤتمر وان المسئولية تقع عليه وحده ..
وبعد يومين كان آش فى طريقه عائدا الى واشنطن وكان الكابتن بوننج بعد أن اشترى قرضا فضيا لزوجته لورا ، يدلف الى احدى الطائرات الحربية فى طريقه الى هاواى

الفصل السابع عشر

الامريكى القبيح

« ياللعنة » قالها هومر آتكنز لنفسه وهو يلقى بنظره فى ارجاء الحجرة على الرجال الذين يرتدون ازياء على اخر طراز ، فامراء البيروقراطية ـ حكومة تركيز السلطة ـ فى أنحاء العالم على شاكلة واحدة . فهم يجلسون فى زيهم الضيق المتانق ويمرون باصابعهم النظيفة على خدودهم الناعمة الملساء ويبتسم بعضهم لبعض ثم يسالون آتكنز اسئلة حمقاء تدل على الغباء ..

اما ما كان يريد آتكنز ان يقوله لهؤلاء : استمعوا ايها الاغبياء .. ان المسالة بسيطة جدا .. فدعونا نحن المهندسين نحلها بهدوء ونصل الى الحقائق او النتائج التى يجب ان نصل اليها .. فاذا لم يعجبكم ما فعلنا اطردونى من بلدكم .. ولكن لا تلقوا هذه الاسئلة الغبية عن السياسة وفلسفة الجماهير .

ولكن آتكنز لم يقل هذا .. بل لم يقسم او يغلظ فى القسم على غير عادته .. بل نظر الى يديه . وكانت هذه خدعة تعلمها منذ زمن طويل .. لان يديه كانتا تذكرانه بانه رجل قبيح . وكانت هذه الفكرة اذا خطرت له تجعله يتوقف لحظة ويتاهب للخطوة الثانية . وكان فى اثناء الحرب العالمية الثانية يستخدم التطبيق الفنى فى معاملاته مع رجال الحكومة المسئولين أو مع مديرى المؤسسات التى كانت تستخدمه ونظر آتكنز الى يديه كانهما ينتميان الى انسان غريب ..

كانت يداه معروقتين ، بهما بقع بيضاء كبيرة من الكلف .. وكانت أظافره سوداء من الشحم واصابعه بها آثار جروح من عمله الهندسى . أما كفاه فكانتا يابستين وكان « هومر آتكنز » يعنى ثلاثة ملايين من الدولارات كسبها بعرق جبينه وطول صراعه فى الحياة العملية ولكنه كان مع ذلك يزهو فخرا بيديه القبيحتين اللتين درتا عليه ثروة طائلة

وكان آتكنز الوحيد فى الغرفة الذى لم يرتد رباط عنق بل كان يرتدى قميصا خشنا من اللون الكاكى وسروالا رخيصا وحذاء بسيطا . وكانت لاتزال رائحة الغابة عالقة به .. أما الرجال الاخرون فى الحجرة وكانوا من الفرنسيين أو الامريكيين فكانت رائحة ذكية تنبعث منهم وهم فى ثيابهم الانيقة . وتنهد هومر ثم رفع راسه وقال :

« حسنا أيها السادة .. ساقولها مرة اخرى ..

لقد طلبت الى الولايات المتحدة الامريكية التوجه الى هذا المكان

لالقى اليكم ببعض النصائح عن بناء السدود ورصف الطرق الحربيـة . وانتم تعرفون من أنا .. فانا رجل متخصص فى الصناعة الثقيلة ، كالطرق والكبارى وما شابه ذلك .. لقد مضى على هنا اكثر من عشرة شهور وقد جبت هذه البلاد اللعينة من فان رانج الى فان جيا ثم الى الجبال ومنهـا الى كونتوم .. وتحدثت الى الاف الاشخاص وصممت وحـددت اماكن السـدود والطرق العسكرية والمطارات ..

وقاطعه رجل فيتنامى رفيع وكان يتكلم الانجليزية بلكنة فرنسية ، وظن آتكنز ان الرجل لابد ان يكون خريج « السربون » حتى ان لغتـه الانجليزية رغم لكنتها الفرنسية كانت أحسن بكثير من لغة آتكنز نفسه. وقال الرجـل :

« مستر آتكنز .. اننا شاكرون لك حضورك لمساعدتنا .. لقد كانت حكومتك فى غاية الكرم وكذلك انت . والان نحب ان نسـمع تعليقاتك وتوصياتك عن مكان مد الطرق واقامة السدود ..

فأجاب اتكنز .. لقـد ذكرت ذلك فى تقاريرى .. ألم تقرأها ؟
فاجاب فرنسى متوسط العمر : نعم يامستر آتكنز لقـد قراناهـا جميعـا ..

ولكنها لم تذكر بالتحديد اين ستبنى السدود وتمد الطرق ..
فاجاب آتكنز « لانكم لستم فى حاجة الى سدود او طرق الان ..

ربما تحتاجون الى ذلك فى المستقبل ولكن فى هذه الآونة يجب أن تركزوا جهودكم على الاشياء الضرورية .. الاشياء الكثيرة التى يمكننا أن نصنعها ونستعملها .. اننى لا أعرف اكثير عن الزراعة أو تخطيط المدن ولكنى أقول أنكم تحتاجون الى أشياء أخرى بجانب الطرق الحربية هل سمعتم ان نقص المواد الغذائية يمكن علاجه باقامة طرق صالحـة لسير العربات والسيارات الثقيلة ؟

فقال الرجل الفيتنامى : مستر آتكنز .. أعتقد أن القرار الخاص بحاجتنا الى السدود هو قرار سياسى .

ثم أسر الرجل الفيتنامى الى زميله الفرنسى بكلمة خاطفة وعـاد يقول :

«هل أفهم من ذلك أنك لا تنوى أن تقوم بالاقتراحات والتوصيات اللازمة لبناء الطرق أو السدود فى فيتنام ؟

وفهم آتكنز أن الفيتنامى يحاول اخافته وشعر بغضب .. لقد قضى حياته كلها يدخل فى مزايدات بمئات الملايين من الدولارات ويباشر الوف العمال والمهندسين والرجال وفوق ذلك سمعته وشـهرته فنظر الى الرجل وقال :

«انظر يا سيد .. لا أعرف بالضبط كم مرة غادرت فيها سايجون، الى البلاد الداخلية وانصحك ان تذهب بنفسك وتلقى نظرة على الامور .

وبدا المستر جوسيا غوردن من السفارة الامريكية يتململ ولـــكن آتكنز لم يعره أدنى التفاتة وعاد يقول :

« انك تريد صناعات ثقيلة .. مصـــانع ضخمة .. تريد ان ينتشر التليفزيون فى طول البلاد وعرضها .. ان هذا يتكلف كثيرا ويحتـــاج الى عمال مهرة وملايين الدولارات ورجال لهم كفايات خاصة، بالطبع عندكم رجال كثيرون مجتهدون فى كل مكان ولكنهم لا يريدون ما تطلبونه انتم اليوم .. لان الوقت لم يحن لذلك بعد .. وهذا هو الذى دعانى الى أن اقترح فى تقريرى ان تبدأوا اولا بالاشياء الصغيرة ثم بعد ان تجيـــدوا صناعة هذه الاشياء الصغيرة تنتقلوا منها الى الاشياء الكبيرة .. من السهل ان نبنى لكم السدود ونمد الطرق عبر البلاد ولكن ليست لديكم الطاقة أو المهارة أو الحاجة اليها الان .

فقاطعه جوسيا غوردن وهو يقول بسرعة :

«مستر آتكنز ! أعتقد أن هذا قرار سياسى لا يدخل فى اختصاصك وسنترك تقريرك كما هو ونعرضه على المسئولين ..

فرد عليه آتكنز بعناد : حسنا . حسنا .. ولكن هل منكم من ذهب الى الريف ؟

أنا لا أريد احصائيات أو وصفا بليغا .. اريد جوابا على سؤالى .. هل ذهبتم الى القرى والارياف ؟

وجلس الفرنسى والفيتنامى والامريكى وقد بلغ بهم الاحراج كل مبلغ وشعر آتكنز فى هذه اللحظة أن الامتعاض قد ظهر على وجوههم حتى بدت قبيحة قبح يديه ..

ووقف أخيرا أحد الامريكيين فى الصفوف الخلفية وقال :

«مستر آتكنز ! اسمى جلبرت ماك هوايت وأنا زائر هنا ولســـت مشتركا فى المؤتمر ولكن أود أن أعرف ما تقترحه فى تقريرك .

فأجاب غوردن ـ سيدى السفير ماك هوايت أظن أننا لن نأخذ وقت هؤلاء السادة ونعيد ما قلناه . .

فقاطعه آتكنز ـ لن يستغرق الوقت طويلا .. لقد ذكرت لهم الخطوة الاولى التى يجب اتباعها .. أى أن يقوموا بصناعة الاشياء التى يستطيع الفيتاميون أنفسهم أن يصنعوها .. ثم ينتقلوا منها الى الاعمال الكبيرة بعد أن يكتسبوا الخبرة والمهارة .

فسأله ماك هوايت ـ واى نوع من الاشياء يجب أن يبداوا بها ؟

فأجاب آتكنز : أولا .. مضرب طوب .. رخيص التكاليف .. سهل الادارة .

وسوف يمدهم بمواد البناء .

ثانيا .. محاجر لقطع الحجارة من الجبال فهناك حجارة ممتـــازة يمكن استعمالها فى بناء البيوت .

واحمر وجه الفرنسى وتكلم بسرعة الى الرجل الفيتنامى ثم وقف قائلا :

مستر آتكنز .. قد لا تعرف أن شركة فرنسية تقوم بانتاج مـواد البناء فى هذه البلاد . فاذا ابتدأ كل انســان فى ضرب قوالب الطوب أو تكوين شركات لقطع الحجارة من الجبال فقد يسىء ذلك الى علاقتنـــا ويهدمها ..

فأجاب آتكنز ـ هذه هى مشكلتك لا مشكلتى ..

ثالثا .. يجب أن يقوم شخص بتأسيس شركة لحفظ الاطعمة ... فالاهالى يصطادون الاسماك ويزرعون الخضر ولكنها تفسد قبل أن تصل الى المدن .. فشركة صغيرة لحفظ الاطعمة فى عشرين مدينة من المدن قد يساعد كثيرا

رابعا .. ان الاراضى الساحلية من كى توم الى فان رانج ملحـــة سنجة ولا تصلح للزراعة ولكن وراء هذه الاراضى فوق التلال يوجد شريط من الارض الخصبة فلماذا لا يشق طريق واحد عبر الغابة حتى يتسنى لرجال السواحل الافادة من هذه الارض الطيبة ؟

فقال جوسيا غوردن بغضب وثورة :

والآن استمع الى يا مستر آتكنز .. اننا لم نحضرك هنا كخبـــير فى الامور الزراعية .. فلدينا هنا الكثير من خبراء الزراعة .

فرد عليه آتكنز وقال بهدوء وبدون غضب وهو ينظر الى ماك هوايت الرجل الوحيد الذى كان يصغى اليه بانتباه .

واذن قل لهؤلاء أن يتحركوا من أماكنهم ويذهبوا الى القرى والارياف

فأجاب غوردن مرة أخرى : سيدى السفير «ماك هوايت» .. اننى اصر على انهاء هذا الاجتماع .. اننى على علم بمواهب المســـتر آتكنز وشهرته العظيمة فى الولايات المتحدة الامريكية ولكن هذه مهزلة المهازل . مهندس يبدى آراءه عن الزراعة .

وأضاف الفرنسى ـ وكذلك فى الامور العسكرية .

فمد آتكنز أصبعه نحو الفرنسى وقال :

سيدى السفير .. أستطيع أن أذكر لك أشياء صغيرة أخرى ولكن لدى ما أقوله لهذا الرجل أولا .. ان لديك عددا كبيرا من الخبراء العسكريين هنا .. ولديك طائرات أمريكية ودبابات ومدافع .. ولكن هل تعلم أن «هوتشى منه» ورجاله الشيوعيين بنوا طريقا سريا من الحدود الصينية يخترق الغابة أى بطول بلاد فيتنام حتى سيجون ؟ بالطبع لا تعرف .. وهذه هى الطريقة التى حصل بها على الامدادات والمعونة الى «دين بين فو» .. وفى المرة القادمة عندما يتحرك .. فسوف يستخدم نفس الطريق للحصول على سيجون .

وساد الهرج والمرج داخل قاعة الاجتماع وهب الفرنسيون من جلستهم وأخذ الفيتناميون يجيئون ويروحون مذعورين وصرخ اثنان من الكولونيلات الفرنسيين بأعلى صوته .. هذا مستحيل .. بناء طريق عبر الغابة هذا مستحيل ..

ووقف أتكنز فهدأت الاصوات وساد السكون .. ولم يقل غير كلمة واحدة «مجانين» ثم غادر القاعة .

ولم يشك انسان أنه كان فى طريق عودته الى امريكا ..

وما كاد آتكنز يتوسط القاعة الخارجية حتى سمع وقع أقدام وراءه فاستمر فى سيره ثم وقف عندما أحس بيد تربت على كتفه وكانت لماك هوايت .. قال ماك هوايت : مستر آتكنز .. أريد أن أتحدث اليك بضع دقائق ..

أظن أن ما قلته معقول .. هيا نشرب كأسا ..

فقال آتكنز وهو يضحك : اذن لقد كنت أنت الوحيد فى القاعة الذى اهتم بموضوع أحدثه .

وبعد عشر دقائق كان الاثنان جالسين فى مقهى يشربان البيرة .. قال ماك هوايت : أحقيقى ما ذكرت عن الطريق الذى بناه «منه» من الصين الى سيجون ؟

فأجاب آتكنز ـ ان ما قلته صحيح لا غبار عليه .. بل لقد رأيت الطريق بنفسى .. انه ليس طريقا كبيرا ولقد شق بطريقة تجعل الاشجار تخفيه من الجو .. ولكنه واسع لدرجة أن الفين من الشيوعيين يستطيعون أن يحملوا خلاله المؤن والذخائر والامدادات . ان المواطن الذى عرفنى الطريق ذكر انه فى أثناء القتال الذى دار لفزو دين بين فو كان على هذا

الطريق صفان من الشيوعيين .. أحدهما مرتد الى الوراء للحصول على الامدادات والاخر متقدم الى الامام ومعه المئونة والذخيرة وهذا ما فاجأت به هؤلاء القواد الفرنسيين .

ـ ولماذا لم يذكر انسان ذلك للفرنسيين ؟

ـ انهم يكرهونهم يا سيد .. حتى أن الاشخاص غير الشيوعيين يمقتون الفرنسيين .

فسأله ماك هوايت : مستر آتكنز .. لو استطعت تعيينك فى سارخان فهل تفكر فى الحضور ؟ .. اننى اعلم انك صادفت متاعب ومضايقات وأعرف أن لديك أعمالا كثيرة فى الولايات المتحدة الامريكية وأعتقد أنك تستطيع القيام بأعمال جليلة فى سارخان وسأعطيك مطلق الحرية وتستطيع كذلك أن تعيش فى القرى أو الارياف لو أردت ذلك ..

فسأله آتكنز بتشكك : وأى نوع من المشكلات تصادف هناك ؟

فأجابه ماك هوايت : ان سارخان مختلفة عن فيتنام .. ولنضرب لذلك مثلا .. فهى بلد كثير المرتفعات ويلقى الاهالى هناك صعوبة كبرى فى نقل الماء الى مزارع الارز فى التلال .. ويستعملون هناك طريقة الشادوف القديمة لا يستخرجون من الماء الا بضع مئات من الجالونات فى اليوم الواحد .. أعتقد أنك تستطيع معالجة هذه المشكلة ..

فقال آتكنز ـ ربما .. ربما ..

واخرج آتكنز قلمه وبدأ يرسم تصميمات على مذكرة خاصة وتحت أصابعه القبيحة بدا رسم مضخة يظهر بوضوح .. وكان الرسم جميلا وأنيقا ولم يقل ماك هوايت شيئا .. لانه كان يعرف متى ينتظر .

ثم طلب بعض أكواب من البيرة ..

ومكث ماك هوايت فى جلسته مدة طويلة ..

ولم يقل آتكنز شيئا ولكنه كان يجرع أكواب البيرة فى هدوء .. وكانت أصوات الشارع توحى اليه بفكرة عظيمة وهو يصمم رسوما عجيبة لمشروعات كبيرة وأخيرا مال آتكنز بمقعده الى الوراء ثم رشف جرعة كبيرة من كوب البيرة وقال :

ـ لعل ذلك يكون مسليا .. فاذا نجحت الفكرة .. فهل تسمح لى باخراج «مجلة هندسية» لتوزع فى انحاء البلاد ؟ فاذا حصلت على تصميم ناجح فسوف أعمم استعمالها .. لقد ضقت ذرعا بهؤلاء الفرنسيين ففى كل مرة يأتون فيها بأى شىء الى هذه البلاد يقومون بعمل معاهدات

تجارية وحق الامتلاك الى غير ذلك وتكون النتيجة أن انسانا لا يستطيع شراء ما يجلبون ..

فقال ماك هوايت : ستكون لك مجلة تطبع فى سارخان .

فقال آتكنز : ليس بهذه السرعة .. فليس من السهل أن أبدى رأيى فى الحال .. ان هذه الامور تحتاج الى بعض الوقت .

ولكنه كان ينظر مرة اخرى الى رسمه .. يشطب بعض أجـــزاء ويضيف خطوطا جديدة ..

ولم ينظر الى السفير وهو يضع بطاقته فوق المنضدة وقد ذكر فيها أن أوامر آتكنز ستنفذ فى الحال بمجرد عمل الترتيبات .

الفصل الثامن عشر

الامريكى القبيح والسارخانى القبيح

وبعد اسبوعين كان آتكنز وزوجته يطيران الى سارخان .. وكانت «ايما» امرأة قوية فى وجهها كلف يحيط بأنفها ، وهى بدورها قبيحة كزوجها ولكنها كانت تحبه حبا خالصا ولم تستطع ان تذكر له سبب حبهـــا المفرط ..

لم تبهر «ايما» عندما ذكر لها اتكنز انهما سينقلان الى سارخان . بل كل ما ذكرته لهومر انها تحب أن تنتقل الى منزل صغير تستطيع أن تديره بنفسها من غير خدم .

وبعد مرور اسبوعين أيضا كان الزوجان يعيشان فى كوخ صـــغير فى احدى ضواحى « هايدهو » وكانا القوقازيين الوحيدين فى المنطقة . وكان منزلهما الصغير مجهزا بخزان ماء بارد . وفرن يوقد بالفحم الحجـرى ومجموعة من الحشرات غير المؤذية وولد سارخانى صغير أسود العينين يبلغ التاسعة من عمره .. وكان اسمه «أونج» اعتاد أن يستيقظ فى تمام الساعة السادسة كل صباح ويتبع ايما اينما ذهبت .

قضت ايما آتكنز وقتا جميلا فى سارخان .. تعلمت لغة البلاد وكانت تناقش جيرانها وتستعلم منهم عن أحسن الاماكن لشراء الدجاج والبط والخضروات الطازجة ، وتعلمت كيف تطهو أجود أنواع الارز بالزعفران وأحبت العمل فى منزلها الصغير المتواضع وكان من فخرها أنها أصبحت كجيرانها تجيد الاعمال المنزلية اجادة عظيمة ..

أما هومر آتكنز فقد قضى معظم وقته مع طلمبة المياه التى اخترعها بعد أن تبلورت الفكرة فى رأسه تدريجيا وكان كل ما يحتاج اليه طلمبـة ضخمة تستطيع رفع المياه من مكان لآخر ، فرفع المياه فى المناطق المرتفعة يستهلك طاقات كبيرة . وكانت الطريقة المتبعة هى نقل المياه بالدلو المركب فى عامود من الخشب ، وكانت هذه الطريقة البدائية بطيئة ومتعبة ،وكان السارخانيون يقومون بها خير قيام عدة أجيال ولم يروا داعيا لتغييرها .

ورأى آتكنز أنه من الخطأ أن يحدثهم عن مشروعاته أو اهميتهابالنسبة

لهم ما لم يخترع الآلة اللازمة لاثبات نظريته عمليا ، ومن ثم يستطيع أن يحدثهم عن مزايا اختراعه وفائدته العظمى .

واستطاع آتكنز أن يحل ثلثى المشكلة .. فظلمبة بسيطة تحتاج عادة الى ثلاثة أشياء .. أولا .. تحتاج الى انابيب رخيصة ووفيرة . فاستقر رأيه على استخدام البوص القوى المنتشر فى كل مكان .. ثانيا .. تحتاج الظلمبة الى بعض أجزاء ميكانيكية رخيصة واستغرق العثور على هذه الاجزاء وقتا طويلا وفى النهاية نجح آتكنز ، فخارج قرى سارخان كانت هناك أكوام من سيارات الجيب التى تخلصت منها السلطات العسكرية فأخذ آتكنز سلندرات هذه السيارات وأحل محل الحلقات لبادا رخيصا لعمل سلندرات لظلمبته .. ثم قطع موتور الجيب قطعتين واستخدم أحد السلندرات كخزانة ماصة والآخر كخزانة للطرد .. وبوصلة ميكانيكية بسيطة يستطيع السلندر أن يتحرك الى أعلى وأسفل .. ويمتص الماء الى ارتفاع ثلاثين قدما .

أما المشكلة الثالثة التى لم يستطع آتكنز أن يحلها حتى الآن : هى أى قوة يمكن تطبيقها على الوصلة .

وفى النهاية أعطته ايما الجواب على سؤاله ..

ـ لماذا لا ترسل فى طلب بعض الظلمبات اليدوية من الولايات المتحدة الامريكية مثل تلك الظلمبات التى يستعملونها فى السكك الحديدية ؟

فرد آتكنز ـ لقد شرحت لك من قبل .. يجب أن يكون شىء يمكن استخدامه هنا ، شىء يفهمه الاهالى .. وليس من الحكمة صرف الوف من الدولارات على أشياء نجلبها من الخارج لا تؤدى الى الغرض المطلوب .

فسألته ايما : لماذا يا هومر ؟ ان الاموال التى تدخرها فى البنك فى بيترسبرج .. لماذا لا تعطى بعضها لهؤلاء السارخانيين ؟

فنظر اليها آتكنز نظرة شزراء ثم قال :

ـ انت تعرفين لماذا .. فاذا أعطيت رجلا أى شىء بدون مقابل ، فان أول شخص يكرهه هو انت .. فاذا نجحت فكرة الظلمبة فستكون ظلمبتهم هم ..

وابتسمت ايما لهومر آتكنز وتركته واتجهت نحو النافذة فرأت مجموعة من السارخانيين يتجهون نحو سوق «هايدهو» على دراجاتهم فأخذت تراقبهم لحظات ثم استدارت وعيناها تلمعان وقالت :

«لماذا لا تستخدم الدراجات .. فمنها الملايين فى هذه البلاد .. فقد يمكنك ادارة الظلمبة بدراجة قديمة ..

فنظر آتكنز بدهشة الى «ايما» ثم هب واقفا بعد أن ضرب ركبته بيده ..

ـ يا لله .. أعتقد أنك عثرت عليها يا فتاة .. نستطيع أخذ عجلات دراجة قديمة ثم نصل جنزير الدراجة بترس صغير ، ثم ندير السلندر الى أعلى وأسفل بطريقة دائرة الاختلاف اللامركزى .

وبدأ آتكنز يسير فى الغرفة وعادت «ايما» الى فرن الفحم تطهو عليه بعض الدجاج وبعد لحظات سمعت حفيف الاوراق فعرفت أن آتكنز قد عاد الى مرسمه وبعد ساعتين كان لا يزال يرسم ويصمم بكل حماسة ، وبعد ساعة أخرى ذهب الى أحد الاركان وتناول نصف دستة من زجاجات البيرة ووضعها على المائدة . وقبل العشاء كان قد أتى على البيرة كلها وأخذ يصفر صفير المنتصر .. حتى اذا ربتت ايما على كتفه لتخبره ان العشاء قد أعد هب واقفا وهو موفور النشاط .

وقال آتكنز : انظرى يا فتاتى .. اعتقد أننى عثرت على الحل .

وبدأ يشرح لها بسرعة ثم يحسب على ورقة بجواره بعض عمليات حسابية دقيقة معقدة .. وعندما استطاعت زوجته أن تجعله يجلس على مقعده التهم الطعام بشكل مستهجن حتى أن حساء الدجاجة سال على ذقنه فمسحه بكم قميصه حتى لا ينال تصميماته الهندسية. وكانت ايما تراقب زوجها والبشر يطفح على محياها .. لقد كانت فخورة به. وكانت سعيدة اذ رأته سعيدا .. وفى هذا اليوم بالذات شعرت بسعادة طاغية ..

وقالت ايما : كفاك ما جرعته من البيرة يا هومر آتكنز .. فسوف تثمل .. ثم تنسى أن الفكرة كانت فكرتى ..

فصرخ بأعلى صوته ـ فكرتك أنت .. يا لك من مجنونة .. لقد كنت أفكر فى ذلك الامر منذ وقت طويل ، ولم يكن لك من فضل الا تذكرتى به .

ومرة ثانية ذهب آتكنز الى ثلاجته واخرج زجاجتين من البيرة وأخذ يحتسى واحدة وراء الاخرى وهو يغيظ زوجته ويمزح معها .

وبعد يومين كان آتكنز قد نفذ نموذجا محليا من غير أن يستورد مسمارا واحدا من الخارج .. وكان قد أجرى عملية حسابية بسيطة خرج منها أنه يستطيع صنع طلمبتين من الطلمبات من حديد « الخردة » الملقى خارج القرى . وكان عليه أن ينفذ طلمبتين ويديرهما ليرى كيف تسير الامور ، وفى هذه اللحظة ركزت « ايما » جهودها الديبلوماسية عندما واجهت زوجها بقولها :

« والآن .. استمع الى جيـــدا يا هومر .. لا تنطلق هـكذا كالرجل البدائى .. انك حصلت على آلة جيدة ولـكن لا تظن أنها مادامت جيـدة فان السارخانيين سيقومون باستعمالها فى الحال .. تذكر الوقت الذى قضيته لاقناع اتحادات الصناعات فى أمريكا لقبول الآلات التى اخترعتها للبناء .. فالناس هنا لا يختلفون عنا كثيرا ، وعليـــك اولا أن تجعلهم يستخدمون هذه الالة بالطريقة التى تناسبهم .. فاذا حاولت فرضها عليهم فلن يستعملوها مطلقا .. »

فأجابها آتكنز : حسنا يا مسز فوستر دالاس ! قولى ماذا أفعل ؟ ..
كان يعلم انها على حق وأنها صاحبة الفضل ما فى ذلك شك ، ثم قال:
« قولى لى كيف أستطيع الاتصال بالسارخانيين .. »
وشرحت « ايما » خطتها البسيطة الى آتكنز .. وفهم آتكنز أنهـــا كانت تفكر فى هذا الامر طويلا وكانت خطة جميلة وكم كان يود أن يستمع بعض الامريكيين ذوو القمصان المزركشة فى السفارة الى ما تقوله زوجته!

وفى الغد بدأ ينفذ الخطة الاستراتيجية لزوجتـــه ايما .. فانطلق بسيارته الجيب القديمة نحو قرية «شانج دونج» التى لم يزد عدد أفرادها على مائة شخص يعيشون فى خمسة عشر أو عشرين منزلا ، وكانت القرية تقع على منحدر وتبعد عن « هايدهو » بستين ميلا .. وكانت التربة هناك خصبة ولكن تنقصها المياه مما جعلها قرية فقيرة متواضعة .

وسأل آتكنز بأدب بالغ أول رجل قابله عن بيت الزعيم ، فأرشـــده الرجل وكان رئيس القرية أو زعيمها رجلا طاعنا فى السن بلغ الخامسة والسبعين من عمره وحادثه آتكنز باللغة السارخانية وقد بذل مجهودا كبيرا مع الرجل العجوز الذى سر بمحاولته الكلام بلغة بلاده .. وفهم العجوز كلام آتكنز وما يهدف اليـــه وشرح آتكنز للزعيم انه أمريكى مخترع .. ولديه فكرة طلمبة لرفع الماء .. وهو أى آتكنز ، يريد أن يعمم هذه الطلمبة ويبيعها ليكسب مالا من ورائها .. وكل ما يبحث عنه آتكنز هو العثور على أحد المواطنين السارخانيين له خبرة أو رغبة ميكانيكية . وذكر آتكنز أنه سيدفع أجرا ممتازا لهذا الرجل ، فاذا استطاع أن يعاونه فى اختراعه أصبح شريكه فيه .. فهز العجوز رأسه بأسى .. ثم تناقشا مدة طويلة عن أجر السارخانى ، وفهم آتكنز أن هذا أمر طبيعى تماما كما يحدث فى أمريكا عند ما يناقش موضوعا كهذا مع احدى النقابات العمالية .. وساوم الزعيم آتكنز ، وفى النهاية استطاع أن يحصل على ميكانيكى بأجر أعلى بقليل عن أجر أى ميكانيكى آخر .. واقتنع الزعيم كما اقتنـــع آتكنز وتصافحا وذهب الزعيم لاحضار الميكانيكى .. وأشـــعل آتكنز سيجارة بكل لذة وسعادة ..

وعاد الزعيم ومعه فتى قوى العضلات قدمه باسـم « جيبو » وقال الزعيم ان الاسم ليس من الاسماء الوطنية وانما سمى « جيبو » لشهرته الواسعة فى اصلاح السيارات الجيب، ولم يلتفت آتكنز الى ما قاله الزعيم، لانه كان يتطلع الى جيبو فى اعجاب ..

وكان جيبو هذا يبدو كفنان أو كرسام • فأظافره قذرة كأظافر آتكنز، كما أن يديه كانتا أيضا مغطاة بآثار الجروح والشقوق •• ونظر «جيبو» الى آتكنز نظرة ثاقبة فهم منها الاخير انه وجيبو سوف يكونان متفاهمين كل التفاهم •

وكان جيبو قبيح المنظر بطريقة أعجبت آتكنز ، فابتسم الرجلان ، وقال آتكنز : يقول الزعيم انك ميكانيكى ممتاز ، ويقول انك خبير فى سيارات الجيب •

ولكننى أحتاج الى رجل يكون خبيرا فى أشياء أخرى كذلك •• هل عملت فى شىء آخر بجانب سيارات الجيب ؟
وابتسم جيبو القبيح وقال :

ـ لقد عملت فى الآلات الرافعة والطلمبات والستروين والدبابات الامريكية والفرنسية والطواحين الهوائية والدراجات وبعض الطائرات ••

فسأله آتكنز : وهل فهمت كل شىء عن الاعمال التى قمت بها ؟
فرد جيبو : ومن ذا الذى يفهم كل شىء عن العمل الذى يقوم به ؟ اننى أشعر بأننى أستطيع العمل فى كل شىء ميكانيكى •• هذا رأيى ويمكنك تجربتى ••

فرد آتكنز : سنبدأ بعد الظهر •• فى سيارتى مجموعة من الآلات سنقوم معا بتفريغها ونبدأ العمل فى الحال ••

وبعد وقت قصير كان الاثنان قد ركبا معظم الآلات التى جلبها آتكنز على حافة حقل به أرز فى المستوى الثانى لقرية شانجدونج •• وعمد الاثنان الى ربط خمسة وعشرين قدما من أعواد البامبو القوية ووضعا أسفلها فى النهر الذى يجرى فى القرية ، وركب الجزء العلوى للماسورة فى الطلمبة البدائية التى اخترعها آتكنز ، وفى أعلى الطلمبة هيكل لدراجة نزع منها عجلتاها وقام جيبو بعملية التركيب بنفسه وحاول آتكنز أن يساعده ، ولكن جيبو كان أسرع منه • وفهم آتكنز انه يحاول أن يبرهن على براعته الفنية • وما أن حل المساء حتى كانت الطلمبة على أهبة الاستعداد للعمل •

وجلس آتكنز القرفصاء ينتظر انتهاء « جيبو » من العمل ، وكان يجلس بجواره أيضا زعيم القرية وبعض الرجال • وبالرغم من انهم كانوا جميعا هادئين كآتكنز الا انهم كانوا فى قرارة أنفسهم مشغوفين باستطلاع ما سيحدث وفهموا الغرض الرئيسى للمشروع ، ولكنهم كانوا غير متأكدين من نجاحه ••

وقال جيبو آخر الامر : سيدى ! ان الماكينة على استعداد للعمل •• ولست متأكدا اذا كان فى استطاعة هذه الآلة أن تمتص الماء من هذا الارتفاع ولكنى سأدير بدال العجلة عدة دقائق لتجربتها ••

وهز آتكنز رأسه موافقا •• فقفز جيبو على العجلة وأخذ يدير الطلمبة ببطء •• ولف جنزير العجلة لفات سريعة وبدأت المواسير تصدر صوتا

عاليا وهى تمتص الماء من النهر ، وظل هذا الصوت عدة ثوان ثم فجـــأة انطلق من نهاية الطلمبة ماء قذر بنى اللون · ولم يتوقف جيبو ولم يبتسم ·· ولكن الزعيم ورجاله لم يخفوا دهشتهم من حجم كمية الميـــاه التى اندفعت تروى حقل الارز واتجه الزعيم الى آتكنز قائلا : هذه آلة عجيبة ، ففى دقائق معدودات رفعت كمية كبيرة من الماء ، أكثر مما نرفعـــه نحن بوسائلنا العتيقة فى خمس ساعات ··

ولم يرد آتكنز على بهجة الرجل ، لانه كان ينتظر ما يبـــدو من رد الفعل على وجه جيبو فقد أحس بأن جيبو ليس مقتنعا أو سعيدا ··

واستمر جيبو فى ادارته للطلبة ثم نظر الى بعض أجزائها المفككة وأشار الى آتكنز أن يثبتها · وما أن امتلأ حقل الارز بالماء حتى توقفـه جيبو وقفز الى الارض ··

وقال جيبو بهدوء أ انها آلة لا بأس بها يا مستر آتكنز ولكن لن تصلح لهذه البلاد ·

ونظر آتكنز مباشرة الى جيبو لحظة طويلة ثم هز رأســه وسأله : لمـــاذا ؟ ··

ولم يجب جيبو فى الحال ، بل دار بهدوء حول الآلة يربط مسمارا هنا ويحكم ربط رافعة هناك ، ثم وقف وواجه آتكنز ··

ـ الآلة تعمل جيدا ولكى تديرها ادارة صحيحة يجب أن يحصـــل الانسان على دراجة ثانية · وفى هذه البلاد يا مستر آتكنز القليلون هم الذين يستطيعون الحصول على دراجتين ·· اللهم الا اذا عثرت على طريقة أخرى لادارة الطلمبة أو أن تزودنا حـــكومتك بآلاف الدراجات ·· فآلتك هذه مضيعة للوقت ··

وشعر آتكنز بالغضب لحظة . فقد انتقده الرجل نقداً صريحـــا مفتوحا .. ثم آتكنز لمدة دقيقة أخرى كم درجة يستطيع بملايينه الثلاثة شراءها ، ثم خطرت له استراتيجية ايما ، فترك الفكرة جانبا وتحول الى جيبو وقال :

ـ ماذا حدث للدراجات القديمة فى بلادكم ·· أليس فيها الكفاية لادارة هذه المضخات ؟

فقال جيبو : ليس فى هذه البـــلاد دراجات قديمة ، فنحن نركب الدراجات حتى تصبح غير صالحة اطلاقا ·· فاذا ألقى الرجل بدراجتـه القديمة فلن تصلح أبدا لادارة هذه الطلمبات ··

وواجه الامريكى القبيح زميله السارخانى القبيح لحظة ، وتذكر انه عندما كان شابا كان يستطيع أن يستدير ويذهب لحال سبيله ، ولكنه الان نظر الى جيبو وقال :

ـ حسنا يا جيبو ، تقول انك ميكانيكى خبير ·· فما الذى تفعله أو

تقترحه ؟ فاما أن أترك المشروع او نفكر فى طريقة لمد الطلمبة بالقـــوة اللازمة ؟..

ولم يجب جيبو فى الحال ، بل جلس فى حمل الارز وسلط نظراته على الآلة وبقى كذلك عشر دقائق ثم قام واتجه ببطء نحوها .. ثم أدار البدال ووضع أصبعه على العجلة كأنه يختبر قوتها ثم اســتدار وجلس القرفصاء ..

ونظر الزعيم مرة الى آتكنز ثم وجه حديثه الى رجاله وقد ضايقتــه تصرفات جيبو وقال ان قرية شـــانج دونج بأكملها سوف تفقد هـــذا الاختراع العجيب .

واحمرت أذنا جيبو لهذا النقد المرير ولكنه لم يرفع رأسه أو يلتفت لكلمات الزعيم ..

وكاد آتكنز يغرق فى الضحك .. فقد ذكره الزعيم ورجاله بهؤلاء الدبلوماسيين الذين ظل يناقشهم عدة شهور فى « فينوم بنــه » وكان متأكدا ان جيبو عنده الجواب على كل هذه الملاحظات .. وكان متــأكداً كذلك أن الرد لن يكون ديبلوماسيا أو شخصيا بل ردا فنيا ..

وجلس آتكنز القرفصاء أيضا بجوار جيبو ربع ساعة يدرسان الآلة دراسة منظمة رتيبة .. وكان آتكنز أول من قال :

ــ ربما نستطيع صنع اطار الدراجة من الخشب ثم نشترى بعض التروس ..

فقال جيبو : ولكن جزء الدراجة هذا باهظ الثمن ..

وظل الاثنان عشر دقائق أخرى لا يتحركان . وها هما يســـمعان ضجيج أصوات الزعيم ورجاله ، ورغم انهم كانوا يحاولون أن يحتفظوا بكرامتهم ، فقد لاحظ آتكنز أنهم كانوا يبحثون عن طريقة ليعتذروا بها لآتكنز عن عناد جيبو . ولم يخطر على بال آتكنز أن يتحدث اليهم لانه كان وزميله يفكران تفكيرا جديا حول طلمبة المياه ..

وقام آتكنز واتجه نحو الآلة وأدار البدال بسرعة ثم وضع أصبعه على الترس الخلفى ثم نظر الى جيبو .. فهز الاخير رأســـه ، فقد فهم السؤال الفنى الذى سأله آتكنز وأعطاه جيبو الجواب بحركة من رأسه .. وبدون ان يتبادلا كلمة واحدة أجريا عدة محاولات تزيد عن الثمانية لادارة الطلمبة ولكنها فشلت جميعا ..

وأخيرا كان الليل قد أرخى سدوله عندما توصلا الى الحل ، وكان صاحب الحل هو « جيبو » فقد هب واقفا من جلسته واتجه نحوالدراجة وامتطاها وأخذ يدير بدالها بسرعة جنونية ، واندفع الماء من الماسورة ، ثم نظر جيبو من وراء كتفه الى المستوى المنخفض للطلمبة وأخــذ يصيح وينادى بأعلى صوته على آتكنز وهرع الاخير اليه وظل خمس دقائق حتى استطاع أن يفهم ما اقترحه جيبو ..

وكان اقتراح جيبو سهلا ميسورا يتلخص فى بنـاء طاحونة يمكن ادارتها بالعجلة الخلفية لدراجة عادية توضع فى اطار خفيف من البامبو ·· ومعنى هذا ان عائلة لها دراجة واحدة تستطيع تركيبها فى اطـار البامبو ويدير أحد الافراد بدالها ·· وتستطيع بذلك العجلة الخلفيـة أن تدير الطاحونة التى تقوم بدورها بادارة الطلمبة بنفس القـوة التى سمعها آتكنز فى أول الامر ·· فاذا احتاج الفرد الى دراجته فما عليه الا أن ينزعها من مكانها ويقضى بها غرضه ··

وقال آتكنز للزعيم وهو يشير الى جيبو : ان هذا الرجـل اخترع اختراعا عظيما ·· فقد اكتشف طريقة يستخدم فيهـا الدراجة لادارة الطلمبة من ناحية واستخدامها فى المواصلات من ناحية أخرى ·· فبدون معونة جيبو ما كتب لهذا الاختراع النجاح ·· وكل ما أريد عمـله الان كتابة عقد يكون لجيبو بموجبه نصف الارباح التىسيدرها هذاالاختراع

ونظر الزعيم الى جيبو ثم الى رجاله ·· وبدأ يتحدث اليهم فى صوت هادىء · وفهم آتكنز ان الزعيم لم يسمع فى حياته عن اجـراء عقد بين رجل أبيض وسارخانى ·· وفهم أيضا ان الزعيم سيساوم ، وبعد مضى دقائق من الاستشارات نظر الى آتكنز وقال :

ـ هل تقترح أن تقوم وجيبو ببناء هذه الطلمبات ؟

فأجابه آتكنز : نعم وأنا أريد أن يشاركنى جيبـو فى المشروع ·· وسوف نفتتح محلا نصمم فيه ونبنى هذه الطلمبات وسنبيعها لمن يريد شراءها واذا لم يتيسر للعميل أن يدفع ثمنها دفعةواحدة فسنقبل سدادها على ثلاث سنوات ولكن لا تظن أننى سأدفع لجيبو أجرته من غير أن يقوم بأى عمل ·· فيجب أن يعمل كملاحظ فى المصنع الصغير ويجب كذلك أن يعمل بجد واجتهاد بنفس الدرجة التى أعمل أنا بها لا أكثر منها ··

فرد أحد الحاضرين بقوله : انه من غير المعقول أن يعمل الرجـل الابيض بنفس الدرجة التى يعمل بها جيبو لانه لم ير رجلا أبيض يعمل بيديه أبدا ومن يضمن لهم أن آتكنز سيعمل جنبا الى جنب مع جيبو ··

ووافق بعض الرجال على رأى الرجل العجوز وقالوا ان هذه خدعة من الرجل الابيض الذى يريد أن يستغل مواهب سارخانى فنـان ·· واعترض الرجال على دخول جيبو فى هذا المشروع ··

ولم يتحدث جيبو فى أثناء هذه المناقشة ·· بل كان يعبث بالطلمبة والدراجة ويثبت التروس ويفحص الصمامات ويشد من جنزير الدراجة ··وعندما انتهى الرجال من حديثهم اتجه جيبو نحوهموقال فى غضب :

« لقد استمعت اليكم أيها الرجال الاغبياء بدون أن أفوه بكلمةواحدة. فهذا الامريكى يختلف عن غيره من الرجال البيض ·· فهو يعمل بيديه ، لقد بنى هذه الآلة بأصابعه وبأفكاره ·· وأنتم أيها النـاس لا تفهمون هذه الاشياء ·· ولكن الرجال الذين يعملون بأيديهم يفهم بعضهم بعضا ·· ورغم ما تقولونه ، فاننى سأشترك مع هـذا الرجـل اذا أراد أن أعمل معه ·· »

وبدا على وجه الزعيم الخجل وهو يقول :

ـ أظن ان جيبو على حق فيما يقول ·· فيجب أن نثق فى هذا الرجل وسأقوم فورا بكتابة العقد الذى يكفل لجيبو نصـــيبه فى الارباح وأن يعملا بدرجه متساوية ··

وقال جيبو : ويجب أن يذكر فى العقد أننى أو الامريكى لن نسجل الاختراع بل سنترك المجال مفتوحا للآخرين ليهذبوه · أما فيما نصنعه فلنا حق الارباح فيه · وهذه هى الطريقة الصحيحة لمن يريد أن يعمل··

ونظر جيبو الى آتكنز الذى سرته الملاحظة فوافق عليها وقال :

ـ عندما نصنع بعض الطلمبات ونبيعها فسوف نطبع بعض النشرات نشرح فيها طرق استخدامها ·· وسنعممها فى طول البلاد وعرضها ، وسوف تكون قرية شانج دونج من أشهر البلاد فى العلوم الميكانيكية··

ولم ينتظر جيبو أو آتكنز حتى ينتهى الزعيم من كتابة العقد ، بل بدءا فى العمل مباشرة ·· وبعد يومين استأجرا مخزن أرز كبير على حافة قرية « شانج دونج » وفى يوم آخر أجرا اثنى عشر رجلا وســافر جيبو وآتكنز الى « هايدهو » واشتريا بعض العدد القديمة والاجهزة ، وعادابها الى المخزن ، وبعد أسبوع كان المصنع يعمل بنشاط ··

وعلق الشريكان لافتـــة على مدخـــل المصـــنع كتب عليها باللغة السارخانية :

« شركة جيبو وآتكنز المحدودة »

وكان العمل يقوم على قدم وساق داخـــل المصنع ، فجيبو وآتكنز يعملان من ثمانى عشرة الى عشرين ساعة كل يوم ·· وعلما السارخانيين الحدادة واختبار المواد وكثيرا ما كانا يلعنان ويفقدان أعصابهما كل يوم. وكانت مناقشاتهما الحادة تدخل السرور على نفوس العمال السارخانيين

واستغرق الامر عدة شهور حتى فهم آتكنز السبب ·· فقد كانت هذه الاوقات التى كان يتشاجر فيها الشريكان هى أول حـــدث يرونه بأعينهم ·· يرون سارخانيا يتناقش بحدة لاول مرة مع رجل أبيض !

ولم تمكث ايما آتكنز كثيرا فى ضاحية « هايدهو » بل انتقلت الى قرية « شانج دونج » خلال أسبوع وراحت تشترى الدجاج وكميـــات كبيرة من الخضر وتطهو مع بعض نساء بلدة « شانج دونج » الغذاء كل يوم وترسل قصعتين كبيرتين من الارز الى المصنع ليتناول الرجال طعامهم وكانت تجد لذة كبيرة فى هذه الحياة الهادئة الرصينة ·

وذات يوم جاء خبير أمريكى الى المصنع وأخذ يراقب ســير الامور فيه عدة ساعات ·· وفى اليوم التالى اتصل قنصـــل السفارة بآتكنز وأطلعه على أن عمل الرجل الابيض بيديه مهين ، ويقلل من سمعته عامة ·· وطلب الى آتكنز أن يترك هذا المشروع ولاسيما ان الفرنسيين ، وهم خبراء فى أمور الاستعمار ، لم يسمحوا للاهالى مطلقا بمعـالجة الآلات

أو الماكينات ، وكان رد آتكنز قصيرا حاسما مما دعا القنصل الى مغادرة المصنع حانقا غاضبا ·· وعاد آتكنز الى عمله فى المصنع وهو أوفر نشاطا

وفى نهاية الاسبوع السادس كان الشريكان قد صنعا عشرين طلمبة كاملة · وعند ما تم صنع أربع ماكينات بعد ذلك ، نادى آتكنز جميع الرجال ، وبدأ جيبو الحديث بقوله :

« لقد عملتم بجد واجتهاد فى بناء هذه الطلمبات ·· وعليكم الان أن تبيعوها ·· ويقول صديقنا آتكنز ان أهم ما يحدث فى أمريكا لمهندسين مثلكم أن يسمح لهم ببيع ما يصنعون ·· فعلى كل رجل منكم الآن أن يأخذ طلمبتين كعينتين ويذهب لبيعهما ويعود ومعه طلبات بناء طلمبات أخرى ، وسيتحصلون على ١٠ ٪ عمولة عن كل طلمبة تبيعونها ··

وقاطعه أحد الرجال لانه لم يفهم كلمة « عمولة » : ومرت خمس دقائق شرح فيها آتكنز وجيبو معنى الكلمة حتى فهمها الحاضرون وبدأت الابتسامات العريضة ترتسم على وجوه المهندسين الصغار ·· فلم يسمعوا عن مثل هذه العروض من قبل ·· وعندما انتهت المناقشة وقع كل رجل من الاثنى عشر عقدا بينه وبين شركة جيبو آتكنز المحدودة ··

وفى اليوم التالى كانت عربات تجرها الثيران تحمل كل عربة طلمبتين كاملتين وفى منتصف النهار كان البائعون قد انصرفوا بعرباتهم الى مختلف أنحاء المقاطعة ··

وانتظر جيبو وآتكنز والزعيم وبقية الرجال ، فمسألة البيع تعتمد على لباقة هؤلاء العمال الذين صنعوا الطلمبات بأنفسهم وانطلقوا يبيعونها فى مختلف أنحاء المقاطعة ·· فاذا لم تنهل الطلبات فسوف يغادر آتكنز البلاد ويذهب المشروع أدراج الرياح · وفى كل أسابيع العمل الشاق كان الفلاحون يأتون من كل صوب وحدب ليروا الامريكى القبيح وهو يعمل بجوار السارخانى القبيح أيضا ·· حتى ان بعضهم قدم مساعداته طوعا واختيارا تدفعه روح التعاون والاعجاب بهذا المشهد الفريد فى نوعه ··

ومضت أربعة أيام لم يعد بعدها البائعون ·· وران على القرية سحابة من الضيق والقلق ··

وفى صبيحة اليوم الخامس عاد أحد البائعين وكان يقود العربة بسرعة جنونية وكان الثور يجرى بسرعة مذهلة فتتطاير قطع الوحل فى الهواء وكان البائع يضربه بعنف وحماسة ·· وتسلق الثور المرتفع بنشاط كأنه يشارك سائقه فرحة الانتصار ·· وهرع الناس الى المصنع ليشاهدوا ما سوف يكون ·· وعندما توقفت العربة دار الهمس بين الحاضرين فقد كانت العربة فارغة ·· ونزل السائق بهدوء منها وهو يعلم أهميته ثم اتجه نحو الشريكين وقال : « سادتى : لى الشرف أن أخبركم بأننى اقترفت خطأ جسيما ، فقد قلتما لى أن أعود بالعينتين ولكنى لم أستطع وقد حصلت على طلبات بصناعة ثمانى ماكينات جديدة ، وأصر عميلان على أن

أسلمهما الطلمبتين فى الحال لان زراعتيهما كانتا فى مسيس الحاجة الى الماء وقد يفقدان المحصول ، فأعطيتهما الطلمبتين وأرجـــو ألا أكون قد اقترفت اثما ..

وتأوهت الجموع ونظرت الى جيبو وآتكنز ، ونظر الرجلان القبيحان الى بعضهما لحظة ثم اطلقا أصـــواتا تدل على الفرح والسرور وعانق جيبو آتكنز وعانق آتكنز جيبو ، ثم عانق جيبو مسز آتكنز أيضا .. ثم عانق كل انسان فى القرية زميله وبدأت الاحتفالات تعم القرية عـــدة ساعات ..

وفى صباح اليوم التالى استيقظت القرية مبكرة وتجمهر الناس عند المصنع وهم ينصتون الى أصوات المطارق وأخذوا ينظرون الى داخـــل المصنع ثم ابتسموا .

وكان جيبو وآتكنز فى وسط معركة حامية من الكلام حـــول بعض التعديلات التى يجب ادخالها على الطلمبات ..

وكانت ايما آتكنز تضع أمام الرجلين طعام الافطار ، فلم يعرهاأيهما ادنى التفاتة بل ظلا يتناقشان بحدة حول التعديل المنتظر ..

***

الفصل التاسع عشر

الظهور المحنية فى شانج دونج

كانت ايما آتكنز امرأة بسيطة ، مستقيمة الخطة ، صريحة .. فاذا ارادت أن تسأل عن شيء ، سألت سؤالا مباشرا لا مجاملة فيه ولا التواء ورغم أنها ظلت فى « شانج دونج » أكثر من أسبوعين فقد سألت سؤالا لم تحظ بالرد عليه ..

كانت ايما منهمكة فى مطبخها مع اثنتين من جيرانها يحاولن صنع مربى من فاكهة «الجوافة» التى كانت تنبت فى الغابة بكثرة . فنيران الموقد ورائحة « الجوآفة » أضفت على المنزل الصغير جمالا وروعة . وشعرت ايما بالارتياح والطمأنينة فقد فرغت من حديثها مع جارتيها بعد ان وصفت لهما مميزات المطبخ الامريكى ثم نظرت من نافذة المطبخ قرأت سيدة عجوزا من شانج دونج وهى تدب على الارض ، فقفز سؤال الى مخيلتها فاستدارت الى المرأتين وتحدثت اليهما ببطء لان اللغة السرخانية كانت جديدة عليها .

ـ لماذا أرى الشيوخ فى شانج دونج وقد انحنت ظهورهم وتقوست فما من شخص أو امرأة عجوز الا وقد قوست السنون ظهريهما ؟ .

وهزت المرأتان كتفيهما .. ثم قالت احداهما !

ـ انه الكبر يفعل ذلك بالشيوخ ، وهذا أمر طبيعى يحدث للطاعنين السن .

ولكن ايما لم تقتنع بهذا الرد ولم تعالج الموضوع مرة أخرى ... وبدلا من ذلك بدأت تفتح عينيها فما كاد موسم الامطار ينتهى حتى لاحظت أن كل انسان فى القرية تجاوز الستين من عمره كان يسير فى الطرقات بانحناءة شديدة فاذا أسرع فى سيره آلمه ظهره ألما مبرحا . أما الشيوخ فقد رضوا بآلام ظهورهم كما أراد لهم القدر وحينما سألتهم ايما لماذا يسيرون هكذا محنى الظهور كانوا يبتسمون لها فقط .

وبعد أن انتهى موسم الامطار بدأ الشيوخ من الخمسين يكنسون بيوتهم ، وكانت هذه البيوت تطل مباشرة على الطريق العام .. وكانوا

يستعملون مكانس مصنوعة من أغصان أشجار الفرون وكانت أيدى هذه المكانس قصيرة ، لذلك كان يتحتم عليهم أن يحنوا ظهورهم .

وذات يوم ، وايما تراقب امرأة عجوزا تنظف مسكنها وتكنسه وقعت أشياء منها فاسرعت الى المرأة العجوز لتحدثها ..

وقالت أيما : يا جدتى .. أعرف أن ظهرك مقوس ، ذلك لانك تكنسين مسكنك كل يوم بهذه المكنسة القصيرة .. فالكنس كل يوم عدة ساعات بهذه الطريقة يحنى الظهور ويقوسها .. فاذا تقدم الانسان فى السن فقدت عضلاته وعظامه مرونتها .

فأجابت المرأة العجوز : يا زوجة المهندس أظن أنك مخطئة ... فجميع شيوخ جنوب سارخان ظهورهم مقوسة ..

فأجابت ايما : وأراهنك ان ظهورهم تقوست من كثرة الكنس عدة ساعات كل يوم وبمكانس قصيرة .. فلماذا لا تضعين يدا طويلة فى المكنسة وتجربين ؟

ونظرت المرأة العجوز ، والحيرة بادية عليها ... فتذكرت ايما أنها حدثتها باللغة الانجليزية ، فأعادت ما قالته باللغة السارخانية ..

فردت عليها العجوز – ولكن المكانس صنعت بأياد قصيرة لا طويلة .. ولم أر فى حياتى مكنسة من هذا النوع الذى تتحدثين عنه وحتى لو توفر الخشب لما ضيعناه فى صناعة أياد طويلة للمكانس .. فالخشب نادر جدا فى «شانج دونج»

وكانت ايما تعلم متى تنهى المجادلة أو المناقشة وكانت تعرف جيد المعرفة أن الناس لايبطلون استعمال عاداتهم التقليدية لانهم متعصبون لها ، وكانت تعرف أيضا أن أى نقد يوجه الى قوم لاعتيادهم على عمل شىء معين ، يجعلهم يركبون رءوسهم ويعاندون ويستمرئون استعماله. وفى هذه الليلة قررت ايما أن تتحدث مع هومر ..

– هومر .. هل لاحظت الظهور المحنية لشيوخ هذه القرية ؟

فأجاب هومر وهو يغسل قصعة من الارز بزجاجة البيرة – لا لماذا ؟

فأجاب ايما – اننى بلغت سنا تؤلمنى فيه عظامى .. فتصور الالم الذى يعانيه هؤلاء الناس وهم يسيرون مقوسى الظهور ، انه اسوأ من اللومباجو ، لقد سألتهم فأجابوا بأن الالم مبرح مرهق ..

فقال هومر – حسنا .. حسنا .. ما الذى سوف تفعلينه ؟

فأجابت ايما بحرارة ـ ان أول شيء نفعله أن نشترى بعض المكانس الطويلة ..

ومع ذلك فقد وجدت ايما أن الحصول على أيد طويلة من أصعب الامور ، فالخشب من أى نوع كان نادرا فى هذه المنطقـــة وباهظ الثمن.. فالمكانس التى يستعملونها هى التى كان أجدادهم يستعملونها من قبل ولم تحدث أى محاولة لتطوير هذه المكانس ، وكان التقليد العام أن تكون هذه المكانس قصيرة ليستعملها الشيوخ أو الشمطاوات فى البيوت أو حقول الارز .. ولكن ايما لم تكن مرتبطة بأى تقليـــد، لذلك بدأت تبحث عن شيء آخر يحل محل الايادى القصـــيرة لمكانس ســـارخان ..

كان من السهل أن تستورد «ايما» بعض القطع الخشبية ولكن هومر سبق أن أثبت لها أن الناس لن يغيروا شيئا من عاداتهم الا اذا أقدموا هم على هذا التغيير بوحى من ضميرهم وتفكيرهم .. وحاولت ايما أن تخترع طريقة جديدة لتطيل بها أيادى المكانس ولكنها فشلت فى كل محاولة من محاولاتها العديدة .. ولم تيأس ايما ورفضت أن تغلب على أمرها .. وأخذت تفكر فى الموضوع وتوسع دائرة بحثها حتى جاء يوم عثرت فيه على ضالتها المنشودة .. فقد كانت تقود سيارتهـــا فى طريق جبلى منحدر يبعد عن شانج دونج بأربعين ميلا ، وفجـــأة أسرعت وضغطت على فرامل السيارة بكل قوتها ، عندما رأت على جانب الطريق مجموعة من البوص تمتد حوالى عشرين قدما تشبه الى حد كبير البوص القصير الذى ينبت فى «شانج دونج» غير أن هـــذا البوص له أعواد قوية طويلة ترتفع الى خمسة أقدام فى الهواء ..

وأمرت ايما زوجها «هومر» أن ينزل من السيارة وينتزع نصف دستة من هذه القصبات القوية الرفيعة بجذورها ..

وعندما عادت ايما الى شانج دونج زرعت الاعواد بجوار منزلهـــا وعنيت بها عناية كبيرة . وفى يوم من الايام عندما اجتمع فى منزلها جمع كبير من الجيران ، انتزعت أحد هذه الاعواد ولفت حولها من الاســـفل مجموعة من نبات الفرون وأخذت تكنس الدار أمامهن .. ولاحظت النسوة شيئا غير عادى ومكثن عدة دقائق لا يعرفن كنه هذا الشيء ، ثم تحدثت واحدة منهن قائلة اخر الامر :

ـ أنها تكنس وظهرها مستقيم .. اننى لم أر فى حياتى شيئا كهذا

ولم تقل ايما كلة واحدة بل أستمرت تكنس ارجاء الدار حتى انتهت الى الطريق العام .. وطارت سحب الغبار وملأت المكان وكانت

كل واحدة تنظر باستغراب الى ما حدث والمجهود القليل الذى احتاج اليه الكنس وهى واقفة لا تحنى ظهرها أبدا ..

ولما انتهت ايما من كنسها عادت الى منزلها وبدأت تعد الشـــاى لضيوفها .. ولم تحدثهم عن المكنسة مطلقا ولكن عندما غادرت النسوة منزلها أخذن ينظرن باعجاب الى « المقشة » الجديدة ويختبرنها اختبارا دقيقا ..

وفى اليوم التالى بدأت ايما تكنس الدهليز مرة أخرى وكان على البعد ثلاث نسوة ينظرن اليها باعجاب ، فما ان فرغت ايما من مهمتها حتى اسندت مكنستها الى جانب الاعواد الطويلة التى زرعتها بجوار المنزل .. وكانت المقارنة واضحـــة ..

وفى اليوم الثالث ازداد عدد الناس الذين جاءوا من كل مـــكان لمشاهدة ايما وهى تكنس الدهليز . ولكن فى هذه المرة ، عندما انتهت من كنسها ، تقدم نحوها رجل طاعن فى السن وقال :

ـ « يا زوجة المهندس ، أحب أن أحصل على مكنسة مثل هـــذه بيد طويلة » ولست متأكداً اذا كانت المكانس القصيرة قد قوســـت ظهورنا أم لا ، ولكنى متأكد ان الطريقة التى تكنسين بها صحيحـــة مريحـــة .. »

فأشارت اليه ايما أن ينتزع قصبة من الاعواد التى تنمو بجـوار منزلها .. وتردد الرجل وقال :

ـ سأنتزع واحدة وأشكر لك ذلك ولكن ان أخذت واحدة فسيطلب الواقفون أيضا مثلما طلبت حتى ينتهى البوص كله ..

فقالت ايما : لا عليك ياسيدى .. فهناك فى التلال كثير من هـذه الاعواد القوية .. لقد عثرت على هذه على حافة غدير فى «نانجسا ». ويستطيع قومك أن يذهبوا الى هناك ويحصلوا على أحمال كبـــيرة منها على ظهور الجاموس ..

ولم ينتزع الرجل العجوز قصبة من قصبات ايما ، بل أسرع الى بقية زملائه وتحدث اليهم فى عجل ، وبعد عدة ساعات رأتهم ايما وهم يتجهـــون نحـــو التـــلال وامامهم بعض الجـــاموس ..

وبعد ذلك بقليل أتم هومر عمله فى «شانج دونج» ثم انتقل الى بلدة «روتوك» التى تبعد سبعين ميلا نحو الشرق .. وبعد ذلك بأربع سنوات عادت ايما الى بيتسبرج ، وفى يوم من الايام وصلها كتـــاب فى ظرف مصنوع من أغصان البامبو أصفر اللون ، وكان الكتاب من زعيم قرية «شـــانج دونج» :

« زوجة المهنـــدس

« أكتب اليك لاشكر لك مافعلته بشيوخ شانج دونج ونسائها .. فلعدة أجيال سحيقة وقومنا الطاعنون فى السن يسيرون وظهـــورهم مقوسة ، وكذلك فى كل قرية عرفناها كانت هذه الظاهرة فاشية ، وكنا نظن ان هذا مصدره التقدم فى السن لذلك كنا نخاف الكبر ونعمل له كل حساب .. ولكنك يا زوجة المهندس استطعت أن تغيرى كل هذا .. فبمكنستك ذات اليد الطويلة ، أو بالمصادفة السعيدة تعلمنـــا طريقة جديدة لكنس الدور والدهاليز .. انه اكتشاف يسير ولـكنه غير حياة رجالنا الطاعنين فى السن .. فمنذ أربع سنوات ، بعد أن غادرت بلادنا ، ونحن نستعمل أعواد البوص كأياد لمكانسنا .. ويسعدك أن تعلمى أنه لم يبق فى شانج دونج غير ظهور قليلة مقوسة .. أما أغلبية السكان فظهورهم أصبحت مستقيمة قوية . وذهبت عنهم الاوجـاع ولا سيما فى أثناء موسم الامطار .

ان هذا شىء بسيط ولكنه فى نظر قومنا عمل جليل ..

أعرف انك لا تدينين بديننا يا زوجة المهندس ولكن قد يسـعدك أن تعلمى انه فى ضواحى قريتنا بنينا مكانا مقدسا صغيرا واطلقنـاعليه اسمك للذكرى .. انه عمل بسيط ، وعلى عتبة المذبح كتبنا الكلمات الآتيـــة :

« تذكار المراة التى قومت ظهور مواطنيـــا »

وأمام المكان المقدس حزمة كبيرة من الاعواد القصيرة التى كنـــا نستعملهـــا ..

مرة أخرى شكرا لك يا زوجة المهندس ، وسنظل دائما نذكرك .»

وسألت ايما زوجها هومر .. ما الذى يعنيه بكلمة مصـــــادفة سعيدة .. لقد بحثت هذه المشكلة لمدة ثلاثة أشهر حتى عثرت على القصبات الطويلة فلم تكن هذه مصادفة .. ولم ينظر اليها هومر وهو يقرأ الكتاب .. لانه لو نظر اليها فى هذه اللحظة لرأى الدموع تنهمرمن عينيهـــا .. فبقى على حاله مدة كافية وعندما رفع رأسه كانت ايما تدفع منديلها فى جيب فوطتهـــا ..

الفصل العشرون

سيدى عضو مجلس الشيوخ !

بدأ «جوناثان براون» عضو الشيوخ حياته السياسية بأمرين ملفتين للنظر : بوجه شامخ ذكر الناس بالزعيم لينكولن ، وبلوغه ذروة الفساد .. ولما تقدمت به السن لم يتغير وجهه كثيرا ـ ما عدا شعر رأسه الذى وخطه الشيب ، وانحناء قامته قليلا .. ولكنه تمكن بطريقة ما أن يتخلص نهائيا من فساده ..

على أن زوجته لم تعرف شيئا عن ظل ماضيه .. ففى عام ١٩٢٤ عندما كان براون يسعى لان يكون شيخا فى الكونجرس كان يعتقد أن كل انسان ذهب الى واشنطن اما أن يكون مجرما أو معتوها .. فعند هذه النقطة من حياته ظهر من احدى القرى المتأخرة فى ولايته وأصبح رئيسا لها ، ثم عضو مجلس الشيوخ عنها وكان يجب أن يشنق لالتوائه وفساده لا لغبائه .. أما الجهاز الذى مهد له الحصول على هذه الوظيفة الكبرى ، فكان من البلاهة بحيث يصدقه الانسان .. فقد دخل ببساطة الى مكتب رئيس أكبر الشركات الكهربائية فى الولاية وقال له أنه ، أى براون ، لو نجح فى انتخابات الولاية وأصبح عضواً فى الكونجرس فسيعمل على أن يسلم الشركة الكبيرة مشروع «سد الك هارت» برمته .. وفى مقابل ذلك طلب قضاء خدمتين ، أن تثنى الشركة عزم أى انسان اخر يقدم على منافسته ، وأن تودع مبلغ ١٥٠.٠٠٠ دولار فى حساب مدير معركته الانتخابية .. فرئيس المؤسسة وهو رجل خبير مجرب ، له خبرة خاصة نظر الى براون نظرة فاحصة وقرر أن دعيا مثل الواقف أمامه سوف يشق طريقه فى الحياة السياسية ، وفى الحال وافق على الشرطين ..

ولم يكن السناتور براون متأكدا متى انتهت حياته الفاسدة ، وبدأت حياته كرجل مسئول فى الدولة .. ربما كان ذلك فى الجولة الثانية .. وعلى كل حال أحس براون فجأة أنه فخور بالطريقة التى يعالج بها مجلس الشيوخ القضايا والامور وكان قد تعلم كيف يفرق بين الخطب النارية والخطب الانتهازية ، وبدأ يعشق جمال الروتين

البرلمانى .. كما عرف ذات يوم أن ١٦ شيخا فى مجلس الشيوخ كانوا يعدون من أقوى السياسيين فى العالم كله . وما أن وصل الى هذه الحقائق حتى ترك براون أعماله الفاسدة وبدأ ضميره يستيقظ .. واخيرا جاء اليوم الذى وقف فيه على منبر مجلس الشيوخ وقدم مشروع سد « الك هارت » الذى لم يرس على الشركة الكهربائية .. وكان يعلم تمام العلم خطورة الخطوة التى أقدم عليها . وكان الشىء الذى أراحه فيما بعد أن رئيس هذه الشركة زاره بعد ذلك بأربعة شهور وصافحه مصافحة حارة ولم يذكر شيئا عن هدية المعركة الانتخابية التى فاز فيها براون فوزا ساحقا ..

وفى عام ١٩٤٢ أصبح السناتور «براون» عضوا فى لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ، ورغم أنه فى صباه لم يكن يعرف اذا كانت كمبوديا فى أفريقيا أو اسيا ، فقد وقف الان على كل صغيرة وكبيرة عن الشئون الخارجية .. وخلال ثلاث سنوات أصبح من أمهر أعضاء اللجنة وأوسعهم علما واطلاعا وأهلته خدمته الطويلة لكى يكون رئيسا للجنة ذاتها ، وما ان حصل على هذا المركز الخطير ، حتى وضع الخطة لزيارة اسيا وبلاد الشرق الاقصى ، وقرر أن يأخذ معه مسز براون زوجته ، وشيخا اخر ومساعدين اداريين وسكرتيرتين ..

وكان برنامج الرحلة طويلا ، دقيقا . وصعقت مسز براون عندما اطلعت على هذا البرنامج الحافل وذكرت السيناتور بحالة قلبه ومرض مفاصل ساقيه .. ورغم وهن حالته الصحية هذه ، فان السيناتور بذل جهدا كبيرا فى اخفاء مرضه ولم يؤثر ذلك على عمله اطلاقا .. وشمل البرنامج زيارات مانيلا وطوكيو وفرموزا وتايلاند وفيتنام وكمبوديا ولاوس وكوريا .. وبعدها يعودان الى واشنطن عن طريق أوروبا بعد أن يعرجوا على القاهرة وروما ومدريد ولندن لمدد قصيرة .

وقال السيناتور لموظفيه وحاشيته : والان أيها السادة لا أريد أحد منكم يحتسى الويسكى فى هذه المرحلة بالذات .. فأنا أعرف رجال سفاراتنا وكيف يحاولون أن يطلعونا على الجانب البراق للاشياء لكى يحتفظوا بوظائفهم ، ولكننا سنبحث كل شىء . فأنا أريد أن أتحدث الى الاهالى والكتبة والموظفين والخبراء والفنيين فى الحقول ولا أريد أن اقضى وقتا طويلا مع كبار المسئولين ، فهل يفهم كل منكم ذلك ؟ .. سنأخذ بعض زجاجات الشراب معنا .. جون ، عليك أن تتأكد من وجود صندوق من الويسكى على الطائرة . وتأكد كذلك أن أحدا لن يشرب منه سواى .. »

وبدأت البرقيات ترسل الى جميع السفارات فى البلاد التى يعتزم زيارتها وصور منها الى السلاح الجوى ليرسل طائرة خاصة لتنقلاته.

وعقدت اجتماعات لا حصر لها لتمهيد الطريق وفرشه بالرمال لزيارة السيناتور .. وكان الاخير يعلم أن رحلة كهذه تحتاج الى العمـــــل المتواصل ولكنه كان قد قرر أن يحصل على المعلومات من مصـــدرها الاصيل مهما كلفه ذلك من جهد .. فقد أرسلت امريكا بلايين الدولارات الى الشرق الاقصى وكان يريد أن يقف بنفسه على النتيجة الفعلية لهذه الاموال الطـــــائلة

وكان من بين الذين استلموا برقيات عن زيارة السيناتور براون السفير الامريكى فى فيتنام ، صاحب السعادة « آرثر الكســـندر جراى» وكان يتوقع وصول البرقية لانه استلم خطابا مفصلاعن رحلة السيناتور من أحد زملائه فى الدراسة الذى يباشر أعمال القســـم اليابانى فى وزارة الخارجية الامريكية فكتب له يقول :

« سيصل السيناتور براون سيجون فى الشهر القـادم .. وقد سمعت هذا الخبر كاشاعة ثم تحققت منه بعد عدة مكالمات تليفونية. وخلال أسابيع قليلة ستصل اليك برقية . فلا يجب ان تقلل من قدر براون . انه كرجل عجوز وكان اعتزاليا ــ القائل بالاعتزال فى السياسة ــ ولكن عندما ألم بالشئون الخارجية أجادها اجادة عظيمـــة حتى اننى لم أر من يجاريه فى هذا المضمار . وبجانب حبه لاحتساء الويسكى فهو رجل خشن الطباع لكنه أمين .. هو الان يعتقد اننا نواجـــه مشكلات خطيرة مع روسيا .. وسوف تكشف السنوات القليـــلة القادمة أن كنا من الفائزين أم الخاسرين .. وهذا هو الذى يقـــوله باستمرار فى اجتماعات اللجان وفى ردهات مجلس الشيوخ وكذلك فى حفلات الكوكتيل وهو يعنى ما يقول .. وقد يذهب هذا الرجل الى أبعد الحدود للحصول على المعلومات التى سوف يركز عليها اقتراحاته وتوصياته للجنة التى يرأسها ..

والان كل هذا حسن وجميل يا عزيزى جراى .. ولكن هنـــاك شيئا واحدا يجب أن تراقبه جيدا فأنا أعرف انه ليس لديك ماتخفيه، ولكن يجب أن تكون حريصا جدا عندما تراه يتكلم مع انسان اخر ،فهو ذلك الرجـــل الذى لا يجـد غضاضة فى التحدث مع الاشـــخاص العاديين وهو لا يحاول أن يدخل السرور عليهم أو يستملحهم لانه يبدو كواحد منهم أيضا وبالطبع سيكشفون له عن قرارة نفوسهم . ففى الاسبوع الماضى رأيته يتحدث الى منـــدوبين مدنيين من غانا .. وهم يعرفون أنه شيخ من الجنوب،لذلك كانوا فى شك من آرائه نحو الملونين .. يا للسماء يا جراى .. لقد كانت الحادثة رائعة .. وكان المشهـــد

فريدا ، وهو وسط هؤلاء المندوبين كابراهام لينكولن او كفرد كبـــير لكنه أدار دفة الحديث بلباقة وبرأعة فقد بهرهم بمعلوماته العظيمة عن غانا ، بل لقد كان يعرف عن غانا اكثر مما يعرفه هؤلاء المنـدبون عنها .. وفى نهاية الحفلة نزل المندوبون وبراون وركبوا سيارة أجرةكبيرة ، وقالت الاشاعات أنه قضى الليلة معهم يشربون البربون المر ، وقالت الاشاعات أيضا أن براون سيخفض المعونة لغانا بنسبة ٣٠٪ علىأساس ان الجزء الاكبر من هذه المعونة يذهب فى الشئون الادارية والمـــدن الـــكبيرة ..

ولست فى حاجة الى أن أزيد فى القول .. فهذا الرجل أمين وقاس ورغم أنه ليس لديك ما تخفيه فأنا جد متأكد ان هنـــاك طرقا كثيرة لذكر الحقائق .. لذلك كتبت اليك مقدما لانبئك أن تهيىء قصـــتك وتحفظها جيدا قبل أن تلقيها على مسامعه ..

***

لم يتأثر السفير جراى كثيرا لانه سبق له ان عالج سياسيين أكثر قساوة من براون فلم يكب على وجهه بعد ولن يحدث له ذلك .. وفكر لحظة ثم ضغط زرا على مكتبه وتكلم فى الصندوق الاسود الذى أمامه :

« استدع الموظفين كلهم لاجتماع عاجل فى بحر عشرين دقيقة فى قاعة الاجتمـــــاعات .. »

وبعد نصف ساعة كان السفير وكامل هيئته يدرسون الخطط لاستقبال السيناتور براون وابتدات سالى فينسنت الحديث قائلة : ســـيدى السفير .. أعتقد أنه يجب أن أعد بحثا عن تاريخ فيتنام الســـياسى ليقدم لعضو الشيوخ .. ولست أعنى التاريخ العادى ، فقد يكون قد اطلع على تقارير عامة أعددناها لزوار سابقين ، وكل ما أعنيه هوكتابة بحث شامل نذكر فيه المشاكل الرئيسية التى تواجهها هذه البـــلاد ووحشية الشيوعيين كذلك . وأستطيع أن أزود البحث ببعض صور عن مزارع فيتنام وأذكر أوقات هطول الامطار الى غير ذلك ..

فقال السفير من غير أن يبتسم أ وتذكرين شيئا عن الاسمدة :

فأجابت سالى بحماسة : .. بالطبع سأخصص قسما بأكمله عن الاسمدة .. فلدى بعض الصور التى تشرح للاهالى طرق استخـدام الاسمدة لتخصيب التربة .. ثم نشرت أمام السفير بعض صور ليوافق عليهـــا ..

ثم شرح خبير زراعى رحلة خاصة يقوم بها السيناتور ، وكانت الرحلة

قد وضعت بطريقة فنية رائعة يستطيع فيها السيناتور أن يمر على كل محطة زراعية أقامتها البعثة الزراعية ، وبذلك يرى السيناتور أن المعونة لم تذهب هباء .. وبذلك لن يرى البلاد الحقيقية أو أى فرد من أفرادها الواقعيين ».

وهب ضابط الاستعلامات وأرى السفير ومن معه أجهزة اذاعية خاصة تحكى قصة المعونة بأكملها .. وكانت اذاعة احدى هذه الاجهزة تستغرق ساعة ونصف ساعة .. ثم فيلما خاصا .. فقال السفير : دعنى أرى هذا الفيلم أولا يا «ديك» قبل أن تستبعد منه الصور غير المرغوب فيها . فقد رأيت فيلما كاملا عن القتال حول «هانوى» وكان الفيلم غير عادل ، فمن بين مناظره دبابة فرنسية نسفها مواطن بقنبلة يدوية مما يثبت أن الدبابات هنا لا منفعة منها .. وكما تعرف فان اخواننا الفرنسيين يظنون أنهم من الزم الضروريات فى هذه الحرب التى نخوضها هنا ..

فأجاب ديك : « نعم ياسيدى سأفعل .. وأعتقد أن الصور التى ستوافق عليها ستفى بالغرض المطلوب » ..

واستمر الاجتماع قرابة ثلاث ساعات تناقشوا خلالها عن الحياة الاجتماعية التى يجب أن يحياها السيناتور براون وأى نوع من الطعام يجب أن يقدم له .. والاشهاء التى تعجب مسز براون وتروق لمزاجها .. ومن من الزعماء الوطنيين يجب أن يقابلهم السيناتور ، وتحت أية ظروف يجب أن تتم هذه المقابلات . ولخص السفير كل شىء يقوله :

«أعتقد اننا تحدثنا فى كل التفاصيل وأحكمناها .. ولكن يجب أن نتفاهم عن الجو العام ومزاج الرحلة ، فالسيناتور يعتقد أننا نواجه أزمة تجتاح العالم ، وأعتقد أنكم توافقون على ما يعتقد ، وعلينا أن نظهر شعورنا واخلاصنا .. فأريد أن يبكر كل واحد منكم فى الحضور الى السفارة ولا يغادرها قبل الثامنة مساء ، فاذا كانت لديكم أعمال متأخرة فهذه انسب فرصة لانجازها . واتركوا الانوار فى السفارة طوال الامسيات . ولا أريد أن أرى أى موظف فى السفارة يرتاد المقاهى الفرنسية أثناء زيارة السيناتور .. أو يقود سيارته فى شوارع سيجون أثناء زيارة السناتور ، وعليكم بالسيارات الاجرة أو الدراجات .. والحق أن فكرة الدراجات عظيمة جدا فعليكم بتأجير نصف دستة منها فى أثناء الاسبوع الذى سيكون فيه السيناتور . وعليكم بأحد النجارين لصنع مكان تتركون فيه دراجاتكم خارج باب السفارة .. »

وعندما انتهى الاجتماع استبقى السفير رجلين «الماجور كرافاث» الملحق العسكرى فى السفارة ودكتور «هانزيار» وهو امريكى محايد ولد فى المانيا وتخصص فى دراسة اللغات الشرقية . وكان الدكتور بار فى

مهمة مؤقتة فى السفارة وكان الشخص الوحيد الذى يتكلم اللغة الفيتنامية ..

وقال السفير : والآن ياسادة لقد استبقيتكم لان هناك شيئين يزعجاننى ، فى رحلة السيناتور : أولا انه سيوجه عدة أسئلة عن الحال العسكرية .. وكما تعلم يا كرافاث ، فان هذه مشكلة عسيرة وان سوء التفاهم قد ساد عقول الذين لا يعرفون شيئا عن الحال . فرجال الصحافة الامريكيون أظهروا العداء السافر ضد الخطط الفرنسية الحربية هنا .. فأنا وأنت نعرف جيداً أن الفرنسيين واجهوا حالة فريدة فى نوعها بشجاعة نادرة ، ولكن السيناتور قد يكون قاسيا منتقدا ، لذلك أريدك أن تتحدث الى الجنرال الفرنسى المسئول وتخبره عن أهمية هذه الزيارة ، وأعتقد أنه سيرى الاشياء بالطريقة التى نود أن نراها نحن .. فالمساعدة العسكرية الى هذه البلاد تجرى بالملايين فاذا لم يقتنع السيناتور براون بأن هذه المعونة تستخدم استخداما حكيما فقد تهبط هذه الملايين الى الثلث ..

كما أريدك أن تتحدث الى رئيس الوزراء والجنرال سالان وتتأكد ان جميع الضباط الفرنسيين قد حفظوا ما يجب أن يقولوه . فيجب أن يكون الاستعراض جيدا والا فستتطور الامور تطورا سريعا فى هذه البلاد » ..

وهز الماجور « كرافاث» رأسه وغادر الحجرة ثم استدار السفير الى الدكتور « بار » وقال : دكتور « بار » ، قد تكون هذه هى المرة الاولى التى تعانى فيها الامرين من جراء زيارة سياسى معروف .. فالسياسيون لا تعنيهم حقيقة الاشياء وكل ما يهمهم هو الحصول على أصوات الناخبين او يبدون بعض نقط حساسة لخفض ميزانية مساعداتنا الخارجية .. وبراون بالذات سيناتور صعب المراس .. وكل ما أطلبه منك أن تكون بجوار السيناتور براون فى أثناء اقامته وزيارته لنا .. فهو لايتكلم اللغة الفيتنامية ولا أحد من مساعديه أو هيئته الرسمية ، وكل ما أطلبه منك أن تترجم له ..»

فأجاب الدكتور بار : لن يكون هذا صعبا ياسيدى السفير .. فأنا كما تعلم أعرف اللغة جيدا ..

فرد السفير : ولكن السيناتور لا يفهم منها شيئا ، وأخاف أنه اذا حصل على ترجمة حرفية فقد يسىء الفهم .. ولنضرب لذلك مثلا ، فقد يقف فجأة ويبدأ مناقشة فيتنامى وطنى فى أحد الحقول أو الشوارع .. فهل تتصور يا دكتور بار الاصابة البالغة التى قد

تصيب السياسة الامريكية الخارجية اذا أخذ السيناتور بعض الهراء الذى سيسمعه مأخذ الجد من فلاح أو من أحد الاهالى ؟..

فهز الدكتور بار رأسه ، وكان التعب قد بدأ يرسم خطوطا على وجهه وحاول الا ينظر الى عينى السفير الذى استمر يقول :

« لا اريد منك ان تتصرف كأستاذ فى الجامعة او كخبير يا دكتور بار ، وكل ما أريده أن تجعل ما يقوله الاهالى معقولا أو مقبولا اذاحدث وتكلم السيناتور مع أى منهم .. »

فهز الدكتور بار رأسه مرة أخرى وهب واقفا ثم صافح السفير وغادر المكان ..

* * *

لم تكن لجنة الاستقبال التى قابلت السيناتور براون فى مطار «ثن سان» خارج سيجون كبيرة ، كانت تتكون من السفير الامريكى والجنرال الفرنسى الحاكم والدكتور بار والميجور كرافاث ، وذكرالسفير الامريكى للسيناتور بأن الجنرالات الفرنسيين كانوا يودون أن يكونوا فى شرف استقباله لكن اعمالا عسكرية طارئة منعتهم من الحضور وأضطرتهم للبقاء فى الميادين ..

فرد السيناتور وهو يدلف الى السيارة الفورد الكبيرة التابعة للسفير: وهذا ما يجب أن يكون ، فلا مكان للجنرالات غير الميادين ومعسكرات التدريب ..

وفى الطريق الى سيجون سأل السفير جراى السيناتور براون اى الاماكن يريد أن يزورها ، وذكر أن موظفى السفارة سيعاونون السيناتور فى كل مايريد .. فهم لم يعدوا أى قائمة خاصة بالزيارة أو أية خطط لانهم أرادوا أولا أن يعرفوا نزعات السيناتور ..

فأجاب السيناتور بغلظة : أنظر يا بنى .. لاتدعنا يضحك بعضنا على بعض .. فمنذ عامين ونحن نمد هذه البلاد ببليون من الدولارات كل عام .. فأنا أريد أن أرى أين ذهبت هذه الاموال الطائلة .. كما أريد أن أتحدث الى القواد الوطنيين والسياسيين ثم الى اثنين من الزعماء المدنيين أو الرؤساء أو ما يطلقون على أمثالهما هنا .. ولست أريد استقبالا مصطنعا أو حفلات لا أقابل فيها غير الامريكيين والديبلوماسيين فاذا لم تستطع انجاز ذلك فما عليك الا أن تقولها صريحة واضحة ، وسأقيم فى اى فندق فى المدينة وأعد برنامجى الخاص

وجلس السيناتور كقطعة من الصخر فى السيارة واطبق بفكيه على سيجار طويل ..

فأجاب السفير : ايها العضو المحترم ، سأعد برنامجا هذه الليلة يشتمل على دعوة عدد محدود من المسئولين وعدد كبير من الاهالى والزعماء الوطنيين .. وبالطبع سوف ترى قليلا من الديبلوماسيين وقوادهم العسكريين لتستطلع رأيهم وتقف على وجهة نظرهم ..

فأجاب السيناتور : هذا صحيح ..

وفى هذه الليلة كان السفير وزوجته والسيناتور وزوجته يتناولون طعام العشاء فى مبنى السفارة بكل هدوء ، وبعد العشاء ظهر ضابط الاستعلامات ومعه آلة سينمائية وعرض فيلما سياسيا عن الهند الصينية استغرق تسعين دقيقة . وكان هذا الضابط خبيرا محنكا.. فاذا سأل السيناتور سؤالا أوقف الضابط الفيلم فى الحال ورد ردا مباشرا مختصرا .. وآذا لم يعرف الجواب عن السؤال كان يعد بتقديمه كتابة فى اليوم التالى ..

وسأل السيناتور عن نوع الاسلحة التى يستخدمها الشيوعيون فرد الضابط بأن الميجور « كرافاث » هو الذى يستطيع الرد على هذا السؤال ..

ثم قال السيناتور وهو بادى الغضب : والان أيها السيد ضابط الاستعلامات ، كم كلفك وكلف الولايات المتحدة الامريكية اخراج هذا الفيلم الذى يبدو باهظ التكاليف ؟ ..

فأجاب الضابط بسرعة : سيدى ان هذا الفيلم لم يكلف حكومة الولايات المتحدة شيئا فأنا مصور هاو ومخرج سينمائى ، وقد قمت بجمع هذا الفيلم من الافلام الفرنسية والامريكية وأحب أن أضيف ياسيدى اننى فعلت ذلك فى وقت فراغى الخاص ..

ونظر جراى بسرعة الى الضابط كأنه يوافقه على ما يقول ، وبعد أن تناول السيناتور كأسا أخرى من الويسكى ذهب الى فراشه ..

وفى صباح اليوم التالى بدأت الرحلة التفتيشية وكان بصحبة السيناتور وزوجته الميجور كرافاث والدكتور بار ليس الا ..وسافروا فى سيارة حربية مسلحة وكانت الرحلة متعبة لأن السيناتور لم يعلم بأن الميجور «كرافاث» أمر بربط « مانعات الاهتزاز فى السيارة المسلحة ربطا شديدا حتى أن كل «مطب» فى الطريق كان يعكس ضربة شديدة ويسبب ألما مبرحا ..

وتوقفت السيارة عند مخزن ذخيرة فتشه السيناتور ثم اتجه

مترجلا الى ميناء تفريغ حيث كانت امدادات المعونة الامريكية تفرغ وتحمل مباشرة الى سيارات فرنسية تنقلها الى معسكر تدريب فرنسى .. وقابلهم عدد من الضباط الفرنسيين الصغار مروا بهم حول المعسكر الفرنسى وفتش السيناتور حقل التدريب وبعض الاجهزة الاتوماتيكية، وما ان حلت الساعة الحادية عشرة والنصف حتى بدأ واضحا للميجور «كرافاث» أن ساقى السيناتور تتعبانه ، ولكنه مع ذلك لم يخفف الوطأ.

واقترحت مسز براون أن يستريحوا بعض الوقت ، ولكن السيناتور هز راسه بعناد فعادت الى السيارة المسلحة واستمرت الفرقة فى تفتيشها .. ووقف السيناتور فجاة عند بعض الفيتناميين الذين كانوا يتدربون على اطلاق النار وربت على كتف أحدهم ، ونظر المواطن الى السيناتور ثم وقف معتدلا ..

واستدار السيناتور الى الدكتور بار وقال : سله كم مرة أطلق هذه البندقية ؟ وعلى أى نوع من الاهداف ؟..

فرد الفيتنامى يقول انه لم ير هذه البندقية الا هذا الصباح وهو طاه ، حيره هذا التغيير المفاجىء فى مهنته وانه ارتاح له ..

واستدار الدكتور بار الى السيناتور ببطء وقال :

ـ سيناتور ، انه لم يصوب بندقيته هذه على هدف من الاهداف نظرا لقلة طلقات هذا النوع من البنادق وهو يرحب بالتمرين عليها ويحب أن يستعملها ضد الشيوعيين ..

فأجاب السيناتور بغضب ـ اذن لماذا لا يطلبون بعض الطلقات النارية الخاصة بهذا النوع من البنادق؟.. فما الفائدة من ارسال بنادق من غير طلقات ؟.. هذا رجل على أهبة القتال نحن نرسل اليه معدات ببليونين من الدولارات ولكنها ليست من النوع الذى يريده!

وتحول السيناتور ونظر الى الميجور كرافاث . وأجاب كرافاث والضابط الفرنسى فى وقت واحد .. فذكرا أن الحالة دقيقة جدا لذلك لا تطلق هذه البنادق الا على الاعداء .. وذكر الميجور كرافاث ان الهند الصينية كانت فى نهاية القائمة فى حصولها على المعونة العسكرية ذكر الضابط الفرنسى انهم كانوا يحرصون على ذخيرتهم لاستعمالها ضد الشيوعيين ..

ثم تحركت القافلة .. واتفق الميجور كرافاث والضابط الفرنسى على انهما اذااطلعا السيناتور على أن هذا النوع من البنادق لا فائدة منه اطلاقا فى الهند الصينية ، لان الشيوعيين يحاربون بطريقة خاصة لاينفع فيها الهدف أو التصويب كما أن هذه البنادق الاوتوماتيكية

الجبارة لاقيمة لها فى صد الهجوم على المدن المفتوحة ، فاذا كانا اطلعا السيناتور على هذه الامور لساءت الاحوال ..

وتناول السيناتور طعام جندى فى الميدان ، ويتكون من خبز فرنسى وعليه لحم خنزير محفوظ ونصف لتر من النبيذ وقطعة من الشيكولاته المركزة وقطعتين من الحلوى . وعندما انتهى طعام الغذاء اعتذرت مسز براون فأعيدت الى السفارة فى سيارة خاصة ..

واستمر السيناتور فى تفتيشه ، وكأن المسئولين قد تعمدوا أن تكون سيرا على الاقدام لغرض فى نفوسهم ، وفى تمام الساعة الرابعة ذكر السيناتور أن هذا يكفى اليوم ، ثم انصرف الميجور كرافاث والدكتور بار وقال انه سيعود الى السفارة وحده . ولم يعترض الميجور أو المترجم على ذلك .. وان كان السفير قد أمرهما الا يتركاه وحده .. وغادر الرجلان المكان فى سيارة مسلحة أما السيناتور فكان يوجه سائق سيارته وهو جاويش أمريكى وأمره أن يقود ببطء الى المدينة ..

وقال السيناتور موجها الحديث الى السائق الامريكى : يا بنى هل قابلت احدى بنات فيتنام .. ان بعضهن جميلات حقا !

فقال الجاويش : سيدى أ اننا لا نتآخى كثيرا مع الاهالى ..

فقال السيناتور : اننى لم أسألك ان كنت تآخيت ، بل هل طاوحت احداهن الغرام ؟ ..

فأجاب الجاويش : لا ياسيدى .. فعائلتى هنا معى ..

فسأله السيناتور بهدوء : اذن فلديك بيت هنا .. كم حجرة فيه ؟ .. الديك بعض الخدم ؟ وهل شحنت سيارتك من أمريكا على حساب الحكومة ؟

كان الجاويش قد حذر بالا يرد ردا مباشرا ، ولكنه كان امام أحد الخبراء العالميين ، فمن مدة طويلة والسيناتور براون يجيد وضع الاسئلة ويوجهها كيفما أراد وبأية سرعة ..وكان يعلم أيضا أن الجاويش أحد الكتبة لا من رجال القتال ..

وأجاب الجاويش أخيرا .. بنعم على جميع أسئلة السيناتور مما حدا به الى أن يتوقف عن سؤاله فقد علم أن الجاويش قد لقن الردود تلقينا .. فتجاهله السيناتور وأخذ يدرس معالم المدينة والسيارة تنطلق به ببطء ..

وما أن أصبح السيناتور فى منتصف المسافة حتى مر على مقهى

مفتوح على الطريق وعلى مائدة من الموائد كان يجلس ضابطان من الواضح انهما مخموران .. وكان احدهما طويل القامة أمريكيا ، والاخر فرنسيا برتبة كابتن .. وكانا يرتديان ثيابا قذرة وقد غمرهما الوحل حتى ركبتيهما ، ولم يكن الضابطان يتحدثان بل كانا يحملقان فى الميـــدان الكبير ويجرعان كئوس الشراب .. وبجوار منضـــدتهما كانت دائرة من الزجاج المكسور وكان احد الجرسونات الفرنسيين يقف من بعيد يتعمد عدم الالتفـــات الى الضابطين وأسرع السيناتور يقول : أوقف السيارة يا جاويش ، انه لامر مخجل أن نرسل ضابطا أمريكيا الى هذا المكان واذا هو ثمل على قارعة الطريق فى منتصف النهار !

وغادر السيناتور السيارة واتجه نحو المائدة .. فنظر اليـــه الضابطـــان ببلاهة وغبـاء ..

وقال السيناتور بخشونة : أيها الضـــابط .. انك ترتدى رداء ضابط أمريكى فما الذى تفعله هنا .. تسكر فى منتصف النهار ..؟

فابتسم الامريكى بهدوء وطلب الى السيناتور ان يغادر المكان.. ولما رآه لا يتحرك جذب الضابط مقعدا وسأل السيناتور أن يجلس ..

قال الضابط : أخى ! انك تبدو وتتحدث كأمريكى . اجلس وتناول كأســـا واصمت .. اسمى تكس ولشك ، وهذا هو الميجور مونيـــه الذى كان فى يوم من الايام غول الفرقة الفرنسيـــة والان لا شىء .. اننا ثمـــلان !

وجلس السيناتور وقال :

ميجور : اسمى السيناتور براون ، وقد حضرت فى رحلة تفتيشية، وقد سألتك سؤالا أريد الجواب عنه .. ما الذى تفعله هنا فى منتصف النهـــار ؟

ونظر الضابطان الى السيناتور وابتسما ثم ملأ كأسيهما مرةأخرى وقال الفرنسى بلغة انجليزية سليمة : سيناتور ! اننا ثمـــلان .. وسنظل نشرب !!

فقال السيناتور : ليس هذا سرا تذيعانه .. ولكن هذا مخجل ، فنحن نرسل ضباطا أمريكيين الى هذا المكان لمعونتكم ثم نكتشف أنهم يحتسون الخمر على قارعة الطريق .. ويظهر انكما لا تفهمان أو تقدران أن الحالة خطيرة فى هذا الوقت بالذات !

وأغلق تكس ولشك عينيه وابتسم ابتسامة فاترة وقال وعيناه تزال مغلقتين :

ـ سيناتور ! سأعطيك خمس ثوان لتبدى فيها قرارا خطيرا .. اما ان تجلس وتحتسى الخمر وتصمت والا قذفت بك الى هذه السيارة المسلحة ! !

ولمدة خمس ثوان ظل السيناتور صامتا . فهو فى شبابه كان فتى مشهورا ومقاتلا عنيفا وفى لحظة رأى ان يقبل تحدى الضابط الامريكى وكان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ عندما رأى هذا الضابط الامريكى يحتسى الخمر على قارعة الطريق وامريكا تواجه خطرا مفزعا فى الهند الصينية .

ولكن السيناتور لم يكن مغفلا ، وعندما فتح الميجور عينيه وبدأ يقف ، ازاح السيناتور مقعده وسار الى سيارته المسلحة ..

وما ان أرسل السيناتور الى السفارة حتى أرسل فى طلب السفير .. ووصف للاخير الضابطين وأعطاه اسميهما .. وطلب السفير الميجور « كرافاث » وأكد للسيناتور أن الضابطين سينالان العقوبة اللازمة فى الحال . ثم ذكر السفير لهيئته فيما بعد ان هذه الحادثة كانت نقطة التحول فى زيارة السيناتور ، فقد أصبح السيناتور بعد ذلك اكثر تودد كما أن الرحلة الطويلة التى قام بها سيرا على قدميه فى اليوم الاول وقد ثبطت عزيمته ، كان التفتيش فيما بعد يتم بالسيارات العادية أو المسلحة ..

وفى يوم أخذوه الى أحد المواقع الحربية التى بذل الفرنسيون فيها مجهودا كبيرا لصد هجوم الشيوعيين .. وكان خط الدفاع فى منتهى القوة والمناعة حتى ان السيناتور تعجب كيف استطاع الشيوعيون أن يخترقوه . وأجاب الميجور « كرافات » والجنرال الفرنسى بسرعة قائلين: لقد كسبوا المعركة بوسيلتين :

اولاهما : أن الشيوعيين ألقوا بالرجال كما يلقى الامريكيون بأعقاب السجائر .. فاذا ارادوا ان يخسروا ألفا وخمسمائة جندى فى هجومهم لما ترددوا ولكنه ثمن لا يستطيعون ان يدفعوه بصفة مستمرة !

والثانية : ان الطريقة الاخرى التى يتمكن بها الشيوعيون من تحطيم خطوط الدفاع هى عدم اعداد هذه الخطوط بالاجهزة اللاسلكية والذخيرة والمدافع والامدادات ..

فهز السيناتور رأسه فى أسى .

وكانت هناك بالطبع بعض أشياء اخرى لم يذكرها الميجور اوالجنرال الفرنسى فلم يذكرا أن الخطوط التى اجتازها الشيوعيون تغلبوا عليها بفرق صغيرة هاجمتها أثناء الليل بالقنابل اليدوية ولم يذكرا للسيناتور

أيضا ان فرقتين كاملتين من الفرنسيين كانت منتشرة فى الدغل خوف من غارات الشيوعيين لأن السيناتور كان فى مركز الخطر أو فى قلب منطقه نفوذ الشيوعيين !!

وفى هذه الليلة تغير وجه الزيارة تغيرا ملحوظا فقد دعت زوجه الحاكم الفرنسى العام مسز براون الى حفلة عشاء عائلية .. وكانت الحفلة صغيرة لكنها معقدة لم يحضرها غير السيناتور وزوجته والحاكم وزوجته وظل الاربعة يأكلون ثلاث ساعات .. وبطريقة ما أحضر مساعد الحاكم بعض زجاجات الويسكى التى يفضلها السيناتور وكانت على المائدة ثلاثة أنواع من النبيذ الفاخر والشمبانيا ، وأثناء العشاء عرض مساعد الحاكم على السيناتور بعض الصور الفوتوغرافية التى أخذت أثناء القتال حول دين بين فو ..

وما ان توغل السيناتور فى فحص هذه الصور حتى بدا له ان القتال كان وحشيا مرا قاسيا فكانت هناك بعض صور لشيوعيين قد صلبوا على رماح من البامبو وقد تجمدت حدقات عيونهم كما كانت هناك أكوام من الجثث فى انتظار من يدفنها بعد المعركة . وصور أخرى للاهالى وهم يعاونون الفرنسيين وقد قطعت أيديهم لتعاونهم معهم .

وقال مساعد الحاكم ـ ان ما نحتاج اليه هنا هو بعض الاسلحة الحديثة .. فالرجال لا يستطيعون القتال وأيديهم خالية من السلاح .

كان السيناتور قد تأثر تأثرا بالغا من فظاعة الصور التى رآها فشعر بالالم والمرض وارتفع تقديره للفرنسيين.

وفى اليوم التالى طلب السيناتور ان يطير الى « هانوى » حيث كانت معركة دين بين فو على أشدها . وحلقت به الطائرة فوق الدلتا ، وأشار الميجور « كرافاث » وبعض جنود المظلات الفرنسيين الى الامكنة التى تدور فيها المعركة . وهبطت الطائرة خارج هانوى ثم انتقلوا الى سيارة سوداء الى المدينة . وفى الميل الاخير للرحلة كان الطريق مزدحما بقوات أفريقيا الشمالية . وكان السيناتور متعبا مجهدا من التفتيش والطعام والرحلة ولكن هذا المنظر اعاد اليه نشاطه فسأل الميجور كرافاث :

ـ هذه الجيوش من أفريقية الشمالية وهذا يبدو غريبا .. فلماذا يختار الفرنسيون جنودهم من الاهالى ؟.. فقد يوفر هذا نقل هؤلاء الجنود من شمال افريقية الى هذا المكان .. ويعطى فرنسا الفرصة بأن يقاتل الاهالى فى سبيل بلادهم ..

فأجاب الميجور كرافات : حسنا يا سيدى ، ولكن الفيتنامى لايصلح كجندى .. فحياتهم ينقصها النظام ، واذا أعطيتهم بندقية أو قنبلة يدوية فانهم يبيعونها أو يفجرونها فى اتلال .

وضاقت عينا السيناتور ..

ـ اذن فما دام الفرنسيون لا يستطيعون تجنيد المواطنين فماالقوات التى يستخدمها الشيوعيون بحق السماء ؟ !

وكان الميجور قد فكر فى هذا السؤال مرة أو مرتين ولكنه لم يحصل أبدا على جواب مقنع ، فاستدار الى الجنرال الفرنسى الذى هز كتفيه وقال : ان أغلب الجنود الحقيقيين الذين يقاتلون فى الدلتا من الصينيين .. وهم أفضل فى القتال من الفيتناميين كما أن الشيوعيين يقتلون الاهالى الذين لا يجيدون اصابة الهدف ، وفرنسا يا سيدى بلد متحضر ولن تسمح لنفسها بالقيام بهذه الاعمال البربرية ..

فأجابه السيناتور : استمع الى يا جنرال .. أحب أن أتحدث الى بعض الجنود الذين أسرتهم . فما أن ننتهى من هذا الاحتفال فى هانوى ، أود أن أذهب مباشرة الى معتقلات الاسرى ..

وشعر السيناتور أنه لو تحدث وجها لوجه مع أحد الشيوعيين فسوف يعرف السبب الذى يفضل بموجبه الاهالى القتال مع الشيوعيين لا مع الفرنسيين .

ولكن السيناتور لم ير معتقلات الاسرى لانه ما كاد يصل الى هانوى حتى أقيمت له حفلة كبرى دار الحديث فيها حول الحالة العسكرية فى معركة الدلتا .. وأسرع أحد الضباط الفرنسيين الى عرض خرائط معقدة وبسطها أمام السيناتور . وكان الغداء ثقيلا وشرب نوعين من النبيذ فى كؤوس فاخرة من الكريستال الحقيقى .. وهز السيناتور رأسه آخر الامر عندما أطلعه الميجور على احصائية بعدد الدبابات والطائرات والاسلحة والسيارات والمعدات المختلفة التى سوف تهيىء للفرنسيين الفرصة لطرد الشيوعيين من الدلتا ..

وبعد الغداء اتجهت قافلة السيناتور لزيارة معسكرات الاعتقال ، وبعد ميلين من اتجاههم الى ضواحى هانوى اعلن الجنرال الفرنسى ان عليهم أن يسيروا بقية الطريق . فأخذوا يسيرون أولا فى طريق لولبى بين حقول الارز ، ثم بدأت الثقوب تظهر فيه بشكل واضح ، وبعد قليل انتهت معالم الطريق ووجد السيناتور نفسه يسير فى طريق غارق فى الوحل .. وآلمته رجلاه قليلا قليلا ولكنه أصر على مواصلة السير ، وبعد نصف ساعة بدأ يتردد فقد كانت كثافة الوحل ككثافة الرصاص وبدأ الالم يعرك ساقيه عركا .. وعندما اقترح الجنرال الفرنسى التوقف التماسا للراحة جلس السيناتور على كومة من الحجارة . فرأى فى الطريق المضاد طابورا من الاهالى يهرعون نحو هانوى .. وسأل السيناتور الدكتور بار أن يسأل بعض الاهالى وقال :

ـ سل هذه السيدة التى تحمل على رأسها كومة من الملابس لماذا تهرب من الشيوعيين ؟

وتحدث الدكتور بار بهدوء الى المرأة وبعد ثوان كانت تهز رأسها ، ثم أعطاها الدكتور بار سيجارة أشعلتها وأخذت منها نفسا طويلا ، ثم تكلمت بصوت نقيل ينيض أسى ولوعة ، وعندما انتهت من حديثها ووضعت ربطتها فوق رأسها أخذ الدكتور يراقبها وفى الوقت نفسه يرتب أفكاره ثم استدار نحو السيناتور وقال :

« سيدى السيناتور .. انها تقول ان المدينة مكان أمين .. وان الفرنسيين سينظرون اليها بعين العطف والرعاية أما الشيوعيون فسيذبحونها ذبح الشاة .. وتقول أيضا انها تفضل أن تغادر الدلتا الى الابد بدل أن تعيش تحت سيطرة الشيوعيين .. »

أما ما قالته المرأة فكان أن الفرنسيين والشيوعيين كلاب ! فالشيوعيون ذبحوا ابنها الاكبر منذ ستة شهور أما الفرنسيون فأكثر قساوة لانهم حرقوا كوخها ليشعلوا النار فى القرية ، ثم أضافت فى مرارة وألم : لقد هجر الفرنسيون القرية من غير قتال .. وهى تذهب الى هانوى لان فى المدينة غذاء وكساء وملجأ وأمانا ..

ولم يصر السيناتور على مواصلة أسير الى المعتقلات ، وبدلا من ذلك ساروا بهدوء تجاه « هانوى » ووصلوا اليها فى الوقت المناسب الذى يستطيع فيه السيناتور أن ينظف نفسه ويتأهب للحفل الكبير الذى أقامه حاكم هانوى ! ! وفى صبيحة الغد عاد السيناتور وحاشيته الى سيجون ..

وكان اليوم التالى مزدحما بالتفتيش على الذخيرة ومعسكرات التدريب والمراكز الدبلوماسية .. وفى الليل أقيمت حفلة كوكتيل فاخرة أعقبتها وليمة رائعة .. وكانت الحفلتان غاصتين بالصحفيين الفرنسيين ورجال الدولة والضباط العسكريين ورجال الاعمال المهمين الذين تحدثوا جميعا بصراحة وطلاقة مع السيناتور ..

وذهب السيناتور آخر الامر الى فراشه بعد أن أكل وشرب كثيرا.

وفى الصباح استأنف نشاطه مرة أخرى ..

وبعد أسبوع غادر السيناتور وحاشيته سيجون ، لقد كانت الرحلة هامة جدا .. هكذا كان يفكر السيناتور ! فقد حصل الآن على صوره واضحة المعالم عن الموقف هناك !

وفى اللحظة التى كادت تغفل فيها عين السيناتور وهو فى الطائرة عائدا الى بلاده خطر له خاطر غريب ففتح عينيه .. لقد أدرك أنه خلال

هذا الوقت الطويل الذى قضاه فى سيجون وهانوى لم يتحدث الا الى شخصين اثنين من الاهالى والى ثلاثة ضباط أقل من رتبة الجنرال وكان اثنان منهما ثملين ..

ثم اخذت الشكوك تساوره حول زيف المعلومات التى حصل عليها ، ولكن التعب كان قد انهكه فراح فى سبات عميق ..

***

طرق رئيس المجلس الامريكى المنضدة بمطرقة يأمر احاضرين بالتزام الهدوء فهدأت الاصوات وعم المكان السكون ..

وقال الرئيس بصرامة ـ ان السيناتور من مكسيكو الجديدة لاتزال له الكلمة ، فاذا أراد أن يتنحى فيجب أن يذكر لنا ذلك .

وغضب السيناتور كورونا ولكنه كان فى الوقت نفسه لايريد معاداة السيناتور براون . فرد السيناتور كورونا ـ سيدى الرئيس سأتنحى عن دقيقتين للسيناتور براون بعد دقيقة واحدة من حديثى .. فلدى نقطة واحدة أريد أن أوضحها ، وهذه النقطة هى : لقد ارسلنا بلايين الدولارات الى الحكومة الفرنسية فى الهند الصينية .. وقد نجحت هذه الحكومة فقط فى ضياع دين بين فو ومنطقة الدلتا بأكملها . فأنا أسألكم أيها السادة كم من الزمن يجب أن نستمر فى منح أموال دافعى الضرائب الى جحر الفأر فى آسيا ؟

ولم يكن السيناتور كورنا غبيا لانه كان يعلم تمام العلم بأن السيناتور براون لديه قنبلة يريد أن يفجرها فى المجلس ، وفجأة قرر السيناتور كورونا أن يحصن دفاعه ومناقشته فقال :

« ان هذه الاتهامات ليست كاذبة ، كما أنها ليست مبنية على الخيال .. هى حقائق صارخة مدنا بها شخص يعرف الحال معرفة كاملة حقيقية ..

فصرخ السيناتور براون بصوت جهورى ـ ما اسمه يا سيدى ؟

فرد السيناتور كورونا من غير تفكير :

ـ السفير ماك هوايت .. مندوبنا السياسى فى سارخان . فقد طلبنا الى السفير ماك هوايت أكبر خبرائنا الدبلوماسيين أن يبدى رأيه عن الحالة فى فيتنام . وكان السفير متشائما بمرارة .. وقد كان صريحا ..

فقاطعه السيناتور براون ـ اذكر بعض الحقائق من فضلك يا سيناتور .

ونظر السيناتور كورونا الى المنبر ثم فتح دوسيها أمامه مكتوبا عليه « خاص بالجلسات السرية » .. وقال بلهجة غاضبة :

« قال السفير ماك هوايت ما يأتى : ان الفيتناميين الشيوعيين وغير الشيوعيين يكرهون الفرنسيين ، وذكر أن الفرنسيين اضطروا الى استجلاب بعض جنود شمال أفريقية وكلفهم ذلك تكاليف باهظة ليقاتلوا بدلا منهم فى فيتنام .. وأن الاهالى تبرموا من هذا الاجراء .. وذكر أيضا ان التجار الفرنسيين كانوا يهتمون بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصالح الدولة .. وقال ان الفرنسيين كانوا يقعون فى فخاخ الفوآد الشيوعيين العسكريين .. وأن الفرنسيين لم يحرزوا أى نصر من أى نوع كان بل احرزوا الهزيمة تلو الهزيمة وقال اننا أرسلنا سيارات حربية سحقها وحل فيتنام ، وقال ان القوات الفرنسية العسكرية رفضت استخدام حرب العصابات . وذكر أن الفرنسيين ضحكوا على الامريكيين وأظهروا لهم أن كل شىء كان وردى اللون ..»

وعندما تنحى السيناتور كورونا عن المنبر صعد اليه السيناتور براون وقال :

ـ حقا يا سيدى الرئيس لقد سمعنا ما فيه الكفاية .. ان فخامة السفير قد ذكر عدة أشياء ولكنها منقولة عن سفير آخر فى بلد آخر ..

وتوقف السيناتور براون لحظة وترك الوقت يمر حتى أصبحت وقفته هذه ذات أهمية فى نظر الحاضرين ثم قال بهدوء :

ـ أيها السادة ان ما قاله فخامة الشيخ غير حقيقى ..

ومع الاسف الشديد كانت القاعة هادئة والصحافة مصغية والاعضاء صامتين ..

وغادر السيناتور مكانه ولم يشك أحد فى أمانته أو صحة كلماته .. وهو يقول :

« أستطيع أن أقول لكم أيها السادة انها أنباء غير صحيحة لاننى كنت هناك !!! »

الفصل الحادى والعشرون

مجمل الاشـــياء الصـــغيرة

كان السفير « ماك هوايت » يتوقع خطابا قبل ان يصـل بوقت طويل . ففى اليوم الذى هاجم فيه السيناتور براون اقواله فى مجـلس الشيوخ ومندوبو الجرائد المحلية والاجنبية ووكالات الانباء قد تهافتت على السفارة الامريكية فى هايدهو . كان ماك هوايت يعتقد ان تقاريـره ستوضع على بساط البحث السرى ، ولكن اتضح عـــكس ذلك لان الصحفيين كانت لديهم صورة كاملة من تقاريره المستفيضة السرية .. لم يكن لديه ما يعلمه غير ان يدافع عما قال عن فيتنام ، وبذل فى ذلـك مجهودا كبـــيرا ..

وصمتت واشنطن صمتا مطبقا ثلاثة اسابيع . وكان « ماك هوايت» يعرف انه سيسمع صدى لهذا الموضوع . ولكنه دهش عندما وصله كتاب مطول مكتوب بخط سكرتير وزارة الخارجية يقول فيه :

« عزيزى جلبـرت ..

اننى كما تعلم ياجلبرت احد هؤلاء الذين رشحوك للعمل فى الخارجية .. وقد تتبعت بفخر كل حركاتك وتنقلاتك وتدرجك فى المناصب . فأنت دائما مثال الامريكى الذى نعتز به .. لانك جعلت نصب عينيك أن تضع هيبة بلادك ومستقبلها فوق كل مصلحة شخصية .. لذلك سررت ايما سرور حينما اسند اليك هذا المركز الخطير فى سرخان .. وقلت فى نفسى انها بداية طيبة لمناصب أكبر ستفوز بها فى المستقبل القريب .

وقد اكون غير امين اذا لم اذكر لك اننى شعرت ببعض الشـكوك خلال الشهور القليـــلة الماضية .. فدعنى اذن أراجع التقارير :

١ ـ ففى تقريرك الاول ذكرت انك ارتكبت حماقة كبرى أو خطـأ جسيما .. وقلت ان موظفى السفارة كان يحوطهم عملاء شيوعيـــون واقترحت أن تتخذ خطوات ايجابية فى العالم كله لمنع هذه الكوارث .. فدافعت عنك دفاعا مجيدا على اساس ان تقريرك لاتنقصه الشجاعة .. ولم يكن هناك من يستطيع أن يحط من قدر تقريرك ..

٢ ـ ثم بعد ذلك تغيبت عن السفارة باذن خاص . فوصـــلتنى

شكاوى من سفيرين على الاقل بانك تدخلت فى شئونهما . وكما تعلم ياجلبرت لقد كنت أحاول دائما أن أتخلص من البروتوكول المعقد للخدمة الخارجية . ولكن مغامراتك حول « دين بين فو » كانت غير ضرورية ومبالغا فيها لشخص يريد ان يكتسب خبرة خاصة او معلومات تعينه فى مهمته الرسميه .

٣ ـ ثم طلبت ان ينقل جورج سوبفت ، رئيس البعثة فى سفارتك ، بسبب اهماله . ثم اتضح ان هذه الاهمال كان لرفضه ان يسمح لاحد الكولونيلات بسلاحنا الجوى ان يقرأ كف ملك سارخان .

٤ ـ والان قرأت اقوالك التى عرضت فى جلسة خاصة من جلسات مجلس الشيوخ للشئون الخارجية ، وكما تعلم اننا لانحاول ابدا ان ندافع عن موظفينا امام هذه اللجان ، ولكن ملاحظاتك عن البلاد التى تم تبعث اليها بصفة رسمية كانت متطرفة . وحتى لو كانت صحيحة فقد كانت تطفلية حمقاء .. ودعنى اوضح نفسى لك أكثر من ذلك ياجلبرت . فانا لااطلب اليك أن تستقيل ولا اقترح ان تغادر سارخان ، ولكن يجب أن تؤكد لى أن تصرفاتك المستقبلة ستتجاوب مع تلك التى ننتظرها من الضباط المعينين فى الخدمة الخارجية .

صدقنى اذا قلت لك اننى لجأت الى استخدام هذه الوسائل غير الرسمية فى الاتصال بك لانقذ الوزارة من الحرج ولاساعدك فى مهنتك .. »

***

والقى ماك هوايت بالكتاب جانبا . وكان يعلم ان السكرتير رجل مخلص دين وهو رجل قضى حياته كلها فى اسفار وتنقلات وكان رجلا ذا شجاعة وجسارة ..

وفكر ماك هوايت طويلا قبل ان يكتب الرد للسكرتير .. وقرر الايجيب على النقاط الاربع التى ذكرها السكرتير .. فكل نقطة من هذه النقط لاتمثل الا جانبا صغيرا من صورة كبيرة متضخمة ، وسيحاول فى محاولة أخيرة ان يبدى رأيه للسكرتير فى السياسة الامريكية ويترك المسألة معلقة ، فاذا لم يوافق عليها السكرتير استقال ماك هوايت . .

« عزيزى السيد السكرتير . .

اننى شاكر لك صراحتك التى تضمنها كتابك الى .. واحب أن ارد عليك بنفس الصراحة ..

ان المعركة التى تدور بيننا وبين الشيوعيين فى هذه المنطقة لم تكن لتجعلنى اسكت على المهازل التى رأيتها بنفسى ، ولم أكن قد اعددت نفسى اعدادا كافيا لادرك الحقيقة الواقعة وهى أن السياسة فى هذه المنطقة هى مسالة حياة أو موت .. ولم أكن أعرف مطلقا الملاحظة القوية التى ذكرها لينين عندما قال « ان الطريق الى باريس يجرى خلال بكين »وتعنى الملاحظة ايضا أن نفس الطريق يجرى خلال سيجون وطوكيو وبانكوك وجاكارتا وحتى « هايدهو » .. والحقيقة أن ماقاله لينين صحيح .

لا اعتقد مطلقا ان الروس ستهمهم الحرب الذرية فى شىء .. فهم ينتصرون فى المعارك بادنى مجهود وبدون أن يتحملوا مشقة الابادة والافناء .. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم يهزموا مرة واحدة .. كما كنت تقول انت فى خطبك السياسة .. ولن نكون نحن أول من يلقى بالقنبلة فى وجوه اعدائنا .. فسوف يكسب الروس العالم بنجاحهم المنقطع النظير فى مجموعة المعارك الصغيرة .. ان معظم هذه المعارك تدور حول موائد المؤتمرات وفى حقول ارز اسيا أو فى اجتماعات القرى أو فى المدارس ولكنها ستتخذ امكنتها ومواقعها فى عقول الرجال .. وقلما تكون المعارك حامية الوطيس ، ولكن مجموع هذه المعارك الصغيرة سيقرر طريقنا فى الحياة ، فاما بقاء وأما فناء !

اننى اعتذر لهذه اللهجة القاسية .. ولكن مامن طريقة اخرى أستطيع بها عرض افكارى . وعلى الولايات المتحدة الامريكية ان تتخذ أحد أمرين : اما ان تستعد للانتصار فى هذه الميادين الصغيرة او تنهزم انهزاما ساحقا ماحقا ..

وما الذى يجب علينا ان نفعله ؟

اننى لااتخيل الصورة بأكملها ، وربما لايستطيع انسان ان يتخيل الصورة كاملة .. ولكن حفنة من التجارب الشخصية انارت امامى بعض معالم الطريق ، رغم الحيرة البالغة التى نجد فيها انفسنا ..

لقد مر امامى وانا فى السفارة فى « هايدهو » اكثر من ثلاثمائة امريكى ذوى كفايات متباينة . كان من بينهم خمسة أشخاص ذوو مقدرة خاصة على منازلة الشيوعيين ، هم قسيس كاثوليكى ومهندس وكولونيل من السلاح الجوى وميجور من تكساس ومواطن كان يصنع اللبن المجفف .. فمن هذه الجماعة القليلة من الرجال العاملين تعلمت بعض المبادىء ! ولست أدرى ان كانت هذه المبادىء يعمل بها فى جميع البلاد التى تدور فيها رحى المعارك ولكنى أشك فى ذلك ..

ان الاشياء الصغيرة هى التى يجب ان نقوم بها من اجل صالح

الشعوب التى نحتاج الى صداقتها لامن اجل صـــالح الدعاية التى نقوم بهـــا . .

ان الرجال الذين ذكرنهم من قبل ، الرجال الذين ضحوا وكافحوا ،لم يكونوا حالمين او عاطفيين . . كانوا رجالا عاملين ذوى خشونة ! واتفقـوا معى جميعا على انه مادامت سياستنا الخارجية انســـانية ، معقولة ، تنجح نجاحا باهرا . أما اذا كانت استعمارية جوفاء فسوف تفشل فشلا ذريعا . .

وعلى أية حال فانا على اتم أستعداد لان اتوسل اليك ان تســمح لى باجراء بعض الاشياء فى سارخان . . فاذا لم تر امامك الطريق واضحـا للسماح بانفاذ هذه الافعال فساستقيل من السلك الاجنبى . . أما اذا سمحت لى فسيكون لدى أكثر من فرصة لانقاذ ســـارخان من براثن الشيوعيين . ونجاحى سيجعل تجاربى نموذجا يحتذى .

١ ــ اطلب ان يتعلم كل أمريكى « وعائلته » اللغة السارخانية قراءة وكتـــابة ، وأنا اعتقد ان كل انسان يستطيع ان يتعلم اللغة فى مـــدى اثنى عشر اسبوعا ، وهذا ينطبق على الموظفـــين المدنيين والعسكريين .

٢ ــ أطلب الا يسمح لاى امريكى باحضار عائلته الى سارخان الااذا وافق على أن تكون مدة خدمته هنا سنتين . . فاذا احضر عائلته فيجب الا يعيشوا عيشة البذخ والاسراف بل يعيشوا فى منازل عادية ولا يجـب ان تكون بيوتهم اكثر بذخا مما هى عليه فى أمريكا . . ويجب أن ياكـلوا أو يتعودوا تناول الطعام الموجود فى المحال العامة الـــذى يبـــاع بالجملة وبوفـــرة . .

٣ ــ اطلب ان تسحب المخازن الامريكية والحربية (PX) من ســارخان ولا يسمح الا ببيع الاطعمة للامريكيين كطعام الاطفال واللبـن المجفف والقهوة والدخـان .

٤ ــ اطلب الا يسمح للامريكيين بشحن سياراتهم الخاصة الى هـذه البلاد . كما يجب ان تتم جميع تنقلاتنا ومواصلاتنا فى السيارات الحكومية . . أما المواصلات الخاصة فتقتصر على سيارات الاجرة او الدراجات

٥ ــ أطلب ان يقرأ جميع الامريكيين الذين يخدمون فى سارخان كل مؤلفات ماوتسى تونج ولينين وشوان لاى وماركس وانجلز وكل الزعمـاء الشيوعيين ، ويجب ان تتم هذه الدراسة قبل حضورهم .

٦ ــ أطلب ان تذكر كل هذه الشروط فى طلبات الاستخدام وان توضح لجميع موظفى الحكومة الذين يرغبون العمل فى السلك الســياسى لكى يكون كل فرد قادم الى هذه البلاد على بينة من الامـــر . فقد دلت

تجاربى ان الناس ياتون مندفعين وراء عوامل الاغـــراء وبذلك تنحط مستوياتنا ونحصل دائما على موظفين لاخير فيهم اطلاقا . .

انني اعلم ياسيدى ان هذه طلبات غير عادية ، وقد تبدو هذه الطلبات مضحكة أو هزلية فى الوقت العصيب الذى تدور فيه المعارك بين الدول الكبـرى . واعيد ما أقول من أن هذا هو مجمل الاشياء الصغيرة الـتى تفقدنا النصر لعدم تطبيقها او الالتفات اليها .. وما دمت ارى ان هـذه الطلبات قانونية وممكنة فقد طلبت ذلك من جميـــع الموظفين الجـــدد فى ســـارخان . .

ـواذا لم نستطع ارسال امريكيين مدربين ممن يؤمنون بالبـــذل والتضحية الى ماوراء البحار فستستمر خسارتنا فى اسيا وستنتصـــر روسيا من غير ان تطلق رصاصة واحدة .. والفرصة الوحيدة أمامنـــا هى أن نبدأ بالعدوان واستخدام الاسلحة الذرية ..

وانى لفى انتظار ردكم .. »

***

ولم يستلم السفير ماك هوايت طوال ثلاثة اسابيع أى رد من واشنطن. وان كان هذا لم يقلقه كثيرا .. وكان يقضى ايامه فى مراقبة الميجور ولشك وهو يدرب بعض السارخانيين على حرب العصابات فى معسكر بـــدائى .. ثم زار قرية شانج دونج ليرى بنفسه تقدم الصناعة فيها .. فقـــد كان احد الميكانيكيين السارخانيين قد اخترع ماكينة صـــــغيرة لحفظ الاســماك .. وتقدمت الصـــناعة تقدما ملحـــوظا فيما بعد فى سارخان

وفى طريق عودته الى « هايدهو » تناول السفير غداء ، فى مدرســة صغيرة باسم « الاب فانيان » بها ٢٥٠ طالبا سارخانيا يتلقون العلم لاتزيد أعمارهم على ٢١ سنة .. وكانت مناهج الدراسة تشتمل بعض كتـــابات للشيوعيين وقوادالعالم الغربى ..وتحدث بعض الطلبة الى السفيروأبلغوه انهم بعد أن يتخرجوا سيعودون الى قراهم ليعملوا فيها .

وما أن اقتربت سيارة السفير من هايدهو ، حتى رأى من بعيـــد خمسين رأسا من الماشية استوردت من امريكا منذ ستة اشهر ، ولاول مرة فى تاريخ البلاد كان الاطفال يشربون اللبن الطازج ، ثم اتســـعت الصناعات الجلدية فى قرى مختلفة من البلاد ونشطت نشاطا كبيرا ..

واخيرا وصل الرد على هيئة برقيـــة طويلة ولكنها دقيقـــة وكانت تقـــول :

« الرد بالنفى على جميع اقتراحاتك . ان هذه الاقتراحات رغم مزاياها تبدو مستحيلة . لانستطيع ان نحصل على امريكيين للخدمة فيما وراء البحار بهذه الشروط ، نرجو ان تعود فورا الى الولايات المتحدة .. وفى أول فرصة توقع تغيير جميع موظفيك الحاليين ، تناقش مع الحكومة السارخانية واستطلع رأيها بخصوص تعيين المستر جوزيف بنج كسفير جديد فى سارخان .. فنحن نعتقد ان كفاءته الممتازة وخبرته الواسعة تؤهلانه للحصول على هذا المركز الخطير .

امضاء : السكرتير »

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع غادر ماك هوايت بلاد سارخان

الفصل الثانى والعشرون

خاتمـــة حقيقية

ليس من الحكمة أن نضيف خاتمة حقيقية الى قصة خيالية . ولا نحب أن يلقى القارىء بالكتاب جانبا وهو يظن ان ما قرأه كان كله مـن وحى اخاطر أو نسج الخيال فالامر على غير ذلك والكتاب مبنى عـلى حقائق .. ومن واجبنا ان نذكر الاسباب ونذكر المصادر كذلك ..

وبالرغم من ان شخصيات القصة تعتبر خيالية وان سارخان لاوجود لها فكل حادثة من الحوادث الصغيرة والمآسى التى ذكرت قد حدثت بالفعل ... عدة مرات .. بل أكثر من عدة مرات .. ونعتقد انه اذا اسـتمرت هذه الاشياء تحدث فسوف تتجمع على هيئة كارثة كبرى ..

انه من اسهل الامور فى عصر الفضاء وعصر اختراع الاسلحة الذرية « الفظيعة » منها و « القذرة » ان نتغاضى عن حقائق التاريخ الصارخة فقد تفقد أمة قوتها وتماسكها تدريجيا فى ذرات دقيقـــة . ونعتقد ان الطوفان النووى غير متـــوقع ولكن حياتنا الحرة قد تضيع وتتنـــاثر أشـــلاء .

لقد اشترك المؤلفان فى حوادث جنوب شرقى اسيا التى اوحت اليهما بتأليف هذا الكتاب واطلاعهما على السجلات المختلفة ، ونزولهمـا الى ميادين المعركة هيأ لهما دراسة قوة الشيوعيين . وككاتبين رأينا ان نضفى لون الدراما على ما رأيناه من الامريكيين الذين يمثلوننا فى ميدان المعركة

ان تسجيل الاعمال المجيدة التى قام بها الكولونيل هيلانديل والاب فانيان وجون كولفن او حتى الامريكى القبيح نفسه ، من الزم الضروريات لان هـؤلاء خدموا أمريكا خدمة عظيمـــــة . ويكفى ان نقول ان هـذه التسجيلات اخذت من واقع الحياة . وهناك ضرورة اخرى للتحدث عن الشخصيات الوهمية مثل لويس سيرس وجورج سويفت والسيناتـور براون .

فالسفير سيرس ، مثلا ، لم يكن له وجود .. ولكن هناك عشـرات من أمثاله فى اسيا خلال السنوات الاخيرة . وقد وصفناه على انه حصان

من خيول السياسة اودع وهو وزملاؤه السلك الدبلوماسى الى ان يعين في الفضـــاء .

وقد يكون من الخطل ان نذكر اسماء هؤلاء الدبلوماسيين الذين وضعوا هذه الانظمة « رغم ان بعضهم لحسن الحظ كانوا اكفاء مهرة » ولـــكن قائمة سفرائنا فى العالم كله تكشف عن حقيقة غريبة وهى ان الثـروات الشخصية والامانة السياسية ، والمقدرة على تجنب المتاعب هى من ابرز صفاتهم ، وهذا معناه قلة الخبرة فى اختيار هـــؤلاء السفراء .

ان معظم تصرفات سيرس تستند الى حوادث حقيقية اشترك فيهـا اكثر من ديبلوماسى واحد .. اما هجوم الصحافة عليه فى سارخان وعدم مقدرته على قراءة هذا الهجوم فهما من بنات أفكارنا .. وقد أوحت الينا حقيقة وجود صحافة معادية لامريكا فى كل عاصمة من عواصم جنـــوب شرقى اسيا هذه الفكرة وفى اغلب هذه العواصم كان السفير الامريكى مثل صاحبنا سيرس ، غير قادر على قراءة الجرائد المحلية « وكان احـــد الدبلوماسيين يعمد الى ارسال الجرائد المحلية الى واشنطن حتى تترجمها له مكتبة الـــكونجرس » .

على أنه من البديهيات أن السفراء الذين يوفدون الى الامم الكبيرة يجب عليهم أن يتكلموا لغة البلاد التى ينتدبون اليها .. ففى فرنسا وايطاليا وألمـانيا وبلجيكا وهولندا والنرويج وتركيا نرى أن سفراءنا لا يتكلمون لغات أهل هذه البلاد (مع أن سفيرنا فى باريس يستطيع أن يتكلم الالمانية وسفيرنا فى برلين يستطيع أن يتكلم الفرنسية !)

وفى العالم العربى بأكمله ـ فى تسع دول ـ نرى أن سفيرين اثنـين فقط يتكلمان اللغـة العربية . أما فى اليـــابان وكوريا وبورما وتايلاند وفيتنام وأندونيسيا وغيرها فان سفراءنا يتفاهمون عن طريق التراجمة . وفى جميع العالم الشيوعى فان سفـــيرنا فى موسكو هو الوحيد الذى يستطيع أن يتكلم اللغة الروسية .

ولو كان السفراء مجرد رءوس تحيط بهم كوكبة من الدبلوماسيين المحنكين فان عدم مقدرتهم على القراءة أو الكتابة باللغة الوطنية قد تكون صغيرة بالمقارنة بما يسببونه من مضايقات للمسئولين الوطنيين كما كان جهل سيرس مدعاة لسوء التفاهم مع الامير نجونج فى ســارخان .. ومن سوء الحظ أن السفراء أكثر من مجـــرد « رؤوس » فهم مسئولون وقـد يتمخض سوء التفاهم الذى يحدثونه عن نتائج خطـيرة ، وفوق ذلك فان رجالهم غير مدربين بصفة عامة ، أو غير أكفـاء للنهوض بهذه الاعمال التى تتطلب لباقة وكياسة مثل جو بنج الذى ذكرناه فى كتابنا ..

ويقول « جون أوزيون » فى تحليله القوى لموضوع « الخـــدمة الخارجية » ان أهم عنصر يجب أن يتوافر فيمن يلحقون بالعمـــل فى أى مكتب خدمة خارجى هو « القدرة على الاتصال » وكما قال جيمس رستون

فى تقريره الذى نشرته جريدة نيويورك تايمز فى ١٨ مارس ١٩٥٨ « ان خمسين فى المائة من العاملين فى سلكنا الدبلوماسى الخارجى لا قدرة لهم على التحدث بأية لغة أجنبية ٠٠ وان سبعين فى المائة من الموظفين الجدد الذين يعينون فى الخدمة الخارجية يعانون نفس المشكلة » ٠

وهذه الأرقام تمثل هؤلاء الذين لا يتكلمون لغة واحدة بجانب لغتهم الاصلية حتى اللغة الفرنسية أو الاسبانية أو الألمانية أو الايطالية ٠٠ أما عدد الامريكيين الذين يستطيعون التحدث باللغات الصعبة فطفيف لايذكر

وبجانب موظفى خدمتنا الخارجية فلدينا أكثر من مليون مجند فيما وراء البحار ٠٠ ومن هذا المليون حفنة من الرجال يتكلمون لغة البلاد المعسكرين فيها ٠٠ ثم يتبخر هذا العدد القليل الى الصفر اذا كانت هناك تقارير علمية أو عسكرية فلا يستطيع أى فرد من افراد هذه الفئة القليلة قراءتها أو فك رموزها ٠٠

أما فى روسيا فان تسعة من عشرة من الروس يتكلمون ويقرأون ويكتبون لغة البلد الذى يذهبون اليه ٠٠ وهو أمر ضرورى ٠ فجميع موظفى السفارات الروسية فى آسيا من الروس ٠٠ وكل رجال السفارة من المسئولين الى كتبة الاختزال الى عاملى التليفون الى السائقين والخدم يتكلمون ويكتبون لغة البلد الذى عينوا فيه ٠٠

ان فى السفارات الامريكية فان الخدم والسعاة والمترجمين يتم تعيينهم محليا ٠٠ كما أن عمال التليفون فى كل سفارة من غير استثناء فى آسيا من الآسيويين ٠٠

أما قصة « ماك هوايت » ولى يانج فهى خيالية ولكن ظروف القصة توجد فى كل بعثة أمريكية فى آسيا ٠٠ أما قصة الخادمين الصينيين فمعروفة لأحد مؤلفى هذا الكتاب ٠٠

وفى قصتنا ذكرنا ان الامير « نجونج » جعل سيرس يعتقد ان الرسم الكاريكاتير كان فى صالحه وهذه حقيقة أثبتناها بالفعل لأنه أوحى الى الصحافة أن تثنى على السفير ثناء عاطرا ٠٠ وبما أننا كنا نعتمد على المترجمين الذين يكونون دائما غير أمريكيين فان المعلومات التى نحصل عليها تكون دائما عتيقة وعرضة للتحريف من غير علمنا ٠٠ وأثبتت الاضطرابات التى وقعت أخيرا فى أندونيسيا هذه النقيصة لاننا كنا نعتمد على المترجمين الأهليين ليترجموا لنا ما نريد أن نقوله للصحافة والراديو ٠ وطبقا للتقليد الاسيوى فان المترجمين أعطوا الدبلوماسيين من رجالنا تقارير براقة عن الحالة الداخلية ٠ وبعد تعطيل خطير وعدم فهم للامور الجارية اتضح لرجالنا العظماء أن أندونيسيا على حافة هاوية سياسية خطيرة ٠ أما فى الهند الصينية فان بعثاتنا السياسية والعسكرية لاتتحدث الا مع الفرنسيين الذين يبدون روح العداوة ضد هذه البعثات ٠ وعمد أحد مؤلفى هذا الكتاب الى الوقوف على رأى الفيتناميين أنفسهم بدون استخدام مترجم فيتنامى أو فرنسى فنجح عن طريق أحد القساوسة الامريكيين ، مثل الاب فانيان ، الذى يتكلم اللغة الوطنية بطلاقة فى

التعرف الى رأى الأهالى الصحيح ٠٠ فالكنيسة كروسيا تعرف أن عملها فى آسيا لا يمكن انجازه بدون معرفة لغة الآسيويين ٠٠

ان حبس المعلومات عنا ليس العقاب الوحيد الذى ندفعه ، ولكن فكر لحظة فى الثمن الذى ندفعه فى تعليم المواطنين اللغة الانجليزية بناء على طلب المندوبين الامريكيين ٠ ان الروس لا يقترفون هذا الخطأ ٠ فهناك لافتة على واجهة السفارة الروسية فى سيلان مكتوب عليها اسم السفارة باللغات السنهالية والتاملية والانجليزية والروسية٠ أما السفارة الامريكية فلافتتها بالانجليزية فقط ٠٠

لقد ذكر جون فوستر دالاس ما كان يجول فى خاطرنا عندما كتبنا قصص الكولونيل هيلاند بل والفتى العازف وجون كولفن من ناحية ٠٠ وقصص سيرس وسويفت وجو بنج من ناحية أخرى ٠ اذ قال : « لا مكان للمترجمين فى الوظائف السياسية فليس من المعقول أن نفهم ما يدور فى أذهان ناس آخرين من غير أن نفهم لغتهم ، فمن المستحيل أن نكون واثقين من معرفتهم ما يجول فى عقولنا » ٠

ان مقال مستر دالاس ينطبق فى قصتنا على « السيد الامريكى الفارع الطول » فجورج سويفت لم يتكلم اللغة السارخانية ، لذلك لم يفهم ماكان يدور فى أذهان السارخانيين ٠٠ فشعر بالاساءة ٠ أن قصته خيالية ولكن مساوىء البروتوكول حدثت لأحد مؤلفى هذا الكتاب تماما كما رويناها ٠

فأمثال سويفت من الامريكيين الذين لا يتكلمون لغة البلاد المنتدبين اليها ، لا يلمون الا بالدراسة الأكاديمية لعادات البلاد ، ومعتقداتها ، ودياناتها ، ومزاجها ٠٠ أما الذين يتكلمون الانجليزية من الاهالى فلا يعبرون تعبيرا صحيحا عما يدور حولهم من أحداث بالطريقة التى يجب أن يفهمها أولو الامر والخبراء والسياسيون ٠٠

ان سفيرا امريكيا فى سيلان كان يعد من أعظم السياسيين وأقدرهم وقع فى خطأ شنيع لأنه وضع ثقته فى قادة الحزب السياسى الحاكم ٠٠ القادة الذين ينتمون الى عهد الاستعمار ، وتعلم أغلبهم تعليما انجليزيا عاليا ويمثلون الاقطاعيين ٠ وكان ، على ما يظهر ، يعتمد فى معلوماته عليهم ، لأنه لم يحذر وزارة الخارجية من خطورة الحالة فوقعت انقلابات سياسية قومية ، فحصل أصدقاؤه الذين اعتمد على معلوماتهم ، على ثمانية مقاعد من ١٠١ مقعد فى الحكومة ٠٠

وذكرنا فيما ذكرنا قصة الامريكى القبيح وكذلك قصة الكولونيل هيلانديل اللذين كانا يتكلمان لغة البلاد واللذين استطاعا ان يزورا أعماق البلاد ويطلعا الناس على أفكار أمريكا وأهدافها ٠٠ وهما شخصيتان أمريكيتان يعرفهما الكاتبان ٠ وهناك آخرون مثلهما لا يحبهم الامريكيون المسئولون فى العواصم الاسيوية ، على حين ان قليلين مثل هيلانديل وكثيرين من الروس يجوبون القرى والدساكر والنجوع ، فان أغلب الامريكيين لا يقدمون على هذا الأمر لجهلهم باللغة وعدم استطاعتهم التفاهم مع الأهلين ٠٠ أما وصف الحياة الاجتماعية التى كانت تحياها مارى

ماكنتوش فصحيحة وان كان اسمها غير صحيح ·· فالآسيويين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم فقد سمعناها لاول مرة فى بانكوك عندما دعونا أحد الوطنيين لقضاء فترة المساء معنا ·· فذكر لنا أنه لسوء الحظ على موعد سابق لحضور اجتماع أطلق عليه اسما غريبا لم نفهمه ، فسألناه عن معناه فتعجب لأننا لا نعرف ·· ثم قال :

« اننا نستعمل هذا الاسم اذا كنا ذاهبين الى حفلة كوكتيل أمريكية أو عشاء أو ما اليها » ··

قال نيكسون نائب الرئيس فى احدى خطبه فى نادى الصحافة القومى فى أثناء رحلته الى أمريكا اللاتينية : « قد أستطيع أن أركز نفسى على حفلات الكوكتيل وموائد الطعام فاذا ركزنا أمورنا على مثل هذه الشكليات فسوف نخسر المعركة ·· « ان كل ما يحتاج اليه الديبلوماسيون أن يخرجوا ويندمجوا مع الطلبة وقادة العمال الذين يدفعون حركة المستقبل بدلا من ذهابهم الى حفلات الكوكتيل ··

وفى تقرير للمستر « ليلاند باروز » رئيس بعثة العمليات فى فيتنام قال : ان كثيرين من الامريكيين يتركزون فى العواصم الكبيرة ، فى حين أن واحدا منهم لا يعيش فى القرى ·· فأمثال جو بنج وجورج سويفت حقيقة لا غبار عليها ··

أما القصة التى بعنوان « الكل يحب جو بنج » فشخصية روث جويتى الخيالية تثبت أن العالم الاحمر ـ روسيا ـ أحسن بكثير فى العلاقات العامة من العالم الحر ـ أمريكا ـ فخطبها ومناقشاتها كلها من وحى الخيال ولكن أفكارها غير ذلك · ولنضرب لذلك مثلا فنقول أن أمريكا تحضر عددا كبيرا من الطلبة الاسيويين الى الولايات المتحدة الامريكية كل عام ·· وهذه فكرة ممتازة ، لكن لسوء الحظ تهدف أمريكا من وراء ذلك الى أن يتعلم هؤلاء الطلبة اللغة الانجليزية ويجيدوها ما دام معلموهم هنا لا يتكلمون غير هذه اللغة · ومعنى هذا أيضا أن هؤلاء الطلبة لابد أن يأتوا من طبقة معينة من المدن الآسيوية الكبيرة لأن آسيا بلاد زراعية ··

أما الشيوعيون فلا يفعلون ذلك · ففى مقاطعة « يانان » بالصين ترى أن لديهم أنظمة تعليمية خاصة للطلبة الذين يأتون من جنوب شرقى آسيا وفى هذه البلاد حوالى ثلاثون ألف طالب من أندونيسيا وبورما وتايلاند ولاوس وكمبوديا وبعض جهات فيتنام · ومدة الدراسة ثمانية عشر شهرا وتلقى المحاضرات بلغة الطلبة الاصلية وتشمل المناهج الزراعية والصباغة والطباعة والحدادة وبعض الحرف الاخرى التى يحتاج اليها الناس فى المدن الصغيرة ·· ويعيش الطلبة فى دور خاصة مع زملائهم ومواطنيهم وتلقى عليهم المواعظ الدينية من رجال الدين الذى ينتمون اليه ·

ولا غرابة اذن أن عاد هؤلاء الطلبة الى بلادهم أو الى مزارعهم وهم أكثر الناس حماسة للنظام الصينى الشيوعى ··

أما قصة الميجور ولشك والميجور مونيه فى الفصلين « صلابة الحرب »

و « دروس الحرب » فقد حاولنا أن نشرح بالتفصيل جهلنا المطبق بخطط الشيوعيين · فنحن نحارب الشيوعيين سنوات عدة ومع ذلك فاننا لم نجد فى الهند الصينية أمريكيا واحدا أو فرنسيا من العسكريين أو المدنيين قرأ أو درس ما كتبه كبار القواد الشيوعيين عن الحرب ولا سيما ما كتبه الزعيم ماوتسى تونج فى كتابه « مختارات من أعمال ماوتسى تونج » والذى طبع فى لندن (طبعة لورانس ويشارت وشركاه) ، وفى أمريكا أيضا (الناشرون الدوليون)

طبع هذا الكتاب فى أربعة أجزاء عام ١٩٥٤ ولكن المواد الاساسية للكتاب كانت معدة منذ عام ١٩٣٤ · وهناك بحث قصير آخر بعنوان (السلاح المنظم ـ دراسة لاستراتيجية البولشفيك والتكتيك الحربى بقلم فيليب سلزنيك ـ ماك جروهيل ١٩٥٢) ·

وفى كتابه الشهير يحلل ماو ـ وهو من ألمع رجال التكتيك فى عصرنا كل دقائق المعارك التى خاضتها الجيوش الحمراء ·· ثم يعقب على الهزائم النادرة الحدوث ، والانتصارات الكثيرة ، والدروس التى تعلمها من كليهما ·· وبعمله هذا أعطانا صورة واضحة عن الاستراتيجية التى اتبعها الشيوعيون فى حربهم فى جنوب شرقى آسيا ·

أما المعارك التى دارت حول « دين بين فو » فكانت كلاسيكية واحسن أمثلة لتطبيق آراء ماو ·· ومع ذلك لم تدرس البعثات العسكرية هذا التكتيك المنظم الذى قاد الى نصر الشيوعيين وهزيمة الحلفاء ..

لماذا لم يتعلم مندوبونا فى الخارج اللغات التى يحتاجون اليها ؟·· ولماذا لم يدرسوا كتابات « ماو » ؟ · مهما تكن الاسباب فان خريجينا لا تجذبهم الوظائف الخارجية لأن نظم الالتحاق بهذه الوظائف صورناها فى القصص الآتية : « الفتاة التى التحقت بالخدمة الخارجية » و « فرص العمل فى الخارج » وتقرير السفير سيرس عن نوع الموظفين الذين كان فى حاجة اليهم ، فهذه القصص تمثل الواقع أحسن تمثيل ··

ان التقرير الذى طبعته وزارة الخارجية بعنوان « فرص العمل » طبعة ديسمبر ١٩٥٦ تشرح بالتفصيل المرتبات ووسائل المعيشة وغير ذلك وتصور بعض الشبان وهم يركبون الطائرات الى البلاد التى تم تعيينهم فيها ثم تريك بعض الصور ايضا لامريكيين فى أسواق اصفهان بايران . ولكنها لا تورد فيها كلمة واحدة عن نوع العمل المطلوب ولا عن نوع المعركة التى نخوضها ونعمل من أجلها ·· انه كتيب لجذب متوسطى الحال لا بأس به على أى حال ·

اكتشف المؤلفان فى حديثهما مع المسئولين فى كل مكان أنهم يكرهون المعونة الامريكية لأنها على حد تعبيرهم فى منتهى الغباء والبيروقراطية ·· ان طلابا كثيرين قد يجذبهم العمل فى الخارج ، اذا تحقق لهم مستوى أرفع وتيسر لهم الاتصال بالمواطنين ، وتهيأ لهم طيب الاقامة ولم يواجهوا تحديا وعنتا ··

فاذا حصلنا على كفاية ممتازة فنحن على استعداد لعمل كل شيء للاستفادة من كفاياتهم ..

أما قصة « ماك هوايت » الشخصية الخيالية فلها أيضا أهميتها .. لقد كان هذا الرجل أمينا مخلصا ذكيا ، ومع ذلك فنراه فى نهاية القصة يجبر على الاستقالة . ان الاحصائيات فى تاريخنا السياسى التى سجلت مثل هذه الأمور لاوجود لها ، ولكن استقالة جورج كينان واقعة لاشك فيها.

وفى الفصل الخاص «سيدى السيناتور» ذكرنا أن رجالنا الديبلوماسيين فى الخارج يضيعون أوقاتهم فى الاحتفال بكبار رجالنا بدلا من أن يقوموا بأعباء أعمالهم .. لقد رأينا سفارات كثيرة فى آسيا تبذل مجهودا جبارا فى الاحتفال بالشخصيات البارزة الهامة وهم فى ذلك يشبهون وكالات السياحة .. حتى ان المستر نيسون أخذ ملاحظات بذلك بعد زيارة لجنوب شرقى آسيا .. وكم تكلف هذه الحفلات الحكومة من أموال باهظة ..

أما قصتنا عن توم نوكس ، الشخصية الخرافية لخبير الدجاج الذى كان فى أول الامر متحمسا لعمله ثم انساق وراء الكلمات الناعمة والحياة الرغدة الخيالية حتى نسى الهدف أو الغرض الذى كان يدافع من أجله دفاع المستميت فقد حاولنا فيها أن نشرح بالتفصيل أننا نخسر البلايين من الدولارات على مشروعات فاشلة .

ان الخبراء الامريكيين فى الخارج يتشدقون دائما بالاعمال الكبيرة من بناء السدود العالية أو شق الطرق الطويلة أو اقامة وسائل الرى.. وكل هذه مظاهر كاذبة . فالخبراء الذين يريدون البدء بالاعمال الصغيرة المثمرة لا يجيدون التشجيع اللازم.. لقد جمع مؤلفا هذا الكتاب معلومات هامة من الاقتصاديين الوطنيين فى البلاد الآسيوية عن المشروعات التى هم فى حاجة ملحة اليها .. وتضمنت هذه المشروعات تحسين أنواع الدجاج وصناعة بعض الطلمبات الصغيرة التى لا تحتاج الى قطع غيار باهظة الثمن .. أو الى طرق تحسين البذور وتشجيع الصناعات الصغيرة ..

ان هذه هى المشروعات التى تكسبنا صداقة الشعوب وتكلفنا القليل من المال .. وفى الوقت نفسه تعمل على الاستقلال الاقتصادى فى آسيا. يجب علينا أن نفهم هذه الأمور قبل أن يسبقنا اليها الشيوعيون .. اننا ندفع ملايين الدولارات لشق طرق خلال الغابات فى آسيا فى حين أن وسائل النقل هناك لا تتعدى الدراجة أو السير على الأقدام .. اننا نمول مشروعات السدود فى حين أن الحاجة القصوى الآن هى الى طلمبة ماء .. اننا نرسل معدات حربية لاتقدر قيمتها بمال ، ولكن هذه المعدات لاتكسبنا الحروب ولا ترفع من مستوى المعيشة فى البلاد التى ترسل اليها .. وهذا ما قصدناه بقصتنا عن المهندس القبيح هومر آتكنز .. انها شخصية خيالية ، ولكن المؤلفين يعرفان رجلا يعمل حاليا بين الفلاحين والمواطنين فى هذه البلاد النائية ..

ان اقتفاء الشيوعيين لجهودنا لا يمكن أن نتجاهله .. فقصة لويس كروبتزين السفير الروسى فى سارخان فيها بعض المبالغة عن معونة الارز

الى احدى دول آسيا الجائعة . ولكن ما تعلق منها بانتهاز الشيوعيين الفرصة وطبعهم على أجولة الارز « هذا الارز هدية من روسيا » واقعة حقيقية ..

عند ما كان أحد المؤلفين فى الباكستان ، وزعت بعثتنا الاقتصادية شحنة من الجرارات الامريكية . وفى خلال أيام قليلة أذيع فى طول البلاد وعرضها أن هذه الجرارات منحتها روسيا للباكستان . وبعد مناقشة حادة مع احدى الجرائد الباكستانية ، اقنع أحد مؤلفى هذا الكتاب محرر الجريدة بأن يفحص الجرارات .. ودلت نتيجة الفحص انها امريكية بالطبع ، ولكن على كل مسطح فى هذه الجرارات طبع الشيوعيون علامة المطرقة الحمراء ومنجل الحصاد ..

ان الصورة كما نراها تتلخص فى أن الامريكيين يلقون بالدولارات من غير حساب فى حين أن روسيا لا تنفق الا القليل وتحصل على الكثير .

وعرفت النتيجة بما أسماه الفنيون « الموازنة الصعبة » والواقع اننا لم نخسر فى آسيا فحسب ، بل فى كل مكان .

لقد كسب الشيوعيون المعارك كلها .. فبعد الحرب العالمية الثانية أضافت روسيا سبعمائة مليون نسمة الى حكمها المباشر ، وابتلعت امبراطوريتها ما يقرب من خمسة ملايين ميل مربع .

وفى آسيا نرى الجيوش الشيوعية قد انتصرت فى حروبها فى الصين والهند الصينية والتبت واكتسبت هيبة عظيمة وسيطرة فى كوريا .

وأصبحت الاحزاب الشيوعية فى ايطاليا وأندونيسيا وكمبوديا ولاوس تناضل من أجل السلطة .

أما فى الشرق الاوسط فقد ضاعت هيبتنا فى حين ارتفعت هيبة روسيا ، وفى أمريكا الجنوبية أهين نائب الرئيس وأهينت أمريكا بأكملها .

حتى فى البلاد التى كنا نعتقد بأنها تحتفظ لنا ببعض الود نراها قد أصبحت ضدنا فهاجمتنا الصحافة فى الفيلبين واليابان وجمهورية الصين ، وكذلك فى البلاد التى نرسل اليها معونات ضخمة كلاوس وكمبوديا والهند وأندونيسيا والباكستان ..

ان قصة الشخصية الخرافية جون كولفن تعطيك فكرة عما جرى لأمريكا فى آسيا .. فقد اصطاد الشيوعيون دونج ، أما الامريكيون فتركوه ..

اننا لا نريد هذا العدد الجبار من الامريكيين الذين يعسكرون فيما وراء البحار وأغلبهم من الهواة ، والبالغ عددهم ١ر١٥٠ر٠٠٠ أمريكى . وكل ما نحتاج اليه حفنة صغيرة من الرجال المختارين المدربين المجتهدين الفنيين . هؤلاء الذين يضحون براحتهم وصحتهم عن رضا وطواعية فى سبيل بلادهم .. يجب على هؤلاء أن يكونوا مسلحين بسلاح العلم والمعرفة

والالمـام بلغة البلاد التي يذهبون اليها ، وأن يكونوا أكثر خبرة من الوطنيين بالمشكلات التي تواجه هذه البلاد ..

فاذا كان الثمن الذي نريد أن ندفعه هو الدولار .. فيجب أن ننسحب قبل أن نطرد من هذه البلاد ..

واذا كنا غير مستعدين لدفع الثمن كما يحتمه علينا واجب الانسانية .. فيجب أن نعود أدراجنا وننسحب الى شواطئنا .. ونتعلم كيف نعيش داخل بلادنا من غير تجارة عالمية ، ونقبل الحياة الرخيصة أو الوضيعـــة ونترك العالم الشيوعي يزدهر وينمو ..

وعلى كل فالحـال التي نجد أنفسنا فيها بعيدة عن اليأس .. فعندنا المادة وفوق كل ذلك المصادر الانسانية لنغير طرائقنا ولننتصر .. ان الخطأ لا يقع على الحكومة أو على زعمائها أو على أحزابها السياسية . انه احساس الأمة كلها فاذا عرف الناس المشكلة وألم أغلبهم بدقائقها واذا استطعنا أن نلهب حماسة الجماهير فحينئذ سوف ننجح ..

فكما قال كوردل هل : « ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية ليست بعيدة عن الرأى العام الامريكي ، وليست متخلفة عنه كذلك .. »

لقد قدمنا الى الامم الآسيوية النوع الخطأ من المعونة ، لقد فقـدنا ماضينا حين حاولنا الاقتصار على بيع البنادق أو توزيع المـال بدلا من أن نتذكر أن كرامة حريتنا كفلت لنا طريقنا الوحيد فى الحياة ..

لقد وجدنا ان الخلق الامريكي الاصيل فى آسيا محترم مشرف ، ومثال يحتذى ما أمكن . انه ينبغي لنـــا ونحن نمد يد المساعـدة الى آسيا في سبيل الاكتفاء الذاتي أن نضرب لها المثل على أن أمريكا مازالت بلد الحرية والأمل ، ومعرفة القانون ..

فاذا نجحنا فلن نخسر المعركة ..

تم بحمد الله

موضوعات الكتاب

			صفحة
مقـــــدمة	.....	.....	٣
كلمة المؤلفـــين	.....	.....	٧
الفصل الاول	:	لو السعيد رقم (١)	٨
الفصـــل الثانى	:	لو السعيد رقم (٢)	٢٣
الفصـــل الثالث	:	تسعـــــة أصدقاء	٢٩
الفصـــل الرابع	:	الـكل يحب جو بنج	٤٧
الفصـــل الخامس	:	ســـــرى وخاص	٥٣
الفصل السادس	:	فرص العمل فى الخارج	٥٥
الفصل السابع	:	الفتاة التى تطوعت للخدمة فيما وراء البحار	٥٩
الفصل الثـــامن	:	السفير والصحافة العاملة	٦١
الفصل التـــاسع	:	الـــكل له آذان	٦٥
الفصل العـــاشر	:	الفتى العـــازف	٧٧
الفصل الحادى عشر	:	صـــلابة الحرب	٨١
الفصل الثانى عشر	:	دروس الحـــرب	٩٤
الفصل الثالث عشر	:	ما الذى تفعله لو كنت رئيسا ؟	١٠٢
الفصل الرابع عشر	:	كيف تشترى امريكيا ذا ثقافة محدودة	١٠٩
الفصل الخامس عشر	:	السيد الامريكى الفارع الطول	١٢٢
الفصل السادس عشر	:	الكابتن بوننج من البحرية الامريكية	١٣٤
الفصل السابع عشر	:	الأمريكى القبيـــــح	١٤٣
الفصل الثامن عشر	:	الأمريكى القبيح والسارخانى القبيح	١٥٠
الفصل التاسع عشر	:	الظهور المحنية لشانج دونج	١٦١
الفصل العشرون	:	سيدى عضو مجلس الشيوخ	١٦٦
الفصل الحادى والعشرون:		مجمل الاشياء الصغيرة	١٨٣
الفصل الثانى والعشرون:		خاتمـــة حقيقية	١٨٩

طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا

المصحح : أ ٠ م ٠

١٥٧ ـ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥